



ترجمة

الدكتور عبد الوهاب علوب
كلية الآداب - جامعة القاهرة

تأليف

، اكبر فياض



تاريخ الجزيرة العربية والإسلام

تأليف

الدكتور على أكبر فياض

ترجمة

الدكتور عبد الوهاب علوب

كلية الآداب - جامعة القاهرة

مركز النشر لجامعة القاهرة

١٩٩٣

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى

1993 - H 1414

هذه ترجمة لكتاب:

تاريخ إسلام، تأليف: دكتور على أكبر فياض،
انتشارات دانشگاه تهران، شماره 1970

مقدمة المترجم

يهدف من ترجمة هذا الكتاب إلى محاولة الإسهام في تعريف القارئ العربي بإضافات الباحثين الإيرانيين المعاصرين في المعارف الإسلامية في العصر الحديث كامتداد لإسهامات أسلافهم الجلييلة في نهر الحضارة الإسلامية العزير .

صدر هذا الكتاب باللغة الفارسية في عام 1970 تحت عنوان « تاريخ إسلام » في سلسلة تصدرها جامعة طهران . ولد مؤلف الكتاب في أسرة دينية في عام 1899 بمشهد، وفي عام 1938 انتقل إلى طهران ، وفي عام 1944 حصل على درجة الدكتوراه في الأدب الفارسي ، وزار مصر في عام 1949 حيث قام بإلقاء محاضرات حول الأدب والمناهج الأدبية الحديثة بالجامع الأزهر وبالإسكندرية . وفي عام 1950 عاد إلى طهران ليقوم بالتدريس بالجامعة ، وفي عام 1959 تولى عمادة كلية الآداب ، وفي عام 1960 تولى بالإضافة إلى ذلك عمادة كلية الإلهيات ، وانتخب نائبا بالبرلمان لعدة دورات متعاقبة . ويلم الدكتور فياض بالعربية والروسية والإنجليزية والفرنسية بالإضافة إلى لغته الأم وهي الفارسية

يضم الكتاب ستة فصول ، ويحتوي كل فصل على عدة عناوين جانبية ، فيتناول الفصل الأول جغرافية الجزيرة العربية ونمط الحياة البدوية والتوزيعات السكانية في مختلف أرحاء الجزيرة والدول التي قامت في كل من شمالها وجنوبها منذ عصر ما قبل التاريخ وحتى فترة ما قبل الإسلام ، ويستند المؤلف في هذا الموضوع إلى ماورد في المصادر الرئيسية باللغات الأوربية بالإضافة إلى المصادر العربية القيمة إلى جانب ماورد في الكتب السماوية الثلاثة ، ثم يتناول المؤلف ديانات الشعوب التي سكنت الجزيرة العربية ودور الدين ومكانته في الجاهلية ، وفي الفصل الثاني ينتقل الكاتب إلى وصف الحياة والظروف السياسية والإجتماعية التي سادت الجزيرة العربية أيام ميلاد النبي ﷺ وظهور الإسلام، كما يتناول المؤلف في الباب نفسه أهم القبائل التي شاركت في صنع الأحداث وخاصة بمكة ، ثم يعالج الكاتب بدء البعثة النبوية والقرى السياسية التي

ناصبت الدين الجديد العداء وأسباب ذلك .

وفى الفصل الثالث يتبع المؤلف ترتيبا زمنيا صرفا فى سرده للأحداث التى تلت هجرة النبى من مكة إلى المدينة فى خلال أحد عشر عاما ، أما فى الفصل الرابع فيؤرخ الكاتب لفترة الخلفاء الراشدين ويتبعه بفترة الخلافة الأموية والخلافت التى دارت حول كيفية صعودهم إلى السلطة فى الفصل الخامس ، وفى الفصل السادس يتحدث عن الدولة العباسية والقوى السياسية غير العربية التى أمسكت بزمام الدولة فى عصرهم بالإضافة إلى الدويلات التى أعلنت استقلالها فى عهدهم .

يحاول الكاتب فى إيرادہ للمعلومات التاريخية أن يتحرى الدقة والتوثيق الدقيق ويبذل جهدا فى إيراد مختلف الروايات والآراء التى تتعرض لموضوعه وهو من الأسباب التى كانت ناعشا لنا على الإقدام على ترجمة كتابه ، ومن المصادر التى يعتمد عليها المؤلف فى بحثه تاريخ اللغات السامية لولفنسن و الإسلام للامنز و سنى ملوك الأرض لخمرة الأصفهاني وتاريخ عربستان لآقاي تقيزاده و مرجع الذهب للمسعودى والطبرى وابن هشام وغير ذلك من المصادر التاريخية الموثوقة فى هذا الموضوع ، كما يتميز أسلوب الكاتب الذى اتبعه فى ذلك على إيضاح الفكرة لدى القارئ .

ويقوم المترجم من حين إلى آخر بالتعليق على بعض النقاط التى تحتاج إلى إيضاحات أو إلى زيادة فى التفصيل أو حين يبدى الكاتب آراء تم عن شئ من التحير لعصره الفارسي ، والرحاء أن يوجه مريد من الجهد فى محال ترجمة الأعمال الهامة التى تدون باللغات الإسلامية من فارسية وتركية وأوردية فى العصر الحديث حتى يتمكن القارئ العربى من التعرف على فكر أساء الثقافة الإسلامية فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى

وعلى الله قصد السبيل

المترجم

الفصل الأول
الجزيرة العربية

جغرافية الجزيرة العربية

تعد الجزيرة العربية شبه جزيرة ضخمة تقترب في مساحتها من ثلاثة ملايين كيلو متر مربع وتقع في الطرف الجنوبي الغربي من قارة آسيا ، يحدها من الغرب خليج العقبة والبحر الأحمر (بحر القلزم) ومن الشرق خليج عمان والخليج الفارسي وأرض العراق ، ومن الجنوب خليج عدن وبحر عمان ، ومن الشمال صحراء شاسعة ممتدة في سهل واسع منبسطة تتصل في أحد أطرافها بوادي الفرات وفي الطرف الآخر بأرض الشام وفلسطين ولا يفصلها حد طبيعي كالأنهار أو الجبال ، لهذا فقد اختلف الجغرافيون القدماء بشأن تحديد الحد الشمالي للجزيرة العربية ، فاعتبره بعض منهم خطا يمتد من ساحل البحر المتوسط إلى مصب نهر الفرات ، وراد بعض آخر على ذلك ، وأنقص آخرون ⁽¹⁾ . ولكن في خضم التطورات السياسية التي طرأت في أعقاب الحرب العالمية الأولى أصبحت الجزيرة العربية تحدها شمالا دولة الأردن حديثة الإشاء من ناحية ، ومن ناحية أخرى دولة العراق ، ومن ثم فقد انقطع اتصالها بنهر الفرات والبحر المتوسط والبحر الأحمر في حدوده الشمالية خليجان ضيقان ، أحدهما شرقي ويطلق عليه اسم خليج العقبة والآخر عري ويسمى خليج السويس ، وتسمى الأرض الواقعة بين هذين الخليجين شبه جزيرة سيناء التي ورد ذكرها في تاريخ الأديان مرارا وتكرارا ، وتتبع شبه جزيرة سيناء دولة مصر إلا أنها من حيث التكوين الجغرافي الطبيعي تشبه جزيرة العرب تماما .

وتعد جزيرة العرب هضبة عالية تنخفض إذا اتجهنا من الغرب إلى الشرق تدريجيا ، وعلى امتداد الحد العربي من جزيرة العرب بدءا من شبه جزيرة سبأ وربما من لبنان سلسلة جبلية على امتداد ساحل البحر الأحمر وتشبه في شكلها حدارا هائلا يلتف من الركن الجنوبي الغربي على امتداد الساحل الجنوبي والشرقي لجزيرة العرب وحتى الخليج الفارسي ، وبهذا فإنه يحيط بالجزيرة بهذا الحدار الجبلي من ثلاثة أطراف ، وتتخلل هذه السلسلة الجبلية وديان عديدة تختلف مساحتها ضيقا واتساعا وتفصل الجبال أحدها عن الآخر وفي بعض المناطق يمتد الحبل حتى ساحل البحر، ولكن في معظم النقاط هناك فاصل

(1) راجع معجم البلدان ، مادة جزيرة العرب

أرضى يفصل بين الجبال والبحر وهى المنطقة التى يطلق عليها العرب اسم « تهامة » ، وقد أصبح هذا الاسم العام اسما يطلق على إقليم خاص ، كما سنرى فيما بعد .

وجبال الجزيرة العربية فى معظمها تتكون من صخور جرانيتية باللون الأبيض أو الأحمر، وترى فى أجزاء منها جبال بركانية خامدة كان بعضها ثائرا فى العصور القديمة ، وفى بعض المناطق ترى أراض سوداء اللون يطلق عليها العرب اسم « الحرة » وهى عبارة عن حمم البراكين القديمة .

وفى داخل هذا الحصار الجبلى صحراء ، أو بمعنى أصح صحراوات شاسعة يطلق عليها هضبة الجزيرة العربية نظرا لارتفاعها عن مستوى سطح البحر . ويمكن تقسيم هذه الهضبة من شمالها إلى جنوبها إلى ثلاثة أقسام من ناحية موقعها الجغرافى : القسم الأوسط وهو أشد نتوءا من القسمين الآخرين ويطلق عليه اسم « نجد » وهى تعنى فى اللغة العربية « المرتفع من الأرض » ، والقسم الشمالى عبارة عن أرض حصاء تعرف باسم « النفود » وتتصل من طرفها الشمالى بصحراء الشام (بادية الشام) ، والقسم الحوى هو أرض حصاء قفرة تعرف باسم « الدهناء » ويمتد طرفها حوبا حتى يقترب من بحر عمان

كما ذكرنا من قبل ، فإن هضبة جزيرة العرب تنخفض تدريجيا من الغرب إلى الشرق ، وطرف هذا المنخفض على سواحل الخليج الفارسى وبهر الفرات على هيئة سهل صيق من نوع سهل ما بين النهرين وسهل خوزستان لا يرى فيه سوى عدد من التلال العالية ، ويبدو أن هذا السهل - أى سهل خوزستان - كان امتدادا لهذا المنخفض السهل قبل تكون الخليج الفارسى

* * *

كان الجغرافيون الإغريق من عهد استرانن يقسمون جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام . جزيرة العرب الصحراوية ، جزيرة العرب الصخرية ، وجزيرة العرب السعيدة ، وكانوا يطلقون اسم « حريرة العرب الصحراوية على بادية الشام . وحريرة العرب الصخرية عبارة عن منطقة تسمى « البتراء » تقع فى الشمال العربى من جزيرة العرب (وسيرد ذكرها فيما بعد) ، أما بقية حريرة العرب ، بدءا من حوى بادية الشام ، فكانوا يطلقون عليها

اسم « جزيرة العرب السعيدة ⁽¹⁾ » ، وكان بعض علماء أوروبا يظنون أن ثمة ارتباطا بين لفظ « السعيد » ولفظ « يمن » العربيتين بمعنى أن « اليَمَن » (اسم المنطقة) مأخوذ من « يُمْن » بمعنى « الخير والبركة » ، وقد أخذ الإغريق هذا المعنى فى تسميتهم لاسم «السعيد » ، فى حين أن علماء العرب يرون أن اسم « اليمن » مشتق من « اليمن » ضد « اليسار ⁽²⁾ » .

ولكن العرب أنفسهم اتبعوا نهجا آخر فى تقسيم جزيرة العرب ؛ فالقسم الجبلى الغربى الذى يعرف باسم « سراة » ويعد أكبر حال جزيرة العرب وامتداده من الشمال إلى الجنوب هو المرتكز فى عرفهم، وطرفه الغربى الذى يمتد من الجبل وحتى البحر الأحمر يطلق عليه اسم « تهامة » أو « الغور » . أما طرفه الشرقى وحتى الجزء المرتفع فقد أسموه « نجد » ، وأطلقوا على الجبل الذى يفصل بين نجد وتهامة اسم « الحجاز » ، ويطلقون اسم « العروض » على أطراف نجد والتي تنتهى عند الخليج الفارسى وتضم اليمامة والإحساء وعمان وما حولها ، واليمن هو الذى يقع إلى الجنوب من الحجاز ونجد ويضم حضرموت ومهرة وشمر . وبناء على هذا ، فإن جزيرة العرب تنقسم إلى خمسة أقسام كبرى هى الحجاز وتهامة ونجد والعروض واليمن ، وكل قسم منها ينقسم بدوره إلى أقسام أصغر ، وأقسام اليمن على وجه الخصوص يطلقون عليها اسم « مخلاف » ، ويطلقون على المنطقة التى تشرف بادية جزيرة العرب منها على الشام اسم « مشارف الشام » .

الحياة فى الجزيرة العربية :

تعد الجزيرة العربية ، بحكم وقوعها فى المنطقة الحارة تحت الاستوائية ، من بين المناطق الشديدة الحرارة ، وفى الأراضى المنخفضة منها من قبيل تامة وفى داخل الأودية تشتد الحرارة بصورة شديدة وفى الصيف لا يطيق سكانها أنفسهم الحياة بها ، ولا تخف وطأة الحرارة نسبيا إلا فى المناطق المرتفعة حيث تصح احتملة كمناخ نجد والجبال المطلية عليها مثل الطائف، وحتى فى نجد نفسها نادرا ما تنخفض الحرارة فى ليالى الشتاء إلى درجة

(1) A A Thomas, Arabia Felix, (1938) P xT 1

(2) معجم اللدان ، مادة « يمن »

الصفر ، والقمم الشديدة الارتفاع تغطى بالثلوج أحيانا ولفترات وجيزة ولا تدوم أكثر من أسابيع قلائل . وتعتمد الأمطار فى شبه الجزيرة العربية على نظام رياح المحيط الهندى فى الجنوب والبحر الأبيض المتوسط فى الشمال . وبالطبع ، فإن نظام الأمطار يختلف كذلك باختلاف وضع كل منطقة أى الاختلاف بين الصحراء والمناطق الجبلية والمنخفضات والمرتفعات واتجاه امتداد الأودية وما إلى ذلك ، وتمتاز المناطق الجبلية التى تقع فى مواجهة الرياح الممطرة القادمة من المحيط مباشرة كاليمن وحضرموت وعمان بدرجة عالية نسبيا من الخصوبة والرطوبة إذا قورنت بالهضاب الداخلية التى تحجبها الجبال ، وكذلك بالجبال الشرقية والشمالية التى لا تحصل على نصيبها من الأمطار إلا من بقايا أمطار البحر المتوسط كالحجاز ، وفى جدة مثلا نجد المناخ يمتاز بالرطوبة العالية نسبيا على مدار السنة نظرا لقربها إلى البحر الأحمر ويتأثير من الرياح الشمالية الغربية (القادمة من المتوسط) ، وفى الوقت نفسه تتميز بالحرارة العالية نسبيا بسبب انخفاض مستوى الأرض بها ، فى حين تمتاز مكة بالجفاف الشديد نظرا لوقوعها بين حلقة من الجبال .

وفيما عدا القسم الجنوبى الغربى منها أى اليمن التى يمكن القول أنها تتمتع بنظام أمطار منتظم وكاف لها فإن الأمطار فى سائر بقاعها عابثة ما تتسم بعدم الانتظام وفترات الانقطاع ، وعادة ما يسقط فى الشتاء وبدايات الربيع ، وتستمر فترات الجفاف مدة ثلاث سنوات أحيانا ، وفى بعض الأحيان تأتى بعض السنوات بوفرة من الأمطار وبكميات كبيرة وغزيرة لدرجة تدفق سيول عارمة فى غضون ساعات قلائل ، وتحمل فى طريقها الحباب والماشية الخاصة بسكان الوادى ⁽¹⁾ ، إلا أن هذه السيول لا تدوم طويلا حيث تغوص فى الرمال والحصباء . والحقيقة أن الجزيرة العربية ليس بها مصدر للمياه يمكن أن نطلق عليه اسم « نهر » ، أحيانا تظهر المياه التى تغوص فى الرمال على شكل ينابيع وعيون وقنوات فى الأرض الأكثر انخفاضا فتشكل الواحات . ولكن بصورة عامة ، فإن شبه الجزيرة العربية تعد بالفعل منطقة شديدة الجفاف ، ويعتقد علماء الأرض أن صحراء الجزيرة العربية الجنوبية كانت فى عصر ما قبل التاريخ منطقة بحرية بها أنهار وأرض خصيبة باعة ثم تحولت شيئا فشيئا إلى منطقة جافة حتى أصبحت على ماهى عليه ، ويعتقدون أيضا أنها تضم فى باطن أرضها مياهًا وفيرة يمكن استخراجها بغرض تغيير

(1) Lammens, L'Islam, p 6

صورتها فوق الأرض نحو الأفضل .

ينقسم سكان هذه الأراضى إلى قسمين : بدو وحضر ، والبداوة وهى الشكل البدائى للحياة لا تزال تمثل أسلوب حياة معظم سكانها ، وقد تصل نسبة البدو بين العرب اليوم إلى ثمانين بالمئة ، ويحتفظ البدو بالخصائص الأصيلة للعرق العربى بصورة أكبر منها لدى الحضرة منهم ، يحكم أنهم ظلوا بعيدين عن الاختلاط بالأقوام الأخرى فى خارج الجزيرة العربية .

ويمتاز البدوى العربى نوعا ما بالقامة المتوسطة والنحافة نسبيا نظرا لمقتضيات أسلوب حياته ، إلا أنه فى الوقت نفسه يمتاز بالذكاء والقوة على غير ما يوحى به ظاهره ، كما يتصف بالعارض المسحوب غالبا والعيون الداكنة الحادة ، وعادة ما تتسم نظراته بالجدة والقسوة بحكم التعود على مراقبة الأفق فى البوادرى خوفا من الأعداء ، والسمة البارزة للبدوى هى حرصه على الاستقلالية والحرية الفردية والحياة الطليقة . لذا ، فإنه يضيق بحياة المدن التى تقتضى التقيد بنظام محدد ، ويفضل عليها الحياة الحشنة القاسية .

وبيت البدوى عبارة عن خيمة سوداء من الصوف ، وكل خيمة تصم أسرة ، ومجموع عدة خيام أى عدة أسر يعد حيا ، وتشكل كل عدة أحياء دماء قبيلة واحدة ، ولكل حى رئيس يسمى شيخ له ولاية الحكم والفصل بين الأفراد فى المنازعات والخصومات ، وفى أوقات الحرب أو النقل والترحال من مكان إلى آخر يتولى أمر القيادة والإرشاد ، وتنتقل هذه المكانة أو الزعامة عن طريق الإرث ، إلا أن العقل والشجاعة والسجاء تعد كذلك من شروطها ، ولما كانت أعلية الأفراد لا يملكون ما يؤدون به متطلبات كرم الضيافة نظرا للفاقة الشديدة فإن شيخ القبيلة هو الذى يقوم بصيافة السيوف فى حيمته ، وإن استطاع فإنه يحصل من القبائل الأضعف حرية تسمى « أخوة » أى أنه قبلهم إخوة له وفى أى الأحوال ، فإن الشيخ يلتزم بمراعاة رأى الجماعة .

ورغم سمات كرم الصيافة وحماية الحار التى يرهو بها البدو فإن السفر فى البادية يقتضى رفقة حام أو حفير ، والحقيقة أن قسوة الحياة وخشونتها أو « شقاء البادية » على حد تعبيرهم يؤدى إلى جعل الإغارة والقتل من مستلزمات الحياة فى الصحراء ، وكان ما يحول دون تعدى الأفراد والقبائل على بعضها البعض طبقا للتقاليد الشديدة القدم مراعاة

حرمة الدم من ناحية وقانون الثأر الصارم الذى يطبق بدقة متناهية . وحتما ويمقتضى هذا العرف أو القانون فإن وارث القتل لا يحمل له دم القتل وماله وحسب بل ودم كل ذويه ومالهم إلا إذا قامت قبيلة القاتل بطرده منها ، وفى هذه الحالة يقتصر الثأر على القاتل وحده .

ويلجأ الضعيف فى سبيل البقاء إلى الاحتماء بالقوى درءا لخطر الأقوياء ، ويسمى فى عرف العرب « دخيلا » ، كما يحتذى من اقترف جرما بشخص له نفوذ طمعا فى تخفيف العقوبة عن نفسه ، وتعقد القبائل معاهدات فيما بينها فى مواجعة القبائل الأقوى وتتم مراسم عقد التحالف فى طقوس خاصة .

إن حياة البادية هى حياة صراع بصورة عامة؛ لذا ، كان العربى البدوى بالطبع مستعدا دوما بالشروط والمتطلبات اللازمة لمثل هذه الحياة ، فهو محارب لا يهاب ورام ماهر وفارس مقدم ذكى ، إلا أنه بالطبع فاتك يرجح الكمائن والغيلة على المواجهة المباشرة ، وخاصة بالأسلحة النارية التى حلت اليوم محل السهام والأقواس القديمة فى البادية .*

رغم أن بعضا من قبائل البدو فى بعض المناطق المحاورة للعراق وبادية الشام تشتغل بالزراعة على نطاق ضيق إلا أن الحرفة العامة للبدو هى الرعى وتربية الإبل والماعز ، وفى أعقاب سقوط أمطار الشتاء والربيع تزدان البادية بقدر محدود من الخصوبة وفى الصحراء الطاغية ثمة تلال رملية تحصل على الأمطار من ربح الشمال المحملة بالمياه من البحر فتخضر . وحين تزدهر الخضرة يرتحل البدو زمرا عن مقارهم الشتوية إلى السهول المخضرة ، وبعد الرعى فى المنطقة المخضرة يرتحلون إلى منطقة مخضرة أخرى ، وبعد هذا الفصل من السنة فصل الخير والسعادة بالنسبة للبدوى ، إنه الوقت الذى يقول فيه أحد الكتاب العرب « تمتلىء فيه بطون الأطفال النحفاء وترعرعون من وفرة اللبن » . أما الجمل الذى يعد الأساس الذى تقوم عليه حياة البدوى ورأس ماله فإنه ينتعش فى هذه المراعى ويضمن للبدوى الحياة، وفى هذا الترحال فى السواحل يستفيد البدوى من الأعشاب

* هذا بالطبع حكم عشوائى يقع فى خطيئة التعميم والإغراض ، فمثل هذه الأحكام لا يمكن الحكم بها على أى عرق من الأعراق ، وإنما تختلف من فرد لآخر ومن طرف لآخر . (المترجم)

الخضراء الطبيعية ومن صيد الحيوانات ، ويحصل البدوى على سائر احتياجاته من خلال مقايضة محصوله الصحراوى فى المدن ويمضى أوقات فراغه فى حلقات الشعر والأدب التى تقام فى البادية . ولكن هناك ، كما سبق أن ذكرنا ، سنوات يعم فيها القحط والجفاف أيضا ، وتعقبها أنواع عديدة من الأمراض التى تلازم الجفاف ونقص الغذاء ، وفى هذه الحالة تنقطع سلسلة الحياة فى البادية ويبلغ الفقر والحاجة منتهاها ، فيتفرق البدو جماعات فى المدن والمناطق المحيطة أو يتجهون إلى الإغارة على القبائل التى تمتلك شيئا ، والفاقة فى البادية رغم عموميتها إلا أنها على درجات متفاوتة ؛ فالعربى ساكن البوادرى على سبيل المثال ، يستطيع بيع اللبن والزبد فى الأسواق ويعد ذا مال وأكثر اقتدارا من العربى المعدم الذى لا يملك سوى ردائه المصنوع من حلد الغزال الجاف ولحم صيده ولاشئ يبيعه فى السوق .

وبما أن البدوى بأنه ليس « فلاحا » . لذا ، فإنه حتى لو كان يمتلك مزرعة فإنه يأتى بالعمال والأجراء لملاحتها وكانوا فيما مضى يسخرون العبيد والأسرى لهذه المهمة ، وكانت الأراضى الزراعية فيما مضى ملكا للقبيلة وكان يتم تقسيمها كل سنة فيما بين الأفراد لملاحتها ، وكان كل فرد يحصل على محصوله الذى قام بزراعته لنفسه ثم آلت ملكية هذه الأراضى إلى الأسرة وشيئا إلى الأفراد ، إلا أن المراعى ملك مشاع للقبيلة كلها ولكل قبيلة مرعى مستقل .

إن فكر البدوى لا يتجاوز مفهوم القبيلة ولا يستطيع أن يتصور مجتمعاً أكثر كمالاً . كما أن البدوى ليس لديه فكر اجتماعى ولا يتعدى حدود المنفعة الفردية ، ومن هنا تنشأ كل عيوب حياته ونظرا لهذا النهج الفكرى الفردى ، فإنه لا يستطيع أن يقيم نظاما حكوميا منتظما ومجتمعاً مكتمل الأركان ، وطالما ظل البدوى بلا سلطة تحكمه فإنه يظل عرضة للتشتت والفرقة

إن قسوة البادية ومساوحها تؤكد هذا الميل إلى الفردية وتدعمه ، والبدوى العربى يشبه فى ذلك سكان البوادرى فى كل مكان ولكن هذه الحياة المعزلة تؤدى فى ذات الوقت إلى اعتماد البدوى على نفسه وإلى الاستفادة من قوته إلى أقصى درجة ممكنة وحفظه من المسارىء التى تلازم المخالطة . وعلى أية حال ، فإنه لا ينبغى النظر إلى البدو من العرب

على اعتبار أنهم من بين البدائيين الذين يعيشون في أفريقيا مثلا ؛ فالعربي البدوي أشد تحضرا من بدائيي أفريقيا ، وفي المجال الاجتماعي فهم يساؤون يهود عصر أحداد العبرانيين ، والدليل الواضح على ذلك الأدب العربي الجاهلي الذي يدل على ولع القوم بالشعر والبيان وتنوع الأوران وقوالبها مما يدل على فن عال ومهارة راقية ، صحيح أن الشعر الجاهلي نادرا ما يحوى أفكارا سامية ومضامين أخلاقية وعقائدية أو فكرا عاليا بصورة عامة حيث ينصب معظم اهتمامه على قوة البنيان إلا أنه لا يخلو من جاذبية واتزان ، وهو بصورة عامة يعد نموذجا للروح الفردية البدوية وانعكاسا لانسجام الحياة في البادية .

* * *

للحياة الحضرية وحود في بعض مناطق شبه جزيرة العرب منذ أقدم الأزمنة ، وهذه المناطق ، جزء منها ، عبارة عن مناطق زراعية والجزء الآخر مناطق تقع على طرق تجارية وترتبط بالتجارة ، وتضم المنطقة الجبلية الجنوبية بالجزيرة من اليمن وحتى عمان مناطق زراعية عديدة نسبيا ، خاصة اليمن التي يطلق عليها العرب « اليمن الحبراء » لما تتمتع به من خضرة وخصوبة ، وفي مزارعها وحباها تررع أنواع من محاصيل البحر المتوسط وكذلك محاصيل الأقاليم الحارة كالبن ، وفي وديان حضرموت وعمان ثمة قنوات معطاة للماء ، وفي الإحساء يروع الأرز ، ويزدهر السحيل كعصر مشترك في كل هذه المناطق عامة وبعد رمرا للعرب وشبه جزيرتهم ، وفي معظم المناطق الساحلية تنتشر حرفة صيد الأسماك ، وفي إقليم المهرة يعتمد الأهالي في عيشهم على الأسماك بل وفي إطعام إبلهم ، وفي مناطق الإحساء والبحرين يمثل صيد اللؤلؤ حرفة خاصة للأهالي ، وفي وسط الفياض هناك من يعيش من الناس في واحات حيث يزرعون النخيل على مياه الينابيع والآبار ، وهذه مناطق حضرية ومدن قائمة في تلك القلاع منذ القدم ، بل وتضم حضارات ودولا ، كما سنرى فيما بعد وما يمكن أن يطلق عليه اسم « قرية » بالجزيرة العربية عبارة عن قلاع حصينة ترى أحيانا في مناطق بعيدة عن المدن وربما كانت درءا لهجمات البدو ، وفي المدن ، هناك أيضا مازل حصينة وتضم غالبا عدة طبقات لا تخلو من شبه بالقلاع ، وتبنى المباني عادة من الطين وتطلو من الخارج بالجير ، والحارات فيها ضيقة ومتداخلة . إلا أن العامل الأهم في قيام مدن شبه جزيرة العرب هو التجارة ، فهذه

الأرض القاحلة تمتاز بوقوعها على أول الطريق إلى آسيا وأوروبا . لذا ، فقد لعبت دورا هاما منذ القدم فى التجارة بين هاتين القارتين .

لم يكن السفر بالبحر فى الأزمنة السالفة يسير كما هو اليوم ، وكان الطريق القاحل الموحش فى البر يرجع السفر بالبحر ، وخاصة حين يكون أقصر من نظيره البحرى ، لهذا فعندما كانوا يريدون نقل البضائع الهندية والصينية إلى أوروبا أو إلى مصر فقد كانوا ينقلونها بالسفن إلى الجزيرة العربية فقط ثم يتم نقلها من هناك عن طريق قوافل الإبل إلى موانئ شرق البحر المتوسط أو خليج العقبة . وفى أوروبا القديمة ، كان الأوربيون يعتبرون بضائع الهند من إنتاج الجزيرة العربية لقدمها عن طريق الجزيرة العربية ، وكان معظم هذه البضائع عبارة عن ذهب وأحجار كريمة وأدوية معطرة وأحيانا حيوانات وطيور نادرة كالطاووس والقرود . وللجزيرة العربية أيضا حاصلات تصديرية هامة فى بقاعها الجنوبية ومنها البخور ومشتقاته إلى الصمغ الذى يحرق فى المعابد ويزداد استهلاكه فى أوروبا فى المراسم والطقوس الدينية بالإضافة إلى استعمالاته الطبية فى سفر حزقيال الذى يعد من أسفار « العهد القديم » وينتمى إلى القرن السادس قبل الميلاد ، ويتحدث عن تجارة التحار العرب فى الماعز والكباش وغيرها فى ميباء صور⁽¹⁾، ويتضح من نقش دون الحطين المعينى والإغريقى وحد فى جزيرة دلس اليونانية ويرجع فى تاريخه إلى عام ١٣٥ قبل الميلاد أن بعضا من تحار معين كانوا يقيمون فى تلك الجزيرة وشيدوا محاربا لآلهتهم⁽²⁾ .

وفى الجزيرة العربية كانت هناك عدة طرق تجارية ازدهر كل منها فى عهد من العهود ولأسباب مختلفة ، والطريق فى الصحارى غالبا عدة طرق تجارية ازدهر كل منها فى عهد من العهود ولأسباب مختلفة . والطريق فى الصحارى غالبا مالا يكون اختياريا ، فلاند للمسافر وللقافلة أن تأخذ فى اعتبارها وحود واحات على الطريق ، وكانت الطرق التجارية فى شبه الجزيرة العربية بمثابة خطوط اتصال بين خليج عمان والخليج الفارسى من

(1) حزقيال ، باب 27 آية 21 .

(2) آقاي تقيراده ، تاريخ عريستان ، قسمت 3 ، ص 20

ناحية والبحر المتوسط ومصر من ناحية أخرى .

وكان ثمة طريق شمالية تبدأ من الخليجين المذكورين (وخاصة من ميناء عمان) وتنتهى إلى ميناء صور عاصمة فينيقيا مرورا ببادية الشام وفلسطين ، أو يمتد إلى خليج العقبة وميناء غزة عن طريق سوريا وفلسطين بهدف الوصول إلى مصر ، وعلى هذه الطريق كانت هناك مدن هامة ووحدات حيوية من قبيل بابل والحيرة ودومة الجندل (الجوف حاليا) وتدمر وغيرها مما ترى أطلال بعضها حتى اليوم فى قلب الصحراء ، وكانت هذه الطريق تربط العراق بالبحر المتوسط ومصر ، ويرى لامانس الباحث البلجيكي أنه كانت هناك حركة تجارية نشطة فى شمال شبه الجزيرة العربية على ضفاف نهر الفرات من فتحة شط العرب وإلى مشارف الشام ، وكان أعراب بنى تغلب يسيطرون عليها (1) .

والطريق الأخرى طريق شبه الجزيرة العربية الجنوبي ؛ فكانت السفن القادمة من الهند تفرغ حمولتها فى ميناء عمان أو أحد الموانئ الأخرى فى الجنوب لتحملها قوافل العرب بموازة الساحل الجنوبي إلى اليمن ومنها بموازة البحر الأحمر أى من أرض تهامة المستوية إلى شبه الجزيرة العربية الصخرية (البطراء) ومنها إلى ميناء أيلة على خليج العقبة أو ميناء غزة على البحر المتوسط . وعلى طول هذا الطريق ، كانت هناك مدن زاهرة فى جنوب شبه الجزيرة من عمان إلى اليمن ، ومن اليمن إلى البطراء أيضا كانت هناك وحدات هامة عديدة ومن بينها مكة والمدينة على نفس هذا الطريق ، كما سيرد الذكر فيما بعد .

وببدو أن هذا الطريق الجنوبي كان يأتى فى المقام الأول فى العهود القديمة ، ثم يتلوه الطريق الشمالى فى الدرجة الثانية من حيث مروره بمراكز إنتاج المحاصيل الجبوية بشبه الجزيرة وفى أنه لم يكن قاصرا على دوره كمعبر لبضائع الهند . وكان سبب تدهور مكانة هذا الطريق أن الرومان الذين حكموا مصر حول الميلاد قد أقروا الملاحة فى البحر الأحمر من باب المندب وحتى مصر بعد وقوفهم على سر الرياح الموسمية ، وبالتالي صارت القوافل التى كانت تعمل بين جنوب شبه الجزيرة ومصر مهددة بالتوقف وبدأت المدن التى ازدهرت على هذا الطريق فى الخراب وترى أطلالها اليوم هناك ، وهاجرت بعض القبائل من الجنوب إلى الشمال حيث كان طريق الشمال لا يزال على أهميته ، إلا أن اليمن

(1) Lammens , la Mecque , 107

ونواحيها كانت بها حركة تجارية نشطة مع الشمال لكونها مركزا إنتاجيا ، وخصصت قوافل قريش فصل الشتاء لرحلة اليمن من مكة ، كما ورد ذكرها فى القرآن⁽¹⁾ .

كانت هذه الحركة التجارية تمثل مجالا عريضا لأعمال العرب ، فاتخذ بعض منهم سكنا على الطرق والمنازل وأقاموا تجارة ، وتولى عدد آخر منهم مهمة النقل والخفارة لهذه الطائفة دون التخلي عن حياتهم البدوية ، فى حين أفاد بعض آخر منهم عن طريق فرض الإتاوة أو الإغارة على القوافل .

وهل كان هؤلاء وغيرهم من سكان المدن هم نفس الأعراب البدو الذين تغيرت أوضاعهم أم كانوا أصلا شعبا آخر أتى من مكان آخر ؟ للوقوف على هذا الموضوع ينبغي النظر فى تاريخ الجزيرة العربية القديم .

العرب البائدة :

المصادر التى بين أيدينا فيما يتعلق بالجزيرة العربية قبل الإسلام هى :

- ١ - كتابات المؤرخين العرب .
- ٢ - أسفار التوراة وسائر الكتب اليهودية القديمة .
- ٣ - كتابات الإغريق والرومان والسريان .
- ٤ - الآثار القديمة فى الجزيرة العربية نفسها ، أو فى البلدان المحاورة لها كمصر وسوريا وبين النهرين

وبعد جزءا من كتابات المؤرخين العرب روايات انتشرت بين العرب أنفسهم ولها جذور تاريخية على الرغم من كل ما اتمرحت به من أساطير ومبالغات على مر الزمان ، أى أنها روايات محرفة لوقائع تاريخية قديمة ، فى حين أن جزءا آخر منها عبارة عن موضوعات اقتبست من أخبار اليهود والقساوسة النصارى من السريان واليونان ممن كانوا على اتصال بالعرب .

(1) سورة قريش ، ورد فى الكشاف . " كات لقريش رحلتان يرحلون فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون " .

أما ما ورد بالتوراة وغيرها من الكتب القديمة فيما يتعلق بالعرب فينصب معظمه على أسباب القبائل وقدر ضئيل من النصوص المتعلقة بالتجار العرب ، وتقدم الكتابات الإغريقية وغيرها من الكتابات الخارجية معلومات أشد تفصيلا ودقة عن شبه جزيرة العرب وتفيد في فهم الروايات العربية وتصحيحها وإكمالها دون شك ، وتلقى الاكتشافات الأثرية التي تمت في العصر الحديث أضواء على تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم وتقدم معلومات جديدة لم يرد لها ذكر في الروايات القديمة حتى أصبح تاريخ شبه الجزيرة العربية اليوم واحدا من الأفرع الكبرى لعلم التاريخ له علماء الكار وكتبه الهامة. ورغم ذلك ، فإن تاريخ شبه الجزيرة العربية لا يزال ناقصا ، ويحتاج إلى تحقيقات واكتشافات مستقبلية ، وله مستقبل عريض على المدى البعيد حيث لم يبدأ التنقيب بعد في أراضي الجزيرة العربية ، وما هو بين أيدينا اليوم لا يرد عن نقوش وآثار فوق سطح الأرض

إن شبه الجزيرة العربية تعد الموطن القديم للأقوام الساميين ، وقد تكون أيضا مهد هذا العنصر الشرقي وهو ما يعتقده عدد غير قليل من العلماء المحدثين ، فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد خرجت القبائل السامية كأعواج البحر واحدة تلو الأخرى من هذه القاع وانتشرت عن طريق بادية الشام إلى البلاد العامرة المحاورة إلى مصر ، فالأشوريون والبابليون القدماء والكنعانيون والعراقيون والسط كانوا جميعا من هؤلاء المهاجرين وكانت هجرات العرب في زمن الفتوحات الإسلامية آخر حلقات الهجرات الكبرى من شبه الجزيرة .

ربما كان لفظ " عرب " في الأصل معناه " البدوي " و " وساكن الصحراء " . ويتبين من نقوش الجزيرة العربية أيضا أن هذه الكلمة كانت لا تطلق إلا على البدو ، وكان يقال على سبيل المثال " عرب ملك ساء " و " عرب ملك حصر موت " أي البدو التابعين لهؤلاء الملوك. كما لم يطلق اسم " عرب " على أهالي المدن في أي مكان بالجزيرة في هذه النقوش بل يسمون دائما بأسماء المدن والقبائل التي ينتمون إليها . وبما يدل على ذلك ويؤيده أن لفظ " عربة " في اللغة العبرية يعنى " صحراء " و " عرب " بمعنى " ساكن الصحراء " ، كما أن لفظ " أعرابي " (وأحيانا " أعراب ") ترد في اللغة العربية منذ القدم وإلى يومنا هذا بنفس هذا المعنى . وكلمة " تعرب " تعنى التحول من البداوة

وسكنى الصحارى .

ولم ترد كلمة "عرب" فى سفر التكوين على الإطلاق ، بل ذكرت طوائف العرب (التي نطلق عليها اسم عرب) بل كل باسمها الخاص بها ، وفى سائر كتابات اليهود وفى النقوش الآشورية فى نقش بيستون وفى كل مكان ورد فيه ذكر هذه الكلمة لجدها تنطبق على البدو وسكان الصحارى ؛ فلفظ " ماتوراسى " الذى ورد فى النقوش الآشورية ولفظ " آريانا " الذى ورد فى نقش بيستون ومعناها " أرض العرب " أو " بلاد العرب " ينطبقان على بادية الشام وقاطبيها من البدو . وبناء على هذا ، فمن المحتمل ألا يكون للفظ " عرب" فى الأصل أى مفهوم عنصرى أو معنى عرقى خاص إلا أنه لا مجال لإنكار أن هذه الكلمة قد اتخذت مفهوما عرقيا وقوميا معاصرا فى العهود المتأخرة وربما قبل قرنين أو ثلاثة قرون قبل الإسلام ، وخاصة فى العصر الإسلامى حيث صارت وحدة العرب كاملة وحاسمة .

يخلص من هذه المقدمة إلى أن إطلاق اسم " عرب " على كل الأتوام القديمة التي سكنت شبه جزيرة العرب يعد من باب التوسع لا أكثر ، حيث اتخذ اسم " العرب " ليطلق على سكان هذه الجزيرة بصورة عامة ولو أنه ليس له معنى علمى أو لغوى . لذا ، فإن كتاب تاريخ العرب القدامى منهم والمحدثين يختلفون فى تحديد معنى هذه الكلمة وموضع استخدامها ، فالبعض منهم يعتبرون الآراميين النبط عربا فى حين لا يعتبرهم البعض الآخر كذلك ، وقال عدد منهم بتقسيم النبط إلى فرعين : نبط عرب ونبط آراميين ، سيما توسع بعض الكتاب المحدثين فى محال استخدام هذه التسمية وضموا إليها البابليين الحامورابيين (طائفة من الكعابيين) والهكسوس الذين غروا مصر ، فى حين أن هؤلاء الأتوام كانوا مجرد أقوام ساميين من سكان شبه الجزيرة القدامى .

يقسم جمهور أهل الأخبار العرب إلى فرعين . العرب العاربة - أى الأصليين - والعرب المستعربة أى المتعربين ؛ والعاربة طوائف قحطابية وطوائف يطلق عليها " العرب البائدة " الذين عاشوا فى عصور قديمة ثم انقرضوا ، أما العرب المستعربة فهم القبائل العدنانية . ويرى البعض أن العرب العاربة هم العرب البائدة فقط ويطلقون اسم " المتعربة" على القحطانيين ، وبهذا فإنهم يقسموهم إلى ثلاثة أفرع .

ومن العرب البائدة ثمة عشر قبائل أو اثنتا عشرة قبيلة تذكر بأسمائها ومحل سكنها وتروى عنها روايات بأن بعضا منها قد هلك بالعصيان والكفر ببلاء من السماء ، وزالت قبائل منهم فى حروب قبائل أخرى ، فى حين انقرضت أخرى فى خضم " أحداث الزمن " . وعلى أية حال ، فقد هلكوا جميعا ولم يبق منهم أحد ، وإن بقى فقد اختلط بسائر القبائل ، وهذه الروايات بلا شك تشوبها إلى حد كبير شوائب أسطورية ومغالطات وتمتزج أحيانا بروايات ومصائر آلت إليها أقوام أخرى ، ومن ذلك قصة العمالقة التى اقتبست عن اليهود ، وحتى ما له أساس من الصحة منها قد اختلط بالمغالطات ، إلا أن الموضوع الأصلي لا يخلو من أصل تاريخى ، وكثير من أسماء هذه القبائل البائدة ينطبق على تسميات قبائل بشبه الجزيرة العربية التى ذكرها بطليموس مثل عاد وثمود وبار وحديس أو على أسماء ورد ذكرها فى التوراة من قبيل " طلسم " التى يرى هالوى أنها " لتوسيم " التى ذكرت فى سفر التكوين ، أو " عاد " التى يعتقد أنها " هادورام " التى ورد ذكرها فى نفس هذا السفر ، أما ثمود الذين ورد ذكرهم ضمن هؤلاء العرب البائدة فكانوا شعبا تاريخيا مكتملا ، كما سنرى فيما بعد . وفى القرآن ورد ذكر قبيلتى عاد وثمود مرارا

ونجد اسم إرم بن سام فى أنساب أغلب هذه القبائل . لذا ، فمن المحتمل أن هذه القصص كانت أفكارا تتعلق بالطوائف الآرامية أو النبطية التى هاجرت من شبه الجزيرة العربية . فيروى الطبرى عن أحد المؤرخين العرب قوله " كان يقال لعاد فى دهرهم عاد إرم ، فلما هلكت قيل لثمود إرم ، فلما هلكت ثمود قيل لسائر بنى إرم إرمان فهم

النبط⁽¹⁾ " ، ويؤيد هذا الخبر أن اسم عاد قد ذكر فى القرآن أيضا مع كلمة إرم (أَلَمْ تَرَ

كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)⁽²⁾ ، وسواء اعتبرنا كلمة إرم هنا اسما لحد

القبيلة أو اسم مدينة دمشق حسب ما قال المفسرون . فهى كلتا الحالتين ترتبط بالآراميين

(1) الطبرى ، ص 105 ، وحمة الإصدهانى ، وسى ملوك الأرض ، 65 ، " الأرمانيين وهم ببط الشام " ؛ حواد على ، ج 1 ، ص 235

(2) سورة الفجر ، آية 6 ، 7 ، مجمع البيان ، ج 2 ، ص 500

المهاجرين إلى الشام ، والذين ورد ذكرهم فى التاريخ (1) .

وأيا ما يكون التاريخ القديم فإن الأمر المسلم به هو أن سكان الجزيرة العربية فى العصر الإسلامى ينقسمون إلى قسمين رئيسيين ؛ القحطانيين فى الجنوب والعدنانيين فى الشمال . ويسمى العدنانيون أيضا نزاريين ومضريين ومعديين . ويزعم بعض المؤرخين أن هذه التسميات قد وجدت فى العصر الإسلامى بل ولم يكن لها وجود فى الجاهلية . إلا أن التاريخ يدل على أنه على جانبى شبه الجزيرة كانت ثمة حياتان مستقلتان متميزتان إحداهما عن الأخرى ولا بد أن هذا كان مصدر هذا التقسيم، كما سنرى فى الفصول التالية .

شعوب الجنوب ودوله :

كان ثمة شعب يقطن جنوب شبه الجزيرة العربية من عهود ما قبل الإسلام وكان كتاب الأخبار من العرب يطلقون عليهم اسم العرب القحطانيين ، ويقال أنهم من نسل يعرب بن قحطان وأن قحطان هذا كان قد نرح من بابل إلى اليمن فى عهد تفرق أبناء نوح وأصبح ملكا ، وفى ذلك الوقت كان لا يزال عدد من قوم عاد يقطنون جنوب الجزيرة العربية ، فتعلم يعرب بن قحطان منهم اللغة العربية ، وعندما تولى الملك بعد أبيه قام بتوزيع البقاع المحيطة على إخوته ، فأعطى عمان لعمان بن قحطان وحضر موت لحضر موت بن قحطان

ويقال أن يعرب قد خلفه فى الحكم ولده يشجب الذى تلاه عبد شمس الذى يقال أنه ظل ملكا مدة 486 عاما ، وأنه قد أطلق عليه اسم « سبا » من كثرة ساياء وأنه هو الذى شيد سد مأرب ، وكان له سون من بينهم حمير وكهلان ، وتولى حمير الملك واستقر الملك فى أسرته ، أما سبل كهلان فقد تفرقوا فى الصحراء وصاروا بدوا ، وكانت الأسرة الحميرية تنقسم إلى قسمين ، قسم يحكم فى ساء والآخر فى حضرموت . وفى عهد الحارث الملقب برايش اتحدت الدولتان ، ومنذ ذلك الوقت أصبح ملوك حمير يعرفون باسم تُنع ، وثمة اختلاف حول عدد الملوك الحميريين ، وكانوا فى غالب الآراء ستة وثلاثين ملكا

(1) يقول دكتور حواد على أن الأوربيين عثروا على حل فى شرق العقبة يعرف إلى يومنا هذا باسم

"رم" .

امتد ملكهم ألفين وعشرين عاما . وتروى من وقائع هؤلاء الملوك روايات غريبة من بينها أن شمر يرعش (يحرعش) استولى على بلاد فارس كلها ، وأنه تجاوز نهر حيحون وبلغ بلاد الصفد وأنشأ مدينة سمرقند (شمر كند) ، وأن أسعد أبى كرب قد فتح بلاد فارس وتركستان وقام بحملة على الصين والروم .

وآخر ملوك الحميريين هو ذو حدن الذى زالت فى عهده الدولة الحميرية على يد الأحباش . وعن أسباب حملة الأحباش على اليمن ، يقال أن حدن كان يدين باليهودية وأنه كان يقسو على نصارى اليمن ، فتوسل هؤلاء بملك الحبشة الذى كان يدين بالدين المسيحى فجرد جيشا بقيادة أرباط إلى اليمن ، فاستولى أرباط على اليمن وفرص الأحباش سيطرتهم عليها لفترة من الزمن إلى أن قام أحد الأمراء الحميريين واسمه سيف بن ذى يزن بطرد الأحباش بعون من أنوشيروان ملك فارس وتولى الملك ، إلا أنه سرعان ما اغتيل على يد غلمانة الأحباش . ومنذ ذلك الحين ، ظلت اليمن تحت سيطرة فارس إلى العصر الإسلامى حيث دخلت فى حوزة الدولة الإسلامية

هذا هو ملخص تاريخ القحطانيين أو تاريخ جنوب الجزيرة العربية ساء على روايات العرب التى يختلط الجزء الأول منها وحتى الغزو الحبشى بكثرة من الأساطير والمعالطات. لذا ، فإن الباحثين العرب أيضا لا يعتمدون عليها ⁽¹⁾ ، أما الجزء الآخر فيتطابق فى معظمه مع التاريخ الحقيقى ، كما سنرى فيما بعد .

أما اليوم ، فالرجوع إلى المصادر الإغريقية (البيزنطية) والحبشية ومقارنتها بعضها البعض وبالروايات العربية وبالإطلاع على العديد من النقوش التى وجدت فى الجزيرة العربية نفسها اتضح تاريخ جنوب الجزيرة العربية إلى حد كبير ، وتوافرت معلومات قيمة غير مسبقة تتعلق بالأقوام العربية والدول التى قامت فى بواحيها وأوضاعها السياسية والاجتماعية ، مما سنورد ذكره فى السطور التالية .

* * *

(1) أنوالندا ، ج 1 ، ص 67

يعد جنوب الجزيرة العربية مهداً لأقدم حضاراتها ، فعلى أرضها ، وبما لها من مناخ ملائم، عاشت أقوام على امتداد طرقها التجارية ويحذى البحر من سكان المدن من قبل الميلاد بحوالى ألف سنة وهو حد المعلومات التى بين أيدينا . وكان لهذه الأقوام نظام اجتماعى من المرحلة الإقطاعية تقريباً يشبه النظام الاجتماعى الذى نعرفه عن بابل القديمة، وكان هؤلاء القوم يتحدثون بلغات مختلفة ولكنها قريبة من بعضها البعض ، ويمكن القول إنهم كانوا يتكلمون لهجات مختلفة للغة واحدة وكأنها قبائل مختلفة من أصل واحد ، وكان لهم خط مشترك من نوعية الخط الفينيقى ولكن بحروف تزيد عن الخط الفينيقى ومن حيث الشكل ، كانت له صورة خاصة به ، فكانوا يدونون الأحرف بالمقاطع ويرسمون بين الكلمات خطوطاً تفصل بينها على شكل عمودى ، وكانت الأسطر تتوالى من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين

وقامت على هذه الأرض دول متعددة تتفاوت صفراً وكبراً ، وكانت إحداها تغير على الأخرى من آن لآخر ، وكان الأقرباء يحذون الضعفاء لتبعيةهم أو يزيلونهم تماماً . وفى العصور الأقدم ، كانت السلطة فى هذه الدول بيد الكهنة والزعماء والروحانيين الذين كان يطلق عليهم لدى بعض الشعوب اسم « مكرب » (ونطقها الصحيح غير معروف لعدم وجود الإعراب والتشكيل فى حطهم) واسم « مراد » لدى شعوب أخرى منهم . وفى عصور تالية ، آلت السلطة إلى الملوك ، واقتصر دور الكهنة على الشئون الدينية ، وكانوا من الناحية الدينية فى عداد المشركين وكانت لهم آلهة متعددة وكان بعض هذه الآلهة خاصاً بقوم دون غيرهم فى حين كان البعض الآخر آلهة مشتركة بين مختلف القبائل ، كما سذكر تفصيلاً فيما بعد . وكانت حرفة هذه الشعوب التجارة التى كان يمتنعها الجميع من ملوك ورعية وكانت لهم منها ثروات وسلطة كبيرة ، كما سبقت الإشارة منذ قليل .

وردت أسماء عدة دول جنوبية فى المصادر المتاحة إلى الآن ومنها معين وحضرموت وقتان وحما وأوسان وسأ وحمير ، واستقرت كل هذه الدول فى بقعة محددة من البلاد ، وكانت الدول الأولى معاصرة لبعضها البعض وكانت دولتا سبأ وحمير إمبراطوريتين استوليتا على الدول المحيطة بهما . وكانت أقدم هذه الدول معين التى كانت قائمة فى منطقة الحوف الجنوبية وكانت عاصمتها تسمى « قرية » أو « قرنا » وكانت تقع شمال سد مأرب ، وقد ورد ذكر هؤلاء القوم باسم « المعونيين » فى الكتابات اليهودية القديمة،

وكذلك بكتاب استرابون المؤرخ الإغريقى الذى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد . كانت دولة معين ذا قوة واقتدار وثراء . وبين أيدينا أسماء ستة وعشرين ملكا معينيا فى النقوش المتوافرة وكانوا يمثلون عدة أسر ، وكان الملك فيهم بالتوارث ، وكان لكل ملك لقب خاص بالإضافة إلى اسمه ومثلهم فى ذلك كممثل الخلفاء العباسيين ، وكانوا يطلقون على الكهان ورجال الدين اسم (مزواد) أو «مسود» ويرد اسم الملوك فى كل مكان فى هذه النقوش التى تم الكشف عنها حتى الآن ، ولاذكر فيها لسلطة رجال الدين . ومن المحتمل أن عهد حكم رجال الدين كان قد انقضى قبل ذلك بعهود ، وكان لكل ولاية من الولايات والى يسمى « كبير » يتم تنصيبه من قبل الملك ورئيس الكهان لفترة محددة ، وكان للآلهة عشتار وود ونجران وشمس مكانة هامة لديهم ، وربما كانوا يحجون إلى معابدهم أيضا .

كان نطاق سيطرة دولة معين يمتد إلى سواحل الخليج الفارسى من ناحية وإلى البحر المتوسط من ناحية أخرى . وفى الجزء الشمالى من طريق اليمن التحارى إلى فلسطين وميناء غزة كان للمعنيين مستوطنات ربما كانت نقاط عسكرية ؛ مثل العلا ومدين ومعان وتيماء وربما مكة وشرب أيضا وحتى ميناء غزة على ساحل المتوسط كلها تحت سيطرة أهل معين، وتم العثور على آثار لتجار معين فى مصر واليونان كما سبقت الإشارة، ومن التشابه الملحوظ بين أهالى معين وأهالى بابل فى الأسماء الشخصية والآلهة ومختلف الأوضاع الإجتماعية يرجح البعض أن المعنيين كانوا من آرامى العراق وهاجروا من هناك إلى مواطنهم هذه ⁽¹⁾ ، ويرجع البعض تاريخ نقش معين إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد فى حين يرجعه آخرون إلى القرن السادس أو السابع .

وكان يعاصر دولة معين دولتان جنوبيتان أخريان ؛ إحداهما حضرموت والأخرى قتبان. كانت دولة حضرموت قائمة فى المنطقة التى تعرف اليوم بنفس الاسم إلا أن نطاق سيادتها كان أكبر من هذه البقعة ، وكانت عاصمة حضرموت مدينة شبوه التى كانت المركز الرئيسى لمحصول البخور ، ولم يتم استكشاف هذه الدولة تماما بعد ، إلا أن النقوش التى عثر عليها هناك حتى الآن ، ومن النقوش التى اكتشفت خارج حضرموت ، تأكدت أسماء ثمانية عشر ملكا واسم مكرب واحد ، وأحدهم معدى كرب الذى عاش حوالى عام 525 قبل ميلاد المسيح . وكانت ثمة روابط عرقية تربط بين حضرموت ومعين وكانت

(1) الموسوعة البريطانية ، مادة Arabia .

بينهما صلات سياسية ، بل وأحيانا خضعت كليهما لسيادة أسرة واحدة رغم أن كلا منها كانت تعد مجتمعاً مستقلاً ، وزالت هذه الدولة في حوالي عام 115 ميلادية حيث تعرضت للهزيمة على يد إمبراطوريتي سبأ وحمير كغيرهما من دول الجنوب الأخرى .

كانت دولة قتبان تقع في الجنوب الغربي من اليمن مجاورة لحضرموت ، وكانت عاصمتها تسمى تمنع وتقع في جنوب شرق سد مأرب قرب المنطقة التي تعرف اليوم باسم كحلان (كهلان) ، وقد ذكر اسم هذه الدولة كتاب الإغريق تيو فراست (في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد) واراتوستن واسترابون ، وقدموا معلومات تتعلق بتلك المنطقة وإنتاجها للبخور ، ومن النقوش القتبانية التي جمعها غلازر في تلك المنطقة وتاريخها إلى ما يتراوح بين عام ألف ونيف قبل الميلاد وحتى القرن الثاني قبل الميلاد تم التعرف على أسماء ثمانية عشر ملكاً وثمانية مكارب . والفرض الغالب أن زوال تلك الدولة أيضاً يعود إلى عصر ظهور دولة سبأ أي في حدود عام 115 قبل الميلاد ، إلا أن هوار يزعم أن مملكة قتبانية ما ظلت قائمة حتى عام 30 ميلادية تقريباً وانقطع اسم تلك الدولة من بعدها .

والى جوار قتبان كانت هناك دويلتان صغيرتان ، إحداهما باسم حباء (حعبان) في المنطقة التي تعرف اليوم باسم ردمان ، والآخرى أوسان (اوطان) ، وقد عاشت الدويلتان مستقلتين إلى حين ثم خضعتا للغير وضممتا إلى قتبان بعد ذلك . وفي أواخر سني دولة سبأ ، التي سيرد ذكرها فيما بعد ، نجد منطقة أوسان موطناً لقوم من الأحباش ورد ذكرهم في الحروب الداخلية .

وفي نطاق سيادة دولة قتبان نجد قومين آخرين باسم ريدان وحمير يعيشون في داخلها ولعبوا دوراً هاماً في تكوين إمبراطورية سبأ ، كما سرى فيما بعد

فيما بين أراضي هذه الدول الثلاث معين وحضرموت وقتبان وفي أزمانها أيضاً كانت تعيش أقوام أخرى باسم سبأ وبالتعاون مع الحميريين قاموا بتأسيس أكبر دولة بحروب شبه الجزيرة العربية ولعل بداية تأسيس دولة سبأ يرجع في أقوى الاحتمالات إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، وامتد عمر لاحقتها وهي دولة حمير إلى القرن السادس الميلادي أي حتى قرب ظهور الإسلام لهذه الفترة التي امتدت إلى ألف وأربعمئة سنة من السيادة تاريخ

تفصيلي تسيا من حروب داخلية بهدف التوسع وحروب خارجية بهدف صد المغيرين من الأحياب وخاصة من الأحباش والرومان وأوضاع اجتماعية كبناء السد وانتهياره وهجرة الأقوام من الجنوب إلى الشمال ، وقد بقيت من هذه الأحداث والوقائع ذكريات ضعيفة في أذهان العرب تلاحظ في رواياتهم التاريخية ، إلا أن المصدر الرئيسي لهذا التاريخ تم التوصل إليه من النقوش المحلية ومن الكتابات الخارجية المعاصرة لتلك الدولة .

قطعت هذه الدولة الكبرى التي بدأت بالسائين وانتهت بالحميريين أربع مراحل عبر فترة امتدت إلى ألف وأربعمئة سنة ، كما اتخذت لنفسها أربع عواصم متوالية ، وكانت ترتبط في كل مرحلة منها بواقعة تاريخية هامة لها أثرها على تطورها ، وتمتد المرحلة الأولى من بدء قيام دولة سبأ إلى حوالي عام 550 قبل الميلاد ، وفيها كانت السيطرة في يد رجال الدين (المكارب) ، وكانت عاصمة الدولة مدينة صرواح (شرق صنعاء الحالية) ، وتم التعرف من النقوش على أسماء خمسة عشر ملكاً تولوا الحكم واحداً تلو الآخر ، وهذه الأسماء ليس بها أكثر من خمسة أسماء مكررة منها ابتعمر (يابتعمر) ، وكان أحدهم ، وقد عاش في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، هو الذي شيد سد مأرب الشهير أو ربما أتم ساء الذي كان والده قد شرع فيه ، وكان هذا السد الذي ورد ذكره في القرآن يعد عملاً ضخماً في ذلك العصر حيث حوّل منطقة مأرب إلى بقعة عامرة تحظى بالشراء وهي اليوم محرد سبخة ملحية قاحلة ، وكان حميد ابتعمر هذا واسمه « كريل وتر »رحلاً قويا وهو الذي قصى على دولة معين وتحولت منذ ذلك الوقت إلى مجرد إمارة تابعة لفترة من الزمن .

وبعد عهد « كريل وتر » يبدأ عصر الملوك ، وتنقل العاصمة من صرواح إلى مدينة مأرب العامرة الضخمة ، إلا أن الحكم كان غير مركزي ، فأقام الأمراء المحليون جهاز حكم شبه مستقل كل في منطقته ، وتعرضت السلطة المركزية للتحديات سواء من داخل الأسرة الملكية أو من خارجها بحيث كان العديد من الملوك يحكمون إلى جانب أعمامهم كل في منطقته ، فيقوم شيخ قبيلة همدان وهي من قبائل الدولة الكبرى بادعاء الأحقية في الملك ضد الأسرة الملكية الأصلية فيجلس على عرشها بعون من أحباش اليمن والحضرموتيين ، ويضم أراضى قحطان التي كان يعيش بها قوم يسمون ريدان إلى حوزته ويتخذ لنفسه لقب « ملك سبأ ودي ريدان » ، ثم قام ملوك الأسرة الأصلية بعد وفاة ملك

حضر موت برفقة ولده وسحقوا آل همدان وخصوا أنفسهم بلقب « ملك سبأ وذي ريدان » .
وفى المرحلة الثالثة (من حوالى 115 قبل الميلاد إلى حوالى 281 ميلادية) عاد اسم الدولة مرة أخرى ليصبح « سبأ وذا ريدان » ، إلا أن السلطة كانت تنسحب شيئاً فشيئاً من السبئيين لتستقر فى يد الحميريين ، كما انتقلت العاصمة أيضاً من مأرب إلى ظفار (مركز القبائل الحميرية) ، وفى هذه المرحلة حدث الغزو الرومانى لجنوب الجزيرة العربية ، وكانت هذه الدولة ذات النزعة التوسعية بعد أن هيمنت على الشام وفلسطين ومصر فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد قد أصبحت حارة للجزيرة العربية ، وكانت تطمح فى الهيمنة على اليمن ، بما تحظى به من وفرة فى المحاصيل ، وسيطرة على الطرق التجارية ، فحشدت جيشاً فى مصر بقيادة اليوس غالوس والى الرومانى على مصر فأبحر بسفينته فى البحر الأحمر باتجاه الجزيرة العربية (عام 25 قبل الميلاد) ، ودخل هذا الجيش إلى أراضى شبه الجزيرة من بقعة ربما كانت ينسحب الحالية ، وسار إلى اليمن عن طريق الحجاز ، وبعد أن استولى على عدة مدن ، وصل إلى مدينة مأرب التى ضرب حولها حصاراً ، إلا أنه فك حصاره بعد ستة أيام بسب نقص الماء وعادر شبه الجزيرة كله وعاد إلى مصر إلا أن دولة الرومان ، فى الوقت نفسه ، ألحقت بشبه الجزيرة العربية أضراراً فادحة بإشائها طريقاً بحرياً تجارياً أزال المكاة الهامة التى كان يحظى بها الطريق البحرى الجوى ، كما سبق القول

خطيت دولة « سبأ وذي ريدان » تحت سيطرة الحميريين بقوة هائلة سبياً ، إذ كان الحميريون قوماً محاربين ، وكانوا من حيث العدد أيضاً يتفوقون على سائر قبائل الجنوب على حد قول بلين المؤرخ الرومانى وفى المرحلة الرابعة (من حوالى 281 ميلادية وحتى 525 ميلادية) رالت دولة حضرموت على يد الملك الحميرى « شمر يحرعش » وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية الحميرية ، ومند ذلك الوقت اتحد الحاكم الحميرى لنفسه لقب « ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمات » ، وكانت « يلمات » (أو يمه) هذه غير اليمن المعروفة ، ويدور أن المقصود بها كان المناطق الواقعة شرق حضرموت وحتى عمان ، وكان هؤلاء الملوك الحميريون الذين توالوا على الحكم فى المرحلة الرابعة هم الذين يعرفون فى الروايات التاريخية العربية باسم « تبع » (التساعة) ، وكانت سيادة هذه الدولة تمتد إلى الشمال وحتى يثرب

وكان لدولة حمير عدو لدود إلى حوارها وهو دولة الحبشة التي كانت تعد العدة للسيطرة على اليمن لما بها من ذهب ، وكانت تغير على جنوب الجزيرة كلما وجدت إلى ذلك سبيلا ، وبالإضافة إلى الجيرة المكابية التي جمعت بين الأحباش والعرب ربما كانت ثمة صلة عرقية كما يرى كثرة من الباحثين الأوربيين ⁽¹⁾، وربما كانت لهم في جنوب الجزيرة العربية مستوطنات ومستعمرات منذ القدم . وهناك وثائق تحكى عن غارات الأحباش على اليمن في القرن الأول قبل الميلاد بصورة إجمالية، في حين تنبئ وثائق أخرى بأن الأحباش كانوا قد فرضوا سيطرتهم على اليمن في أواخر القرن الثالث الميلادي، وفي أواسط القرن الرابع كان «عيزانا» ملك الحبشة يسمى نفسه « ملك اكسوم وحمير وسبا وريدان وغيرها»، إلا أن الوثائق تدل على أن اليمن في أواخر القرن الرابع كانت قد عادت إلى سيادة أهل اليمن كاملة من جديد وأنهم قاموا بإجلاء الأحباش عنها تماما .

دخلت المسيحية اليمن في أواسط القرن الرابع ، ومع أنها لم تتحول إلى دين الدولة الرسمي إلا أنها انتشرت بين السكان وظهر مركز هام لها في نجران وطل قائما حتى ظهور الإسلام وبعده أيضا لفترة من الزمن . وبالطبع ، ربطت الشعب المتنصر هناك أواصر متينة بدولة الحبشة المسيحية والإمبراطورية البيزنطية ، بل ويرى البعض أن منطقة نجران كانت أصلا تابعة للحشة وأن حارثة والى نجران كان يحكم هناك باسم الحشة . لذا، فإن موضوع النصرانية يعد أمرا سياسيا بالنسبة لدولة اليمن ، وفي مقابل المسيحية كان بهذه الدولة تنظيم يهودى أقامه المهاجرون اليهود منذ القدم (ربما منذ عهد دمار أورشليم) ، وكان هذا التنظيم يعمل على نشر الديانة اليهودية ، وكان من الواضح أن الديانات الوثنية لم يكن أمامها سوى أن تتراجع أمام زحف هاتين الديانتين التوحيديتين .

وفي أوائل القرن السادس الميلادي ونحت حكم الملك لحيعة بنوف الحميري غزا الأحباش اليمن من جديد . وفي هذه المرة ظهر أمير يمني يسمى « دى نواس » وهزم الأحباش وحلح لحيعة عن العرش وتولى الملك نفسه ، واعتنق ذو نواس اليهودية ودعمها في مواجهة البصرانية . وعندما سمع بأن الرومان يضطهدون اليهود بدأ اضطهاد

(1) ودليل ذلك احتمال أن يكون لفظ « تبع » و « حمير » حبشيين ، فكلمة « تبع » تعنى « قادر » وكلمة « حمير » تعنى « داكى اللون » .

النصارى فى اليمن وعقد العزم على إبادتهم وهو ما ورد ذكره فى قصة « أصحاب الأخدود » حيث كان يلقي بالنصارى فى حفر تتقد نارا ، كما قام بقتل التحار الرومان الذين كانوا فى اليمن . خلاصة القول ، أنه كان يتبع سياسة التشدد العلى ضد الرومان والأحباش ، ثم طهر رحل معنى اسمه سميفع لعله كان من أبناء لحيعة وربما كان يدين بالمسيحية وأعلن ثورته على دى نواس ، واتخذ لنفسه ملاذا فى حصن غراب الذى تعرف أطلاله اليوم باسم قان وطلب العون من الحبشة .

وعلى الجانب الآخر اشتعل إمبراطور الرومان (بيزنطة) غضبا من واقعة التحار الرومان ، إضافة إلى سخطه تجاه دولة اليمن وعلاقتها الطيبة بدولة فارس ، فقام بحث ملك الحبشة على فرص سيطرته على اليمن ، فقام ملك الحبشة (كالب ألا أصبحه) فى عام 526 ميلادية بتحريد جيش إلى اليمن تحت قيادة أرباط على متون السفن الرومانية، وقتل ذو نواس فى حربه ضد الأحباش ، وورد فى الروايات العربية أنه أُنْتحَر غرقا فى مياه البحر ، ثم أقر الأحباش سميفع ملكا على اليمن ، وأختار القائدان أرباط وأبرهة الإقامة كل فى منطقة ما مع حبشه ، وبعد فترة أعلن أبرهة عصبانه لقائده وخلع سميفع عن العرش وتولى الملك على اليمن بدلا منه ، وهذا هو أبرهة الذى ذكر فى قصة أصحاب الفيل ، وبعد أبرهة تولى ملك اليمن ولداه أكسوم ومسروق على التوالي ، وامتد حكمهما لليمن قرابة خمسين عاما ، وفى هذه الأثناء ثار شخص يسمى « ذو حدن » على الأحباش إلا أنه أنهزم ويروى أيضا أنه أُنْتحَر غرقا ، وفى حدود عام 570 ميلادية استمد أحد الأمراء الحميريين يسمى سيف بن دى يزن العون من ملك فارس وعاد إلى اليمن برفقة جيش فارسى بقيادة وهريز (بهروز) ، فقتل مسروقا الحبشى وطرد الأحباش من اليمن وبصب نفسه ملكا عليها ؛ ولكن لم يمر وقت طويل حتى تم اغتياله على يد عبد من عبيد الأحباش . ومنذ ذلك الحين ، سقطت اليمن تحت سيطرة الفرس بصورة مباشرة ، وظل القادة الفرس يحكمون البلاد بمشاركة الرعماء المحليين (الأقبال) ، ودام هذا الوضع إلى عهد ظهور الإسلام ، ومن اختلاط الفرس بالعصر المحلى يسمى طهر إلى الوحود حيل يطلق عليه اسم « الأنساء » ، وتكرر ذكرهم مرارا فى تاريخ الإسلام .

وفى أواخر حكم الأحباش شهدت اليمن وقائع تعسة أخرى منها انهيار سد مأرب ، هذا السد الذى تعرض للتصدع مرارا ثم تم إصلاحه أخيرا انهيارا نهائيا تاما بين السوات

542 و 570 م. على أثر « سبل عرم » ، وبانهياره خربت أجزاء كبيرة من اليمن ورحل السكان إلى مناطق أخرى ، ولا تزال أطلال هذا السد قائمة عما فيها من نقوش تاريخية .

تتوافر المعلومات عن حياة الشعب اليمني في عهد دولة سبأ وحمير في كتابات الإغريق الذين عاصروا هاتين الدولتين ، كما أن روايات كتاب الأخبار العرب في هذا المجال لا تخلو من الحقائق التاريخية الهامة بطرا لقرب عهدهم منهما . كانت اليمن في ذلك الوقت تنقسم إلى أقاليم يطلق على الواحد منها اسم « محفد » ، ويضم كل محفد عدة قلاع أو قصور ينتمى كل منها إلى شيخ أو أمير تسمى القلعة باسمه مسبقا بكلمة « ذو » ؛ فيقال مثلا « ذو غمدان » وتعنى قلعة غمدان ، ومن مجموع عدة محافد والقرى التابعة لها تتكون منطقة يقال لها « محلاف » ويسمى أمير المخلاف « قيل » ويتخذ اسم كل محلاف من محفد أو قصر يسكنه القيل نفسه ، وكان الأمراء السنيون والحميريون يسكنون قصورا فخمة ويرتدون ملابس فاخرة ويتخذون زينات مترفة ويطعمون في أوان من ذهب وفضة ويتحلون بالجوهر الثمينة الوفيرة ، ويعرف الخط الحميري بالخط المسد وتسمى لغتهم بالحميرية وأحيانا السئية ، وهي أقرب إلى اللغة الجفرية (الجبشية) منها إلى العربية الشمالية .

شعوب الشمال ودوله :

ثمة فروق كبيرة بين تاريخ الجزيرة العربية الشمالية وتاريخ الجزيرة الجنوبية تفوق الفروق في الوصف الجغرافي لهاتين المظقتين ، فعلى خلاف حبوب الجزيرة العربية التي تحيط بها البحار من ثلاثة جوانب وبالتالي فهي محزأة ومعلقة نجد أن شمال الجزيرة يحاور بادية الشام وبالتالي فهو يحاور مختلف شعوب الدول القديمة العراق والشام ومصر ، وتشير الوثائق التاريخية الموحدة إلى أن شمال الجزيرة كان مجالا لحركة دائبة ، وكان ممرا للقوافل التجارية ومعبرا للهجرات والغزوات العسكرية التوسعية .

وتتحدث النقوش البابلية الخاصة بأوائل الألف الثالثة قبل الميلاد عن غزوات ملوك بابل وآشور لشمال الجزيرة العربية ، وتنص على أسماء مناطق وأقوام قاموا بغرض سيطرتهم عليها ومنها « معان ملوفا » و « وسبو » ويرى كثرة من الباحثين أن « معان » هي التي تعرف اليوم باسم « معان » التي تقع في الشمال العربي من الجزيرة العربية

على طريق الحجاز إلى الشام . ولفظ « معان » ، وفي رأى هؤلاء الباحثين ، بعد صورة من صور لفظ « معين » وهو اسم الدولة الجنوبية المعروفة التى سبقت الإشارة إليها ، ويرى أصحاب هذا الرأى أن أهل معين الجنوبية كانوا أولا فى الشمال ثم هاجروا إلى الجنوب ، كما يعتقدون أن لفظ « سبو » يقصد به أسلاف السبئيين اليمنيين فى عهد بداوتهم ثم هاجروا منها حموا ، أما لفظ « ملوخوا » فربما يطبق على العماليق الذين عاشوا على أطراف الشام وورد ذكرهم فى التوراة وفى أخبار العرب ضمن العرب البائدة .

ورد فى نقوش أسرة حامورابى وهى أسرة عربية أو من أصل آرامى حكمت بابل فى حدود القرن العشرين وحتى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ذكر العرب « الغزاة » الذين سكوا عانة (مدينة على ضفة الفرات) . أما طائفة الدو الشانين الذين أطلق عليهم الإغريق اسم الهكسوس وحكموا مصر لفترة من الزمن (من 865 إلى 650 ق . م) ثم تم طردهم إلى فلسطين فقد جاءوا حسب رأى بعض الباحثين من شمال الجزيرة العربية . وورد فى النقوش الآشورية أن ملوك آشور (شلم نصر ، اسرهدون ، سارون ، آسور بانيال ، تكليت بيلصر) كانوا يعيرون بحيوشهم على بلاد « أربى » (شمال الجزيرة العربية) منذ القرن التاسع وحتى القرن السابع قبل الميلاد ، وتحدث النقوش عن المناطق والقبائل التى أخضعوها مع ذكر أسماء أمرائهم المحليين ومن بينهم عدة ملكات مثل زينة وشمس وبتبعة وتلخوبو ، ولم تكن عروات الآشوريين قاصرة على المنطقة الشمالية حسب رأى بعض علماء تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم ، بل كانت تمتد لتشمل المنطقة الداخلية وباتجاه جنوب الجزيرة ، بل وبلغت مكة ، ومن الأدلة على هذا أن هناك ذكر لورود نحت نصر إلى مكة فى أحجار العرب . وفى هذه النقوش الآشورية ورد أيضا ذكر بتعمر مكرب ساء الذى كان يرسل الحرية والحراح إلى ملك آشور . من هنا يبرز افتراض أن السبئيين كانوا فى البداية فى الشمال حيث حدث الاتصال بينهم وبين الآشوريين ، إلا أنه يفترض كذلك أن الدولة السبئية كانت لها مستعمرات فى الشمال أى إلى حوار الآشوريين وأنهم كانوا يهادون الآشوريين بهدف الحفاظ على هذه المستعمرات وكانوا يرسلون إليهم الحزبة وعلى أى الأحوال ، فإسا إن لم نسلم بوحود الهجرات من الشمال إلى الجنوب إلا أن الهجرة العكسية أى من الجنوب إلى الشمال من جانب بعض القبائل تعد أمرا مسلما به ، كما سيرد الذكر فيما بعد

وبعد أقول نعم الدولة الآشورية قامت علاقات بين الفرس فى عصر الهخامشيين وبين شبه جزيرة العرب ، وكان داريوش الأول فى نقوشه يعتبر شبه الجزيرة العربية جزءا من نطاق دولته باسم « آريانا » ، ويتحدث المؤرخون الإغريق عن وجود فرق عربية ضمن جيوش ملوك فارس (قورش الأول ، كمبوجيه وخشيا رشا) وعن الجزية التى كان العرب يدفعونها بخورا لداريوش ، وفى أعقاب فتح بابل على يد قورش الأول بدأ العرب المجاورون للعراق يدفعون الجزية لملك فارس ، واتخذ كمبوجيه (قمبيز) طريق العراة الآشوريين بشمال الجزيرة العربية فى غزوته لمصر ، ولكن بعد روال الهخامنشيين أصبحت شبه الجزيرة العربية الشمالية أكثر تحررا من النفوذ الأجنبى ولم يتخذ خلفاء الإسكندر طريقهم إليها إلى أن عظم شأن دولة الروم فى الغرب والدولة الساسانية فى الشرق وعادت السياسة الخارجية تولى اهتماما للجزيرة العربية ، كما سيرد الذكر وفى عهد شابور الملك الفارسى ، الذى تولى العرش لفترة قصيرة فى ظل الأسرة الساسانية ، قام العرب بغزو فارس عن طريق الخليج العربى ، وعندما تولى أردشير العرش فى فارس قام بطرد العرب من فارس ودخل البحرين عن طريق الخليج العربى وتوغل فى أراضى الجزيرة العربية واستولى على المنطقة الممتدة من السواحل وحتى ديار بكر ، ولم تكن المنطقة الداخلية من شبه جزيرة العرب تمثل لقمة سائغة بالنسبة للعزاة وذلك بسبب جفافها وحرارتها المرتفعة وصحاريها الشاسعة ، وكان نظر الفاتحين يتجه دوما إلى المناطق العامرة على أطراف شبه الجزيرة وامتداد الطرق بها .

* * *

تنتشر حياة البداوة فى شمال الجزيرة العربية أكثر من حياة الحضر بسبب طبيعة الأرض ، والمناطق الحضرية فى هذه المنطقة هى غالبا نفس الواحات والقرى الواقعة على طول الطرق التجارية ، وسكان هذه الواحات غالبا ما يتخذون شكل المجتمع المستقل الذى يمكن أن نطلق عليه اسم « دولة » بل وكانت بعض هذه المجتمعات دولا قرية ولها وزنها السبى ولعلنا أدواراً رئيسية فى تاريخ شبه الجزيرة العربية ومنها دولة الحيرة التى كانت تقع على ضفاف الفرات ، ودولة تدمر فى حلب ، ودولة كندة فى دومة الجندل (الحوف الشمالية حاليا) ، ودولة الغساسنة أو آل جفنة فى حلق الشام ، ودولة البطراء فى خليج العقبة . صحيح أن بضعا من هذه البقاع تعد اليوم خارج حدود الجزيرة العربية إلا أن

سكانها كانوا فى الأزمان الغائرة كلهم من العرب أو بعارة أدق من أهل الجزيرة العربية.

ومن الآثار والنقوش التى اكتشفت فى هذه المنطقة يتضح أن بعض القبائل النازحة من جنوب الجزيرة كانت قد اتخذت من هذه البقاع مستقرا لها . وقد ورد فى أخبار العرب أيضا حديث عن هجرة القبائل من الجنوب إلى الشمال ويرد بها صراحة أنه فى أعقاب انهيار سد مأرب فى اليمن شاع النزوح من الجنوب إلى الشمال . ويربط الباحثون الأوربيون بين هذه الهجرات وبين التجارة وبيرون أنه بعد استقرار طريق البحر الأحمر فى أبدى الروم وكساد الطريق الجنوبى ، وهو ما سبق أن تحدثنا عنه ، اشتدت موجة هذه الهجرات . ولا شك أن دول الحروب كمعين وسبأ كانت لها قبل هذه الأحداث مستوطنات وربما نقاط عسكرية على امتداد الطريق بين اليمن وفلسطين بحيث يمكن القول أن شمال غرب الجزيرة العربية كان يوما خاصعا برمته لسيطرة دولة معين ؛ ففي قرية العلا الواقعة فى ديدان القديمة ، والتى سميت فيما بعد « قرح » ، تم العثور على نقوش عديدة بالخط واللغة المعينية وبها أسماء تسعة من ملوك دولة معين ، وورد أيضا فى هذه النقوش الحديث مرة أخرى عن « الكراء » (جمع كبير) الذين تولوا الحكم فى هذه المناطق باسم دولة معين ، وكانت مدين التى اشتهرت فى أخبار العرب أيضا إحدى المستعمرات المعينية فى الشمال ، وورد ذكرها باسم « مصران » أو « معين مصران » فى نقوش دولة معين والألواح الآشورية التى ترجع إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . وكانت « مصران » هذه منطقة واسعة ربما كانت تضم يثرب والتيما فى نطاقها وباء على قول بليز المؤرخ الرومانى ، كانت ثمة مستوطنات إغريقية على السواحل الشمالية والوسطى للبحر الأحمر ، وهى المستوطنات التى تحدث عنها غلازر المستكشف والباحث المتخصص فى تاريخ العرب بالتفصيل فى كتابه . ويمكن من هنا الحصول على مصدر لتفسير التأثيرات الإغريقية التى تلاحظ فى اللغة العربية ، وبالإضافة إلى ذلك كانت ثمة صلات تربط بين المهاجرين العرب فى مناطق أخرى من الحدود الشمالية وبين العنصر اليوبانى .

وفى عصر دولة معين سيطر على الشمال العربى من الجزيرة العربية قوم آخرون من أصل سامى هم الأنباط . وبمرور الزمن أقاموا دولة عظيمة فى مدينة الطراء وفرضوا سيطرتهم على الطريق التجارى الشمالى الممتد من الخليج الفارسى إلى البحر المتوسط،

وغالبا ما يعتبر المؤرخون المحدثون الأنباط من أصل عبرى⁽¹⁾ . أما المؤرخون المسلمون فيرون أنهم لم يكونوا عربا ويطلقون عليهم اسم « الآراميين » ، وكان خطهم ولغتهم آرامية إلا أنهم من حيث اللغة كانوا أقرب إلى العرب . ويجمع بعض الباحثين بين هذين الرأيين ويرون أن الأنباط فى أول عهدهم حين وردوا إلى هذه البقاع كانوا آراميين خلصا، وبعد استقرارهم بسيناء وشمال الحجاز اختلطوا بالعرب فظهرت من هذا الاختلاط طبقة الأنباط العرب ، ويعتبر البعض أن لفظ « نبطى » مشتق من اسم نبايوط بن إسماعيل، الذى ورد ذكره فى التوراة ، ويرون أن هذا الشعب من نسله .

كانت البطراء عاصمة الأنباط تقع فى شبه جزيرة سيناء فى المنطقة التى تعرف اليوم باسم وادى موسى ، وكانت هذه المدينة نقطة التقاء الطرق التجارية لشمال وجنوب الجزيرة العربية وعلى رأس طريق الشام ومصر وميناء غزة ، ولذا فقد كانت أهم نقطة عبور (ترانزيت) ، وكان اليهود يطلقون على هذه المنطقة الحبلية اسم « سلع » الذى يعنى «صخرة» أو « جبل » ويرادفه لفظ « بترا » اليونانى والرومانى واللاتينى ، وكان أقدم سكان هذه المنطقة شعب يطلق عليه اسم « الحوريين » الذين كانوا يسكنون المعارات والكهوف ، وأعقبهم شعب من أصل سامى يسمى الأدوميين الذين ورد ذكرهم فى سفر التكوين ، وفى عهد ملك داود وقعت هذه المنطقة تحت سيطرة اليهود ، وفى حملة نبوخذ نصر (بخت نصر) على فلسطين ساعد الأدوميون هذا الغازى الآشورى حيث كانوا قد ضاقوا بسيطرة اليهود عليهم ، ومكافأة لهم على نصرتهم له منحهم استقلالهم من حديد فمدوا سيطرتهم إلى الحدود المصرية والبحر المتوسط ، ثم قام الأنباط بالهجوم من ناحية الشرق ودمروا دولة البطراء الأدومية واختلط الأهالى بالغزاة ، فأقام الأساط فى هذه المنطقة فى حدود القرن الرابع قبل الميلاد مدينة عامرة حتى أوائل القرن الثانى الميلادى ثم سقطت فى يد الرومان (فى عام 106 ميلادية) .

ورغم أن البطراء كانت تقع فى منطقة حلية حافة تفتقر إلى سبل الحياة إلا أنها كانت تحظى بتجارة زاهرة ويسكنها عدد كبير من الناس بفضل موقعها، وبطرا لا تزالهم بالرومان

(1) للحصول على دلائل على هذا الرعم يرجع إلى « العرب قبل الإسلام » ، ص 74 ، « وتاريخ

اللغات السامية » .

فقد اتخذت لونا حضاريا أوربيا ، وتدل على ذلك آثارها الباقية اليوم ، ويربط البعض بينها وبين اسم « رقيم » الذي ورد ذكره فى القرآن (1) .

وورد ذكر الأنباط فى النقوش الآشورية ، فيزعم آشور بانيبال (أواخر القرن السابع قبل الميلاد) أن شخصا باسم ناتان كان قد هزم الملك النبطى ، ويبدو أن هؤلاء كانوا الأنباط الذين عاشوا بالقرب من العراق ، حيث كان الشعب النبطى ، كما سبق القول ، ينتشر حتى العراق . وورد ذكر أنباط البطراء بوصف تفصيلى حذاب فى كتاب ديودور الصقلى المؤرخ اليونانى فيذكر هذا الكتاب أن أنتيجون خليفة الإسكندر فى مقدونيا قام بغزو البطراء للمرة الثانية إلا أنه فشل فى فتحها ، ثم اضطر إلى عقد الصلح معها . ومنذ ذلك التاريخ حظيت البطراء بمكانة كبيرة وقوة لها وزبها ، ثم بدأت فى الفتوحات فاستولت على الأراضى شمالا حتى دمشق وحنوبا حتى صحراء الحجاز الشمالية ، وزحفت غربا حتى دلتا مصر وكان ذلك إبان ضعف الدولة السلوقية ، ووردت فى النقوش أسماء ثلاثة عشر ملكا نبطيا من بينهم الحارثة الثالث (من 86 إلى 62 قبل الميلاد) ، الذى تمت الفتوحات المذكورة فى عهده ، ويعرف فى التواريخ الإغريقية بأنه كان صديقا ومحا للإغريق .

ثمود :

إلى الجنوب من نطاق الأساط وفى منطقة تسمى « حسمى » تقع إلى شمال الحجاز على طريق الحجاز - الشام كان يعيش شعب آخر يطلق عليه اسم « ثمود » ، ورد ذكرهم مرارا فى القرآن ، وكان هذا الشعب من أقدم شعوب شمال شبه جزيرة العرب ، حيث ورد ذكرهم فى النقوش الآشورية التى تتعلق بالقرن الثامن قبل الميلاد ، وتنص هذه النقوش على أن سارحون كان قد أسر بعضا منهم فى عام 715 قبل الميلاد ، كما وردت أخبار هذا الشعب فى كتابات الإغريق حتى أوائل القرن السادس ، ومن بين هذه الأخبار أن بعض فرسان ثمود كانوا ضمن حيوش بيزطة ، ويذكر بلين أن المنطقة التى كان شعب ثمود يعيش بها تقع فى الحر ودومة الجندل والحر هى تلك المنطقة التى يطلق عليها فى التاريخ الإسلامى اسم المدائن ، ولا تزال بها إلى اليوم آثار قديمة واضحة المعالم من

(1) العرب قبل الإسلام ، ص 66

أمنية وقصور ، ونظرا لوقوعها على الطريق بين الحجاز والشام فقد ورد ذكرها فى الفتوحات الإسلامية ، إلا أن كل هذه الآثار تنتمى إلى أنباط الطراء الذين كانوا يعيشون فى هذه المنطقة قبل ثمود ، وكانت لغة شعب ثمود تقترب من العربية الحجازية أو الإسلامية ، وكانوا يكتبون بالخط الآرامى ، كما تمتد نقوشهم إلى فترة ما بعد الميلاد أيضا .

وقامت طائفة من شعب ثمود كانت تحظى بقدر أكبر من الحصار بإنشاء دولة لها فى منطقة العلا فى شمال الحجاز ويطلق عليها اسم الدولة اللحيانية التى ورد ذكرها فى كتابات الإغريق ونقوشها موحودة بن أيدي الباحثين . كان لهؤلاء اللحيانيين حضارة مركبة من عناصر من حضارتى معين والأنباط وذات صبغة ثمودية تميزها ، وكان قيام هذه الدولة يرجع إلى فترة طويلة بعد قيام دولة الأنباط المحاور لها ، إلا أنها ظلت قائمة لمدة طويلة بعد زوال دول الأنباط فى البطراء (عام 106 ميلادية) ، وفى هذه الفترة قامت بتوسعات باتجاه الشمال واستولت على المناطق التى كانت خاضعة للأنباط ومن بينها منطقة الحجر ، وفى أعقاب زوال الدولة اللحيانية تقهقر شعب ثمود إلى الحبوب أى إلى الحجاز والمطقة الداخلية من الجزيرة العربية ، وقبيل ظهور الإسلام اندمجوا فى قبائل هذيل وزال ذكرهم ، ويعتبرهم كتاب الأخبار من العرب ضمن العرب النائدة ، كما رأينا سابقا .

تدمير :

فى القرن الثانى الميلادى عندما دالت دولة الطراء نهضت دولة أخرى فى شمال الجزيرة العربية ، وهى دولة تدمر التى يمكن اعتبارها أكبر الدول التى قامت فى شمال شبه الجزيرة العربية . وكانت تدمر واحة ببادية الشام فى شرق دمشق على الطريق التجارى الشمالى أى الطريق الذى يربط الخليج العربى بالشام ومصر .

كانت تدمر فى القرن الأول الميلادى دولة مستقلة ثم صارت بالتدريج تحت حماية الرومان ، وكانت بها تطبيقات إدارية تشبه نظام المدن الإغريقية والرومانية وفى الحروب التى نشبت بين الفرس والروم اتخذت مكانة عسكرية هامة ولغت انتباه أباطرة الرومان فكانت معرا لحبوشهم ، وطرأ للروم الذى قدمه أهالى تدمر للدولة الرومانية

فى هذه الحروب فقد منحتهم الدولة الرومانية صفة الولاية أو المستعمرة وصارت للتدمريين نفس الحقوق المكفولة لمواطنى روما ، بل واكتسبوا صفة المواطنة الرومانية ، وكان أباطرة الرومان فى عبورهم من أراضى تدمر يسفون على كبرائها الرتب والألقاب الرومانية ، وكان نظام الحكم فى هذه المنطقة فى عهد استقلالها شبيها بالنظام الجمهورى ، وكان الحاكم يلقب بالرئيس التدمرى ، ثم أقر الرومان بها نظام حكم قاصر على أسرة واحدة ويورث ، وكان هؤلاء الرعماء فى مراسمهم يتخذون لأنفسهم لقب « ستيמוש » المأخوذ عن اسم الإمبراطور الرومانى سبتيموس سوروس ، وارتقى بعضهم إلى درجة عضو بمجلس الشيوخ بل وإلى مرتبة الفنصل التى كانت تعد مقاما رومانيا رفيعا ، وفى عهد شابور الأول الساسانى انحاز أذينة بن حيران (أذينة الثانى أو « أدناتوس » كما أطلق عليه الروم) إلى الروم رعم الهزيمة التى ألحقها شابور بالملك فاليرىس، فهاجم فارس وقام بطرد الفرس من آسيا الصغرى والشام والحزء الرومانى من بين النهرين وتقدم إلى مشارف طيسفون * ، ثم عاد أدراجه وأرسل الغنائم والأسرى الفرس إلى القبصر (عام 264) . وفى مقابل هذه التصحيات أسع عليه الرومان لقب «حاكم المشرق وولى عهد الإمبراطور» ، وهو منصب لم يكن له نظير حتى ذلك الوقت . ويمتضى هذا المنصب ، أصبح أديبة ملكا على الشام والحريرة العربية وأرمينيا وبادوكية وقليلية .

تم اغتيال أذينة على يد ابن أخيه فى عام 266 أو 267 م فى حمص عندما عقد العزم على عزو مناطق أخرى . وتولى الحكم من بعده ابنه (أواس رويحه) وهب اللات إسميا حيث كان لا يزال صغيرا ، أما مقاليد الأمور فكانت فى يد أمه زنوبيا ، وفى هذا الوقت كان الإضطراب قد بدأ فى الدولة الرومانية من الداخل فاستعلت روميا الحاكمة القوية الشجاعة الفرصة السابحة بهاجمت آسيا الصغرى وابتدعتها من سيطرة الرومان وصمتها إلى نطاق ملكها ، وضربت السكة فى الإسكندرية باسم ولدها (عام 270 ميلادية) وأطلقت عليه لقب ملك وعلى نفسها لقب ملكة ، بل ولقته بلقب «ملك الملوك» (ملكان ملكا) فى بعض النقوش ، وفى ذلك الوقت كان أورليان قد تولى الملك وأصبح إمبراطورا للرومان ، فهب لسحق التدمريين ، واستولى على آسيا الصغرى ومصر

* وهى التى أطلق عليها المسلمون اسم المدائن .

مسيهم بالتدريج ، ثم عاد إلى تدمير وحاصر المدينة ، فرحلت زنوبيا وولدها عنها بهدف الحصول على العون من الفرس ، إلا أنهما وقعا أسيرين في يد الرومان بالقرب من نهر الفرات ، وأصدر الامبراطور عفوه عن أهالي المدينة ، أما زعماء الدولة وعمالها فقد أعدمهم ، وكان من بينهم لوبينوس العالم الشهير الذي كان يعيش في بلاط زنوبيا ، واصطحب الامبراطور كلا من زنوبيا واسنها معه إلى روما ، وفي الطريق بلغه أن أهالي تدمير قاموا بثورة ، فعاد أدراجه وأعمل القتل في الشعب ودمر المدينة تدميرا (عام 272 ميلادية) ، فقصدت زنوبيا واسها ما تنقى من عمرهما في منفاهما بالقرب من مدينة روما على الراتب الذي أجرى لهما ، وفي النهاية واقتهما المنية في نفس المكان .

كانت زنوبيا في الكتابات العربية واحدة من أشهر ملوك الشرق وتروى عنها القصص، وكانت هذه الملكة أشبه بأنطال التاريخ مها إلى النساء ، فكانت في بلاطها أشبه بملوك الفرس في الأنفة والكر وفي حبشها أقرب إلى تصرفات قادة الروم والإغريق وأطوارهم إضافة إلى جمالها وقوة بياها ، لذا فهي معروفة جيدا لدى كتاب الإغريق والرومان ولو أنها لا شأن لها في تواريخ العرب ، وقد حاول البعض أن يطاق بينها وبين الرباء التي اشتهرت في الأساطير العربية إلا أنه ليس معلوما ما إذا كانت نفس الشخص أم لا (1)

ويتمد الخلاف ليشمل ما إذا كان التدمريون عربا أم آراميين وهو نفس الخلاف الذي ثار حول الأباط ، والقدر المتفق عليه هو أن نقوش تدمير قد كتبت بالخط واللغة الآرامية مع وجود ألفاظ يونانية ولاتينية عديدة امتزجت باللغة ، وبقيت من آثار تدمير أطلال لمعد ومقبرة في المنطقة التي لازالت تعرف حتى اليوم باسم تدمير ؛ فكانت مانيها على الطراز المعماري الإغريقي وتحكى عن محد كبير ، كما أن هناك عملات معدنية لأمرأ تدمير تم الكشف عنها .

اللخميون :

على الطرق التجارية الشمالية كانت ثمة ثلاث دول أخرى تسمى اللخمية والفساسنة

(1) انظر رسالة ردهوسي تحت عنوان " Were Zenubia and Zebba Identical "

تعد كلمة « زنوبيا » أقرب إلى اسم « ريب » .

وكندة ، وكانت عبارة عن قبائل من المهاجرين الجنوبيين ممن نزحوا من الجنوب إلى الشمال بغرض التجارة أو ربما على أثر انهيار سد مأرب وهو ما يرجحه كتاب الأخبار من العرب، ثم قامت هذه القبائل بتأسيس دول ظلت قائمة حتى ظهور الإسلام ، وعلى خلاف تدمير والبطراء اللتين كانتا أقرب إلى الآراميين والنبط كانت هذه الدويلات ذات سمات عربية واضحة ، ويتضح من النقوش التي تم الكشف عنها في أراضي لحم⁽¹⁾ أن اللغة التي كانت متداولة في تلك المنطقة كانت أقرب إلى العربية الشمالية (لغة الحجاز) وربما كانت نفس هذه اللغة في أوان ظهور الإسلام ، وكانت تربط بين هذه الدويلات وبين العرب البدو الشماليين صلات وثيقة وعلاقات متعددة ، وكان شعراء البادية يحضرون إلى بلاطات الملوك اللخمين والفساسنة وينظمون في مديحهم القصائد ، لذا فإن الأخبار والحكايات التي تتعلق بهذه الدويلات تعد أكثر من غيرها لدى كتاب الأخبار العرب ، وكانت هذه الدويلات شبه متحضرة وشبه مستقلة وكانت كل منها تتبع واحدة من الدول الكبرى المجاورة وكانت كل منها أداة في يد كل من هذه الدول ؛ فكان اللخمين تابعين للفرس ، وكان الفساسنة يمدون أوليائهم بالعون في الحروب التي كانت تنشب بين الفرس والروم وكانوا يسبغون في ركبهم إلى ساحات الحرب فكانوا ينعمون بصلاتهم ورحمايتهم، أما في أوقات السلام والانعزال عن الدول الكبرى فكانت هذه الدويلات تقوم بفتوحات في البادية أو بالاعتقال فيما بينها .

كانت عاصمة الدولة اللخمية الحيرة ، وهي مدينة في جنوب الكوفة الحالية على ساحل بحيرة النجف التي جفت اليوم ، و « حيرة » في اللغة السريانية تعني « قلعة » أو « حصن » ، وكانت هذه المنطقة بمثابة برزخ بين أراضي العراق وبادية الجزيرة العربية ونقطة التقاء بين أسلوبى الحياة الحضري والبدوي ، وكان سكانها من مختلف قبائل العرب من شمالية وجنوبية (عدنانية وقحطانية) على السواء . وبناء على إحدى الروايات ، كانت إمارة هذه المنطقة في أواسط القرن الثالث الميلادي في يد رجل من قبيلة أزد أو قضاة (من عرب الجنوب) يسمى جذيمة ويلقب بالأبرش أى الأبرص ، وقد دخل في حروب مع الزباء (زنوبيا) ملكة تدمر ، وفي النهاية سقط في يدها أسيرا فقتلته في

(1) انظر نقش غارة ونقش حران في « تاريخ اللغات السامية » لولفنسون ، ص 190-194 .

عام ٢٧٠ ميلادية ، وخلفه فى الإمارة ابن أخته عمرو بن عدى بن نصر من قبيلة لخم وبه بدأت سلسلة ملوك اللخميين الذين يطلق عليهم أيضا اسم المناذرة وآل نصر ، واستمروا فى الإمارة حتى عام 602 ميلادية ، وقد حكم الحيرة ما يقرب من عشرين ملكا من هذه الأسرة فى غضون ثلاثمئة وبيف من السنين بلا انقطاع سوى فى فترتين قصيرتين .

كانت دولة الحيرة حازا يحول بين بلاد الفرس التى كانت تسيطر على أراضى العراق فى ذلك الوقت وبين عرب البادية ، فكانت بمثابة نقطة حراسة فى مواجهة الروم ، ومن ثم فقد كانت حمايتها والإبقاء عليها موضع اهتمام دولة الفرس ، وكان الملوك الساسانيون يستمدون من الحيرة عونا كبيرا فى حروبهم مع الروم ، ويرتبط تاريخ اللخميين بصورة كلية بتاريخ الساسانيين ، لذا فتاريخهم معروف إلى حد كبير نسبيا ، بالإضافة إلى أن المؤرخين البيزنطيين الذين عاصروهم يقدمون معلومات هامة عنهم . كان من كبار ملوك هذه الأسرة امرؤ القيس الأول الذى تم العثور على قبره فى غمارة بحوران الشرقية ، وعلى قبره نقش ، يعد من الناحية التاريخية ومن ناحيتى الخط واللغة ، وثيقة هامة ، ومن كبار ملوكهم كذلك النعمان الأول ابن امرئ القيس ، وهو صاحب القصر المعروف باسم الحورنق ، وأسطورة سمنار الشهيرة تتعلق به ، ويروى أن يزدجرد الأول الساسانى كان قد أسلم ابنه بهرام (بهرام حمار الوحش) منذ طفولته للنعمان ليقوم بتربيته ، فأقام النعمان هذا القصر - حسبما تجرى الرواية - وشأ نشأة عربية ، ولا يستبعد أن يكون بهرام قد عاش فى صاه بالحيرة ، أما ارتباط القصر باسمه وشأته العربية بهذا القدر الذى تشير إليه الرواية فيبعد مسألة غير مؤكدة

ومن مشاهير ملوك هذه الأسرة الملكية أيضا المذر المعروف بابن ماء السماء والذى تولى الملك فى أوائل القرن السادس الميلادى ، وكان منحازا للفرس لدرجة الدخول فى حروب ضد الروم والفساسنة الخاضعين لحمايتهم ، ولقى مصرعه فى حربه مع الفساسنة فى عام 554 ميلادية ، وقام قتاد الساسانى فى أواخر عهده بعزل المذر عن الإمارة وولى بدلا منه ملك الكنديين حارث بن عمرو ، إلا أن مدة عزل المذر كانت قصيرة حيث توفى قتاد فى تلك الأثناء وخلفه على عرش فارس أبو شيروان الذى أعاد المذر إلى عرشه ، ويقال أن غضب قتاد على المذر كان يرجع إلى اعتناق المذر العقيدة المزدكية ، وكان المذر يعارضه فى هذا الصدد ، فولى قتاد حارثا الكندى الذى كان يميل أيضا إلى

العقيدة المزدكية مكانه ، إلا أن صحة هذا المبرر لا تزال أمرا غير مؤكد ولا تزال حقيقة الأمر مجهولة

كان آخر ملوك اللخمين النعمان بن المنذر الذى جلس على العرش طبقا لأقوى الاحتمالات فى عام 580 ميلادية ، وهناك حكايات عديدة تروى عن هذا الملك فى أخبار العرب ، وقد حلد ذكره الشعراء الذين كانوا يترددون على بلاطه ، وفى حوالى عام 602 ميلادية أرسل خسرويز ملك فارس فى طلب ماثول النعمان فى بلاطه ، فألقى به فى السجن وبعد فترة ألقاه تحت أقدام القبيلة لتسحقه ، وفى رواية أخرى يقال إنه توفى بمرض الطاعون ، ثم قام خسرو بتنصيب أمير عربى من قبيلة طى يسمى إياس بن قبيصة على إمارة الحيرة مع وصى فارسى ، وبعد تسع سنوات وفى رواية أخرى بعد سبع سنوات تم ضم الحيرة إلى بلاد فارس نهائيا وتم تنصيب حاكم فارسى عليها ، وفى عام 11 هجرية فى خلافة أبى بكر وفى أثناء ارتداد القبائل أعلن أحد أبناء النعمان يسمى المنذر ويلقب باسم « عرور » الثورة فى الحيرة وتولى زعامة العرب المرتدين لبضعة أشهر إلى أن لقي مصرعه على يد جيش الخلافة فأصبحت الحيرة تابعة لسلطة الخلافة .

وهكذا دالت دولة الأسرة اللخمية وانهار السد الذى قضى الساسانيون سنوات فى بائه وزال على يدى برويز ، ومازاد الأمر سوءا أن برويز بعد وفاة النعمان أرسل يطالب بالأموال التى كان النعمان قد أودعها لدى بنى شيبان فى طريقه إلى فارس ، فلم تقبل هذه الطائفة بأن تسلم الأموال له ووصل الأمر إلى درجة الحرب ، فأنزل العرب ، الذين كانوا أوفر عددا ، هزيمة قاسية بحيش فارس ، وكانت الهزيمة التى كشفت عن ضعف دولة الفرس فى ذلك الوقت ، وقد وقعت فى منطقة ذى قار بالقرب من الكوفة ، فانتشر الخمر فى أرجاء الجزيرة العربية ، فصارت موقعة ذى قار منطلقا لإرسال العرب لجيوشهم لغزو فارس فى العصر الإسلامى .

هناك خلاف حول أسباب إقدام برويز على القضاء على الأسرة الملكية اللخمية ، فتقول إحدى الروايات أن الأمير اللحمى كان قد دبر مؤامرة مع العرب ضد ملك الفرس ، وتقول رواية أخرى أن برويز ، بعد إبرامه للصالح مع الروم ، ووجد نفسه فى غير حاجة إلى الأسرة اللخمية وأنه كان طامعا فى بلادهم ، ويقال فى رواية ثالثة أنه غضب على النعمان

لإعتناقه المسيحية أو لاتحيازه إلى النساطرة في حين كان يروى متعاطفا مع اليعاقبة ،
وليست هذه الروايات سوى افتراضات حسية لاترقى أى منها إلى مستوى اليقين القاطع .
ظهرت المسيحية في الحيرة حوالي القرن الرابع الميلادى وانتشرت تدريجيا بين أهلها ،
إلا أن الملوك اللخمين كانوا يكبحون ميلهم إليها ، وربما كانوا في هذا الصدد يراعون
توجهات البلاط الفارسي الذي كان يناهض المسيحية ويعتبرها دين الأعداء ، إلى أن
أعلن النعمان بن المنذر اعتناقه لها في أواخر القرن السادس ، وكان ذلك في وقت ساد
فيه السلام العلاقات بين الروم والفرس ، فانتشرت المسيحية في فارس للدرجة أن
اعتنقتها زوجة الملك وفرضت حمايتها عليها صراحة .

الغساسنة :

قامت دولة الغساسنة في المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية في منطقة تسمى
حوران وبلقاء بجوار ممتلكات دولة الروم ، وكان لهذه الدولة نفس الوضع الذي كان للدولة
اللخمين مع الفرس ، فكانت حامية حدود الروم في مواجهة عرب البادية وذخرا عسكريا
لحروبها مع الفرس ، وكان ملوك الغساسنة يلقبون من جانب الدولة الرومانية باسم
« فيلارك » ويحظون بلقب « باتريكيوس » (بطريق) ، وكانوا يحصلون على رواتب
سنوية من الروم ، وكانت عاصمة الغساسنة طبقا لرأى كتاب الأخبار من العرب من
مهاجرى الجنوب الذين كانوا قد أقاموا بعد نزوحهم من الجنوب لفترة في تهامة قرب عين
ماء أوثر يقال له غسان وأنهم صاروا ينتسبون إليه ⁽¹⁾ ، وكان العرب سكان يثرب
(المدينة) ممن يعرفون في العصر الإسلامى باسم الأثصار يعتبرون أنفسهم من الغساسنة .

وهاجر الغساسنة في القرن الخامس الميلادى من تهامة إلى منطقة حوران الشهيرة ،
وكانت حكومة حوران في ذلك الوقت في يد طائفة من العرب تسمى الضجاعة الذين
كانوا حكاما يتم تنصيبهم من جانب الروم أى كانوا « فيلاركات » هذه المنطقة حسب

(1) يذكر بطليموس في القرن الثانى الميلادى أن مستقر هؤلاء القوم كان في السواحل الغربية للجزيرة
العربية ومن ذلك يتأكد لنا أن الغساسنة كانوا لا يزالون يقيمون في تهامة حتى ذلك الوقت. (المؤلف) .

التسمية الرومانية . وفى أوائل القرن السادس الميلادى انهار الضحامة وأسلمت دولة الروم حكم تلك المنطقة لرجل من آل غسان يسمى حارث بن جبلة (عام 529 ميلادية) ، وأصبح هذا المنصب متوارثا فى نسله ، وكان العرب ينسبون هذه السلسلة إلى اسم حد حارث هذا وهو آل جفنة .

كان حارث بن جبلة هذا يعد أكرم ملوك العساسنة ، فقد حكم مدة طويلة نسبيا وكان يرافق القائد الرومانى المعروف بليز فى غزواته وحملاته على الفرس ، وطالما دخل فى معارك مع ملك الحيرة ، لذا فقد اشتهر اسمه بين قبائل العرب وذكره الشعراء فى أشعارهم ونظموا وقائعه شعرا ، ومن هذه الأشعار معلقة الحارث بن حلزة التى تعد من المتعلقات السبع .

وبعد الحارث تولى المنذر الملك لمدة ثلاثة عشر عاما ، ثم غضب عليه الروم فحكموا عليه بالنفى إلى جزيرة صقلية التى ظل بها حتى وافته المية ، ويحتمل أن غضب الروم على هذا الأمير الغسانى كان يرجع إلى مسألة ديبية حيث كان الفساسنة يعتنقون المذهب اليعقوبى الذى كان الروم يناهضونه ، وبعد المنذر ثار أباءه الأربعة بقيادة أكرهم النعمان (غير النعمان بن المنذر اللخمى) على الروم ونقلوا مقرهم من المدينة إلى البادية ومنها أطلقوا فى هجماتهم على المستعمرات الرومانية ، إلا أن الروم تمكوا من القبض على النعمان عن طريق الخديعة وأخذوه إلى القسطنطينية حيث ألقوا به فى السجن ، ومن ذلك الوقت لم يعد للعساسنة ذكر فى كتابات الروم ، ولكن ثمة قصائد لبعض الشعراء العرب يرجع تاريخ نظمها إلى ما بعد سقوط النعمان ، وترد فيها أسماء بعض أمراء العساسنة ، ومن المعروف أيضا أن خسرو بروير قد هاجم الشام وفلسطين فى عام 413 م . وظلتا تحت سيطرته حتى عام 629. وبناء على ذلك ، فإن دولة العساسنة لو كانت لا تزال قائمة فلا بد أنها قد زالت فى هذا العرو الفارسى ، وبعد 629 م . عندما استعاد الروم سيطرتهم على الشام وفلسطين من أيدي الفرس ليس من المعروف ما إذا كانت دولة العساسنة قد استردت مكانتها من جديد أم لا ، وفى ضمن أخبار الفتوحات الإسلامية يرد الحديث عن أمير غسانى يسمى جبلة بن الأيهم الذى كان ضمن جيوش الروم وقاتل ضد المسلمين ثم اعتنق الإسلام وبعدها ارتد إلى المسيحية ، وهناك أيضا خبر عن حرب خالد بن الوليد ضد أمير غسانى يسمى الحارث بن الأيهم ، إلا أن أيا من هذين الرحلين لم

تعرف هويته بعد ومن المحتمل أن دولة الفساسنة تقوضت أركانها في أعقاب موت النعمان هذا ولم يبق منهم سوى أمراء صغار في أركان متفرقة . يقول ابن العبري أن الفساسنة بعد زوال دولتهم تفرقوا ورحلوا إلى المناطق المحيطة ، وظل عدد منهم في رى الموصل والعراق حتى العهد الذي عاش فيه ابن العبري(أى القرن السابع الهجرى)وقد ظلوا ثنتين على مذهبهم البعقوبى .

بنو كندة :

كانت دولة بنى كندة مملكة أنشأتها جماعة من قبيلة بنى كندة فى نجد ودومة الجندل ، وكان بنو كندة أيضا كاللخمين والغساسنة من القبائل المهاجرة ، وكانوا طبقا للروايات العربية يعيشون فى البداية على حدود حضرموت فى الجنوب ، ثم هاجروا شمالا تحت ضغط من الحضرموتيين أو بسبب ترك ملك اليمن الحميرى لإمارة بعض قبائل الشمال فى يد أمير بنى كندة ، فسكنوا فى المنطقة المعروفة ببطن عاقل فى نجد ، وكانت هذه الدولة تعد تابعة للدولة الحميرية باليمن ، وكانت لها علاقات متشابكة بالدولتين المعاصرتين لها أى اللخمين والغساسنة .

ومؤسس الدولة الكندية هو حجر بن عمرو الملقب بأكل المرار ⁽¹⁾ الذى تتحدث أخبار العرب عن حسن سياسته وعن الإنتصارات التى حققها على اللخمين ، ومن بعده أتى ولده عمرو ولقب بالمقصور لأنه لم يضاف إلى ملك أبيه شيئا .

وبعد الحارث الإبن الأكبر لعمرو آخر وأعظم ملوك هذه الدولة ، ويرتبط تاريخه بتاريخ الفرس كما سقت الإشارة إلى ذلك فى الفصل الخاص بدولة اللخمين ، فيروى أن الحارث تقرب إلى قباد ملك الفرس عن طريق ميلة إلى العقيدة المزدكية ، فاستولى قباد على منطقة الحيرة من المنذر وأهداها للحارث ، فجلس الحارث على عرشها وعين كلا من سنيه الأربعة أميرا على عدد من قبائل البادية فعلا شأنه، ولكن سرعان ما تم تنصيب المنذر وحده فى السعى فى أثره وأثر كل أقربائه، وتوفى الحارث فى ديار كلب فى حين تم قتل عدد كبير من أقاربه على يد المنذر، ووقعت الرقيعة بين أساء الحارث الأربعة وقتلوا جميعا، وهكذا زالت أسرة الحارث، وكان آخر أفراد هذه الأسرة إمرو القيس حميد الحارث والشاعر العربى المعروف الذى ظل يطوف بين القبائل العربية طالبا العون على أمل استرداد ملك جده الضائع والثأر لدم أبيه وأعمامه، وفى النهاية ذهب إلى امبراطور الروم وعاد خالى الوفاض وتوفى فى طريق العودة، ويقال أن الامبراطور قتله بالسم، وبعد زوال آل الحارث آلت إمارة بنى كندة إلى أسر أخرى من هذه القبيلة وظلت حتى ظهور الإسلام ثم

(1) المرار عشب مر يأكله الحمل فتعلط شتاه ، ويقال أن روحه حجر أطلقت عليه هذا اللقب لما كان له من شتاء غليظة

ضعف شأنها فى عهد الخلافة .

كانت هذه أهم المراكز الحضرية فى شمال الجزيرة العربية ، كانت مجتمعات متقدمة نسبيا وبلغت فى تطورها مرحلة الدولة ، وكانت بالشمال أيضا مراكز أخرى لمجتمعات حضرية أو بعبارة أخرى مستقرة ولا تعد دولة بأى حال من الأحوال ؛ ومن بينها مكة وشرب والطائف وقرى وادى القرى والعلا وتيماء وغيرها ، مما سيرد ذكره تفصيلا فيما بعد. وحتى خارج الحدود الشمالية للجزيرة العربية وفى منطقة الصفاة الواقعة فى نطاق الشام وجدت آثار مستوطنة عربية لها خطها المستقل ولغتها الخاصة اللذان يعرفان بالخط واللغة الصفوية (1) .

إلا أن الأغلبية فى شمال الجزيرة العربية كانت من البدو الذين يعدون السكان الأصليين لهذه المنطقة ، وتشير الإحصاءات إلى أن أسلوب الحياة الحضرى كان من سمات المهاجرين من الجنوب فقط فى هذه المنطقة الشمالية كما سبق أن رأينا من قبل ، أو من خصائص حياة اليهود الذين كانوا يقيمون بوادى القرى كما سيرد الذكر بعد قليل ، وقد نزع كل من هاتين الجماعتين إلى هذه المنطقة من خارجها . أما بدو الشمال فكانوا يختلفون من حيث العنصر عن أهل الجنوب . فكانوا يعتبرون أنفسهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم النبى العبرى لا من أبناء يعرب . لذا ، فقد أطلق عليهم كتاب الأخبار العرب اسم العرب المستعربة ، وكانت منازل هذه الأقوام فى تهامة ونجد والحجاز وفى بادية الشام من حدود العراق وحتى تخوم الشام .

من روايات أخبار العرب أن إبراهيم أخذ أمته هاجر وابنه إسماعيل بأمر من الله من فلسطين إلى أرض مكة، وكانت حينئذ أرضا قاحلة لا حياة فيها ولا ماء، ثم فجر الله بئر زمزم لإسماعيل، وبلغ إسماعيل أشده بين قوم من العمالقة كانوا يضربون خيامهم فى تلك المنطقة، ثم استولى جرهم وهم طائفة من القحطانيين على هذه المنطقة، فتزوج إسماعيل ابنة ملكهم وكان له منها اثنا عشر ولدا أولهم نابت وثانيهم قيدار، وأتى عدنان من نسل قيدار بعد عدة أجيال تتعدد الروايات حولها، وأنجب عدنان ولدين هما عك ومعد، وكان

(1) ويعرف هذا العصر فى تاريخ الإسلام باسم العدناني والمعدى والمضرى والزاري وهى أسماء أخذت من أسماء أحداهم الواردة فى سلاسل نسهم .

معد هذا جد كل القبائل العدنانية .

وقد ورد فى التوراة وبعض كتابات اليهود الأخرى ذكر عن قوم يقال لهم الإسماعيليون أهل مدين وبنو مشرق وبنو قيدار ، ويرى معظم المؤرخين المحدثين أن المراد بكل هذه المسميات الأقوام العدنانية بالجزيرة العربية ، وفى سفر التكوين صحاح 37 آية 25 ضمن قصة يوسف وإخوته ورد : « ثم جلسوا يأكلون ، وفتحوا عيونهم ليروا قافلة بنى إسماعيل وقد وصلت فجأة من جلعاد ، وكانت إبلهم محملة بالصنغ والبيلسان واللادن ووجهتهم مصر » ، وفى سفر أشعيا إصحاح 21 آية 16 ، 17 يقول : « قال الله لى بعد عام ستكسر شوكة قيدار وسيقل عدد رماة السهام وجبايرة بنى قيدار » .

وفى سفرى إرميا ويهوذا يدور الحديث كذلك عن هجوم بخت نصر (نبوخذ نصر) على قيدار وغارات بنى مشرق ، وفى سفر القضاة أيضا يرد ذكر لهؤلاء القوم وكذلك فى سفر أشعيا الذى يحكى عن « زوال شوكة بنى قيدار وقناء رماة أسهمهم وجبايرتهم » ، ويتضح من هذه النصوص أن هؤلاء الإسماعيليين كانوا شعبا من التجار وأصحاب الأموال وكانوا يتمتعون باحترام وقوة كبيرة فى بيئتهم ، وإذا اعتبرنا وجودهم فى قصة يوسف بالصورة التى وردت فى سفر التكوين مرجعا فلابد من القول بأن هؤلاء القوم كانوا موجودين فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد لأن كتاب الوقائع يؤكدون أن يوسف كان يعيش فى ذلك القرن، ولكن ينبغى أن نرى أى أقوام كان هؤلاء أصحاب الأسماء المذكورة فى هذه المصادر وهل كانوا أسلاف عدنانيين الجزيرة العربية أم لا، فيرى ولفنسون أنهم كانوا من العرانيين ويدخلون ضمن سائر الطوائف العدنية كبنى إسرائيل والكنعانيين وغيرهم، وكانوا يقطنون فى داخل أراضى الحجار. وتعد قبائل بنى مدين أيضا من ذوى قرباهم وكانوا يسكنون على ساحل البحر الأحمر من العقبة إلى ينبع. ونظرا لعلاقة القربى الوثيقة التى كانت تربط هذين الشعبين فإن كتاب المصادر اليهودية كانوا يطلقون اسم كل منهما على الآخر، ويطلق ولفنسون على هذه الشعوب اسم «العبريين البائدين» ويرى أنهم قد زالوا فى غمرة فتوحات بخت نصر والفرس ومصر على شمال الجزيرة العربية بحيث امتزج الإسماعيليون بالعرب فى الجزيرة العربية فى حين ذابت بطون من بنى مدين فى بنى إسرائيل فى فلسطين⁽¹⁾، ويطلق جورجى زيدان اسم «العرب الإسماعيليين» على الإسماعيليين فى كل مكان، ويرى أن هؤلاء العرب أصابهم الضعف من جراء هجمات

(1) تاريخ اللغات السامية ، ص 111 .

بخت نصر ، ثم عادوا إلى الظهور من جديد فى حوالى عصر الميلاد (1) ، ويبدو أن المرجع الذى استند إليه ولفنسون فى تسمية الإسماعيليين باسم العبريين هو كونهم من أبناء إبراهيم ، فهو يطلق اسم « عبرى » على هذا المحمل ، ولا ينبغى أن ننسى أن علماء العرب أيضا كانوا يطلقون على العدنانيين اسم « المستعربة » ، كما سبق القول .

على أية حال ، فهؤلاء العرب المستعربة أو العدنانيون كانوا يختلفون اختلافا واضحا عن العرب العاربة أو القحطانيين من حيث النظام الاجتماعى واللغة والدين :

(1) فمن حيث النظام الاجتماعى ، كان العدنانيون باستثناء قبيلة أو قبيلتين هما قريش وثقيف كانوا من البدو سكان الصحارى من نوع البدو المعاصرين ، فى حين كان أهل الجنوب فى معظمهم من سكان المدن ومن الحضرة الذين يسكنون فى بيوت ويستقرون فى مدن عامرة ، وفى قبائل الشمال كان تقليد تولى النساء لزاما الحكم شائعا مما لا يتصف بصفة الشيوخ فى تاريخ الجنوب ، فتنص النقوش الآشورية على أسماء عدد من ملكات العرب اللاتى حكمن فى الشمال ، وفى تاريخ الفتوحات التى تمت فى عصر الرسول نرى قصة امرأة تسمى أم قرفة باعتبارها ملكة على إحدى القبائل، كما أن ثورة سجاح وقيادة عائشة للجيش فى موقعة الجمل لا تخلو من شبه بهذا التقليد البدوى القديم، وربما كانت هناك أمثلة أخرى على هذا التقليد بين قبائل البدو فى شمال أفريقيا اليوم .

(2) وتختلف اللغة العدنانية من حيث الإعراب والتصرف ووضع الضمائر والإشتقاق وأشياء أخرى عن لغة سكان الجنوب أى اللغة الحميرية ، ولو أن كلتا اللغتين تشتركان فى أصلهما السامى ، ويتضح الفارق الظاهر بينهما كذلك فى الأسماء الشخصية ؛ فأسماء سكان الجنوب أشبه بأسماء البابليين فى حين لا نجد تشابها بين أسماء أهل الشمال وبين أسمائهم ، ويقال أن اتخاذ أسماء الكائنات من قبيل أسد وفمر وثعلبة وكلب وما إلى ذلك يعد من خصائص أهل الشمال ، كما يلاحظ تغلغل اللغة اليونانية فى لغة الشماليين مما لا وجود له فى لغة الجنوبيين (2) .

(1) العرب قبل الإسلام ، ص 127 .

(2) انظر « العرب قبل الإسلام » ، « تاريخ اللغات السامية » ، « نشأة اللغة العربية » ، لأنتاس الكرملى

(3) ورغم العناصر المشتركة العديدة التي تربط بين القومين من حيث الديانة إلا أن كلا منهما كانت له آلهته الخاصة به ، كما سيرد بالتفصيل فيما بعد .

ينقسم العدنانيون إلى قسمين باسم ولدى عدنان « عك » و « معد » ، فكانت قبائل عك التي تسمى في كتابات الروم باسم أختيتاي ⁽¹⁾ تقيم في أطراف زبيد بجنوب تهامة ، وليس لهذه القبائل تاريخ هام ، أما المعديون الذين يطلق عليهم « العدنانيون » بصورة مطلقة فلهم فروع عديدة ، وينقسمون بصورة كلية إلى قسمين : نزار وقنص ، وكانت الأغلبية في هذين القسمين للنزازيين الذين كانوا يشملون العديد من القبائل ، وأشهرها خمس قبائل : مضر وربيعه وإياد وأنمار وقضاعة ، وهناك اختلاف فيما إذا كانت قضاعة من العدنانيين أو القحطانيين .

يقول كتاب الأخبار العرب أن هذه القبائل كانت تتعايش معا في العهود القديمة ، ثم تفرقت بها السبل على أثر الشقاق والحروب التي نشبت بينها ، فمضت كل منهما إلى مكان ، ويطلق أهل الأخبار على هذه الحروب اسم « أيام العرب » ويسردون تاريخها بالتفصيل ، إلا أن السبب الحقيقي لتفرق القبائل وتشتتها كان الحياة البدوية نفسها حيث كان الحث عن الماء والعلف يستدعى التفرق ، بل وكانت هذه القبائل تغير على المدن والبلاد العامرة المجاورة للجزيرة العربية . ويحكى مؤرخو الروم عن نزوح بعض قبائل الهرب حول الميلاد إلى مصر والحشة ، وربما كانوا شعبة من بني قضاعة ، وهناك أيضا بطن أخرى منها تسمى الضحاعمة ورد ذكرهم في حوران الشام ثم في الحصر بين الموصل وتكريت .

كانت هذه القبائل الرحالة تربط نفسها أحيانا بالدول المحاورة أي تلك الدويلات التي سبق الحديث عنها منذ قليل ، فتحظى بحمايتها في نظير حزية تحصلها هذه الدول منهم مع ضم عدد من أساء القبيلة إلى جيوشها ؛ وكان العدنانيون تحت سيطرة دولة حمير الجنوبية كما رأينا بإيحاء في أخبار دولة كعدة . وفي أواسط القرن الخامس تولى رجل اسمه زهير بن حناب الكلبي حكم عرب الشمال من طرف الدولة الحميرية ، وثار عليه قبيلتا بكر وتغلب من قبائل ربيعة بسبب الجزية التي كان زهير يتبع القسوة في

(1) Acchitai

جمعها وكانتا عاجزتين عن دفعها ، فأرسلوا فى البداية قاتلا لاغتياله على طريقة البدو إلا أن سيف القاتل أخطأ ، فاضطروا إلى إشعال الحرب فانتصر زهير ، وفى أواخر القرن نفسه جمع رجل عدنانى يسمى كليب بن ربيعة شمل قبائل معد وهزم الحميريين وخلص قبائله من هيمنتهم ، ويطلق على هذه الحرب فى أخبار العرب اسم " يوم خزاز " ، فكان كليب يمثل بطلا قوميا بالنسبة للعرب العدنانيين . ورغم هذا النصر الذى أحرزه العدنانيون إلا أنهم لم يتمكنوا من تأسيس دولة لهم لتعلقهم الشديد بحياة البادية والروح الفردية ، كما أنهم انشغلوا كذلك بحروب داخلية واغتيالات فيما بينهم ، فكانوا من حين إلى آخر يخضعون لهيمنة دولة من الدول ، وما يعد معروفا أن العدنانيين لم يهتموا فى الجاهلية تحت راية واحدة إلا ثلاث مرات : إحداها فى يوم خزاز ، وأخرى فى موقعة سنان والثالثة تحت لواء عامر بن الظرب فى حربه ضد قبائل مذحج اليمنية . وفى العصر الإسلامى اجتمع شمل هذه القوة الضخمة المشتتة مرة أخرى تحت لواء واحد ، وشملت الوحدة القبائل العدنانية كلها بل والعرب بأسرهم ، فتحت هذه الفتوحات الكبرى ، ولكن فى أواخر عصر الخلافة الأموية استيقظ ذلك الحس الفردى البدوى والتعصب القبلى الذى شجعه الخلفاء وأضرموا نيرانه، فانفرط عقد الوحدة العربية، كما سيرد تفصيلا فيما بعد. وهناك قول عربى مأثور يقول "أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب" .

ديانات العرب فى الجاهلية :

كانت الديانة المنتشرة عامة فى الجزيرة العربية فى الجاهلية هى عبادة الأوثان على الصورة التى كانت مألوفة لدى سائر الشعوب السامية بالإضافة إلى الخصائص الخاصة التى ترتبط بالعرب والجزيرة العربية وأوجه التأثير الأخرى التى اقتسوها عن الشعوب المحاورة لهم .

كان للعرب كسائر عباد الأوثان من الشعوب القديمة نوعان من الآلهة : عائلى وقبلى ، يقول ابن الكلبي أنه كان لكل بيت من بيوت مكة صنم يعبد سكانه ، وكلما كان أحد الأفراد يود السفر كان آخر شىء يفعله قبل الرحيل أن يتمسح فى إلهه ، وكان ذلك أيضا أول ما يفعله عند عودته إلى داره ، وفى الطريق أيضا كان كلما ينزل فى أحد المنازل يجمع أربعة أحجار يراها أحمل من غيرها ويعتمرها إلهها ، ويتخذ من ثلاثة أحجار أخرى دعائمات لموقده ، ومع الرحيل يترك كل ذلك وراءه ليفعل نفس الشىء فى منزل

آخر⁽¹⁾، وكانت عبادة العرب للأحجار معروفة أيضا للإغريق، فيصرح بذلك كل من هيرودوت وكامان السكندري. وفي تفسير لهذه العقيدة، يقول مؤرخو العرب أن أهل مكة من فرط تعلقهم بحرم الكعبة ومكة كانوا في تنقلاتهم منها إلى أي مكان آخر يحملون معهم حجرا من مكة ينصبونه في مستقرهم الجديد ويطوفون حوله، وكانوا يطلقون على هذه الأحجار اسم "الأصاب" في مقابل "الأصنام" التي كانت تطلق على التماثيل ذات الأشكال، وكانت الأصنام تصنع من الخشب والذهب والفضة والأوثان من الحجر⁽²⁾.

وكانت الآلهة، القبلية أصناماً تعبدتها قبيلة واحدة أو تشترك في عبادتها عدة قبائل، وكان لبعض هذه الآلهة عمومية كبيرة تشترك في تقديسها قبائل كثيرة، وكان لكل من هذه الآلهة معبد في مكان ما وبين القبائل لدى قبيلة بعينها، وكانت تقوم على خدمة (سدانة) هذا المعبد أسرة محددة من تلك القبائل وتتوارث هذه المهمة، وكان بعض هذه القبائل عبارة عن تماثيل منحوت مثل الإله "ود" الذي كان على هيئة رجل يرتدى رداء البدو ويحمل سيفاً وقوساً ورمحاً، وكان بعضها عبارة عن حجر طبيعي غير منحوت مثل "ذى شرى" صنم أبواب الطراء الذي كان على شكل حجر مربع الشكل، و"حلد" صنم حضر موت الذي كان عبارة عن قطعة من الحجر الأبيض تعلوه قطعة حجر سوداء على هيئة رأس آدمية، في حين كان بعضها مجرد صخرة في الصحراء يتوافد الناس إليها بغرض التعبد.

كانت عبادة هذه الآلهة، كما يتضح من الروايات، تنصب على أغراض الحياة الدنيا، فما يجمع عليه المؤرخون ويعبر عنه القرآن صراحة أن العرب لم يكونوا يعتقدون في الحياة الآخرة والحشر والنعت، فكان العرب يلتمسون الحماية والبركة في أعمالهم من هذه الآلهة ويسألون رضاها عن طريق القرابين والهدايا، وكانوا في إقدامهم على عمل من الأعمال وخاصة الأعمال الهامة من سفر وحرب وتحديد النسب يستشيرونها ويستشيرونها، وكانوا يعدون عدة عيdan من الخشب كتب عليها كلمات منظومة تدل على الأمر والنهي ويصعوبها أمام الصنم، وكانوا يطلقون على هذه العيdan اسم "الأزلام" وكان تقليد

(1) الأصنام، 32 - 33، لمزيد من المعلومات عن الآلهة العائلية، انظر كتاب "الحصارة القديمة"

لغوستل دو كولايح .

(2) الأصنام، 53

العبادة بالقرايين والطراف والتمسح بالصنم قائما ، وكان لحم الأضحية يوزع على الحاضرين ويمسحون وجه الصنم بدمها . وفى خبر عن المنذر بن ماء السماء الملك اللخمى ورد ذكر أضحية آدمية ، ويبدو أنه كانت ثمة مواسم محددة فى كل سنة للتعبد العام . يقول ابن الكلبي أن الأوس والخزرج كانوا يحلقون رؤوسهم فى وقت الحج إلى مناة ⁽¹⁾ ، وكان لبعض الأصنام بيت وبناء على هيئة معبد ومن بينها اللات بالطائف ، وتحت أقدام الصنم كانت ثمة حفرة تجمع فيها النذور ، فكان الناس يهدون جزءا للأصنام من قطعانهم ومحاصيلهم الزراعية ، يقول ابن الكلبي عن " فلس " صنم قبيلة طيء أن معبده كان مفتوحا حتى للصوص ⁽²⁾ .

ويذكر القرآن أسماء عدد من أصنام العرب التى ورد ذكرها فى الروايات والأشعار العربية، كما تم الكشف عن عدد من النقوش . وكان بعض من هذه الأوثان مشتركا بين عرب الشمال وعرب الجنوب بينما كان بعض آخر منها يخص أحدهما دون الآخر ؛ ففي شمال الجزيرة كانت اللات ومناة وعزى وهبل أشهر هذه الآلهة ، فكانت اللات تعد الإله الرئيسى لطائفة بنى ثقيف (بالطائف) وكانت مناة إله كل من الأوس والخزرج (بالمدينة) وعزى الإلهة الأولى لقريش وبعض الطوائف الأخرى ، وكانت لقريش بالإضافة إلى عزى التى كان مقرها ببيت نخل خارج مكة ، آلهة أخرى فى مكة فى داخل الكعبة وحولها ، وكان أكثرها هبل إلا أن ذكره لم يرد بالقرآن ، وكان إساف ونائلة من آلهة مكة وكانا عبارة عن قطعتى حجر فى منطقة زمزم ، وكانت قريش تقدم لهما القرابين .

ويورد القرآن أسماء خمسة أصنام لأنباء نوح ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، ويبدو أن هذه الأصنام كان يعبدها عرب الجنوب، فى حين أنها لم تكن - حسب قول ابن الكلبي - تحظى بأية قدسية لدى عرب الشمال ⁽³⁾ . وورد فى نقوش جنوب الجزيرة وشمالها على السواء ذكر لأسماء أصنام ومعلومات عن المعابد والكهنة والكاهنات، وكانت فى دول

(1) الأصنام ، 14 .

(2) الأصنام ، 49 ، صبط القاموس والجمهرة كلمة " فلس " بكسر أولها وسكون ثانيها فى حين

ضبطها آخرون بصور أخرى

(3) الأصنام ، 27 .

الجنوب عدة آلهة مشتركة بين الجميع وعدة آلهة أخرى خاصة بكل من هذه الدول : فمن الآلهة المشتركة شمس وعشتار وهو نفس الإله عشتروت (استرته اليبلى) . وقد ورد فى نقوش الصفا اسم اللات مرارا ويعدده العزى واللاه ، وأسماء أخرى مثل رضا ، جد عويد ("جد" بمعنى " حظ " ، و " عويد " اسم طائفة من الناس) وشمس ورحام وشيع القوم ، وكانت هذه آلهة الصفا⁽¹⁾ ، ثم اتخذوا بعد ذلك من آلهة الشام " بعل سمين " و " ذى شرى " آلهة لهم .

وتضم آثار الجنوب عددا من الأسماء الشخصية المركبة مع لفظ " إيلو " (" إيل " فى العبرية " واله " فى العربية) مثل " إيلى ضرع " و " إيلى عز " و " إيلى سمع " ، ومن هنا يعتقد أنهم كانوا يعتقدون فى إله أعلى ، وكانوا أحيانا يستدلون بلفظ " إيلو " لفظ " أبو " أو " عم " وهما لفظان يطلقان على الإله بصورة مطلقة ، وتلاحظ كلمة " سمهو " (اسمه) تسبق بعض الأسماء الخاصة ويبدو أن اسم الذات كان لا يتم التصريح به على طريقة اليهود ، كما كان عرب الشمال يتخذون من أسماء الآلهة جزءا من الأسماء الشخصية مثل " عبد العزى " و " تيم اللات " وما إلى ذلك من أسماء .

يقول المؤرخون الإسلاميون إن العرب كانوا فى الأزمان الغابرة مسلمين حنفاء أى على دين إبراهيم ، ثم ألف المهاجرون الذين كانوا يخرجون من مكة عبادة الأوثان بالصورة التى سبق شرحها ، ثم حدث أن أتى عمرو بن لحي الخزاعى الذى تولى إمارة مكة بعد الجرهميين بالأوثان إلى مكة لأول مرة (تلك الأصنام الخمسة السابقة الذكر) ودعا الناس لعبادتها وأدى إلى هجر دين إبراهيم وإسماعيل ، وفى إحدى الروايات أن عمرو بن لحي أتى بهذه الأصنام فى رحلة للشام بقصد العلاج ، وتشير رواية أخرى إلى أن هذه الأصنام كانت مدفونة تحت الأرض بتهامة فى زمن الطوفان فأخرجها عمرو بن لحي بوحي من الجن .

ويبدو أن الإيمان "بالله" أيضا كان فى مكة ، فقد ورد فى القرآن على لسان المشركين

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلُمًا) ، (هؤلاء سفهاءنا عند الله)

، ويقول مؤرخو العرب أن كنانة وقريشا كانتا ترددان فى وقت الإهلال (من مراسمالحج) قائلين :

(1) انظر " الأصنام " لأحمد ركنى باشا .

الإهلال (من مراسم الحج) قائلتين :

" لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك ، الا شريك هو لك ، تملكه وما ملك " (1) ، ويقول ابن الكلبي أن اللات ومناة وعزى كان العرب يطلقون عليها "بنات الله" ويعتبرونها شقيقة لهم عنده (2) ، وهو ما ألمح إليه القرآن .

كان العرب لا يؤمنون بالحشر والبعث كما سبق أن ذكرنا ، وفيما يتعلق بروح الميت كانوا يعتقدون أن الجن والشياطين تسكن الأصنام ويؤمنون بأن ثمة أصوات تصدر أحيانا عن الأصنام .

ولكن عند ظهور الإسلام كان بمكة عدد محدود من الناس يتفرون من عبادة الأوثان وديانات العامة وكانوا يؤمنون بالتوحيد وينتظرون ظهور نبي ، وكان منهم من يتباحث في شئون الدين مع رهبان النصارى وأخبار اليهود . ويطلق المؤرخون على هؤلاء اسم "الحنفاء" ويقولون بأنهم كانوا يؤمنون بدين إبراهيم . وفيما يتعلق بأجداد النبي ، يتفق العلماء والأئمة على أنهم كانوا جميعا من الموحدين ولم تصممهم وصمة الشرك .

وينبغي أن نؤكد على أن هاتين الديانتين الساميتين - أى اليهودية والمسيحية - اللتين كانتا تنتشران في المناطق المحاذرة للجزيرة العربية بل وفي داخلها كان لهما نفوذ كبير في هذه الأراضى في أواخر العصر الجاهلي وخاصة المسيحية التي كان لها مركز هام للغاية في الجزيرة العربية وهو نجران ، وكانت طوائف بنى حنيفة في اليمامة والعساسة في الشمال الغربى واللخميين في الشمال الشرقى وقسم من بنى طيء في التيماء وتعتنق الديانة المسيحية ، وكانت الدولتان المسيحيتان المحاورتان ، وهما الدولة البيزنطية ودولة الحبشة ، تعملان بجهد شديد على نشر هذه الديانة في الجزيرة ، كما سبق أن رأينا .

وكان اليهود يمثلون عنصرا هاما في الجزيرة العربية، فكان تعدادهم في المدينة كبيرا، وكانت التجارة والصناعة في أيديهم، وربما كان العرب الذين نزحوا إلى المدينة بعد اليهود أى الأوس والخزرج لا يزيدون من الناحية العددية على اليهود (3) . وبالإضافة إلى المدينة،

(1) سيرة ابن هشام ، ج 1 ، ص 77 ، " الأصنام " ، 7 .

(2) انظر " الأصنام " 19 - وردت هذه النقطة أيضا في كتب أخرى .

(3) L' Islam, P 9

كانت الواحات الكائنة بوادي القرى تحت يد اليهود الذين كانوا يعملون بالزراعة حيث لم يكن العرب يميلون إلى الاشتغال بها ، وكانت ثمة مستوطنة يهودية في الطائف أيضا في بدء الإسلام ، أما في مكة فكان وجود التحار اليهود عابرا ، وكانوا قد رسخوا دعائم ديانتهم في اليمن أيضا كما رأينا ، وكان الملك الحميري ذو نواس يعتنق الديانة اليهودية ويعمل على نشرها ، وكان لليهود في الجزيرة العربية كنيس وحاخام ومدرسة وكانوا يقيمون كل الشعائر الدينية ، وكانوا يعتبرون أنفسهم أرقى من العرب " الأميين " ، وكان العرب أنفسهم ينظرون إليهم من هذه الزاوية وكانوا ينصتون لكهانهم وعلمائهم ، وقد ورد في التاريخ ذكر لبعض العرب المتهودين .

ويقال أن الجزيرة العربية كانت تضم أيضا بعض الصابئة ⁽¹⁾ ممن كانوا يقدسون النجوم ، وكان بعض من أصنام العرب ، التي كانت على ما يبدو مأخوذة من البابليين ، يرتبط بالأجرام الفلكية مثل الشمس وعشتروت (الزهرة) : وهناك ما يؤيد هذه الفكرة في كتاب أيوب ، ويؤكد موبر أن القرايين كانت تقدم للبحوم في اليمن حتى القرن الرابع ⁽²⁾ ، ويقال أيضا أن الديانتين الرد شتية والمأنوية كانتا معروفتين في الجزيرة العربية بين أفراد قبيلة بني تميم وأن عددا منهم كان يعرف اسما بكل منهما وقد رأينا فيما سبق أن الملك الكندي الحارث بن عمرو كان قد اعتنق المزدكية ، إلا أن صحة هذه الأحبار لا تعد أمرا مؤكدا . وعلى أي الأحوال ، فمن المستبعد أن يكون هناك أي وجود لهذه الديانات في الجزيرة العربية * .

(1) تطلق كلمة " صابئ " على عابد النجوم بصورة مطلقة ، إلا أنها كانت على ما يبدو إسما لفرقة ما من الناس ، لمزيد من التفاصيل انظر The Foreign Vocabulary of the Quran ، تأليف حمدي Muir ، The Life of Mohammad (2)

* لا أدري إذا كان المؤلف بتصريحه هذا يقصد إلى شيء من العصرية أم إلى ربط كل ديانة بعصر بشري محدد ، فإن كان يرمى إلى اعتبار العصر الآري أرقى من العلم أن العرس القدامى كانوا يقدسون النار وما من شيء يبرهم عن عرب الجاهلية من عبدة الأحجار ، كما أنها لا تستطيع القول بقصر دين من الأديان على حسن بشري معين ، فالمسححة دين سامي ، كما ذكر المؤلف نفسه مد قليل ، سيما تدين بها معظم شعوب أوربا من عناصر حرمانية وآرية وسكسوية وغيرها ، (المترجم) .

الفصل الثانی

النبي في مكة

مكة وقريش

تقع مدينة مكة ضمن منطقة تهامة فى واد ضيق على شكل هلال بين جبلى أبى قيس وقعيقتعان، ويتميز مناخ هذا الوادى بالجفاف والحرارة العالية ، ويستمد ماءه من آبار تستجمع ماءها بدورها من أمطار الشتاء والربيع ؛ وهى أمطار تسقط أحيانا بصورة غزيرة ، فتتكون فى لحظات سيول ضخمة تتدفق من الجبلين المحيطين إلى قلب الوادى وتهدد المدينة بالدمار. لذا ، فقد أقام الأهالى مصدات للسيول من قديم الزمان فى الجبل بغرض حماية الكعبة التى تعرضت لأضرار السيول مرات عديدة ، وآثار هذه المصدات باقية حتى اليوم ، ويطلق اسم البطحاء على قاع الوادى حيث تقع الكعبة وحول الكعبة المسجد الحرام ثم تمتد بيوت الأهالى حتى سفوح الجبال .

ترجع أهمية هذه المدينة فى العهود القديمة إلى موقعها على الطريق التجارى الممتد من اليمن إلى الشام وفلسطين ومصر ، وقد زاد وجود الكعبة من أهمية المدينة حيث كانت فى الجاهلية مزارا ومطافا. لذا، نرى فى التاريخ أن مختلف الطوائف العربية كانت تتقاتل من أجل بسط السيطرة عليها منذ قديم الزمان ؛ ومن هذه الطوائف آل جرهم والخزاعيون وأخيرا قريش التى كانت تسط نفوذها على مكة بصورة مستقلة عند ظهور الإسلام .

حسب الروايات الإسلامية، بنى الكعبة إبراهيم وولده إسماعيل بناء على أمر من الله⁽¹⁾، فأقاما بناءها على أساس الكعبة القديم الذى كان قد وضعه شيث وأزاله طوفان نوح، وقد أمر إبراهيم بإقامة شعائر الحج طبقا لوصى آتاه مع حبريل، ثم عاد إبراهيم إلى فلسطين فى حين ظل إسماعيل بمكة قائما على نشر دين أبيه وعلى شئون الكعبة، وكذلك فعل أبناؤه إلى أن أتى آل حرهم من الجنوب، وفرضوا سيطرة م على الكعبة ثم تغلب بنو خزاعة الذين كانوا من المهاجرين القحطانيين أيضا على آل حرهم، وعلى أثر ذلك قام الملك الخزاعى عمرو بن لحي بالترويج لعبادة الأصنام فى مكة ، كما سبق أن ذكرنا. وبناء على أقوال معظم المؤرخين العرب كانت إدارة مواسم الحج فى منى وعرفات فى يد بطون من نسل إسماعيل وكانوا يتوارثونها حيلة بعد حيلة طوال عهود آل حرهم وخزاعة .

(1) لمزيد من التفاصيل انظر كتاب الحميس ، ج 1 ، ص 100.

تبدأ سلطة قريش منذ عهد قصي بن كلاب، ويقال أن قصيا كان صغيرا عندما توفي أبوه ، فتزوجت أمه من رجل من بني قضاة وأقامت معه في داره على مشارف الشام، وهناك بلغ قصي أشده ثم جاء إلى مكة وتزوج ابنة خليل بن حبشية ⁽¹⁾ آخر أمراء مكة من الخزاعيين ، وبعد وفاة والد زوجته التف حوله أقاربه من قريش واستمد العون من قبيلة قضاة ، وتغلب على الخزاعيين بقوة السيف وتولى إمارة مكة وأمسك بزمام أمور الكعبة في يده .

جمع قصي قبيلته قريش التي كانت حتى ذلك الوقت تقيم في الوديان والجبال المحيطة بالمدينة وأقرهم في الحى الذى يرغبه الجميع أى حول الكعبة وبنى لهم دار الندوة وجعل مهمة حمل مفاتيح الكعبة ورايتها والسقاية والرفادة فيهم ، وكانت الأحكام التي أقرها قصي موضع احترام وتنفيذ تام من جانب قريش، بل وكانت تشبه "تعاليم الدين" حسب قول ابن اسحق المؤرخ ، وعندما بلغ قصي سن الشيخوخة أسلم مقاليد الأمور لولده الأكبر عبدالدار وتوارث أبناء عبدالدار مقاليد الأمور من بعده، إلا أن أبناء عبد مناف (الولد الآخر لقصي) ثاروا وكانت هذه أول فرقة وانقسام بصيب قريش ، فجمع الطرفان حلفاءهما وأعدا العدة للحرب. ويروى أن أبناء عبدمناف وضعوا كأسا به طيب إلى جوار الكعبة وغمسوا أيديهم به كرمز للاتحاد بينهم ، ومسحوا به جدار الكعبة وكانت هذه المعاهدة تعرف باسم " حلف المطيبين " ، ولكن لم تنشب الحرب ، فقد عقد الطرفان وثيقة صلح على أن يتم تقسيم المناصب والمهام فيما بينهما ؛ وكان مفتاح الكعبة ورايتها وزعامة دار الندوة لبنى عبد الدار في حين تؤول السقاية والرفادة إلى بنى عبد مناف ، وكانت زعامة الطائفة الأخيرة لهاشم رعم وحود عبدشمس أخيه الأكبر، وفي تفسير أسباب ذلك يروى أن عبدشمس كان دائم الترحال ، كما أنه كان فقيرا مثقلا بأعباء العديد من الأنساء، في حين كان هاشم رحلا ذا قدرة .

كان هاشم وهو حد سلسلة بنى هاشم زعيم قريش في عصره ، وكان اسمه الأصلي عمرو واتخذ لقبه هذا عندما أصاب قومه القحط في أحد الأعوام فهشم الخبز بينهم ، اذ أن كلمة " هشم " تعنى التكسير والتفتيت ⁽²⁾، وكان هاشم طبقا لبعض الروايات هو

(1) ابن هشام ، ج 1، ص125، وهناك روايات أخرى في هذا الصدد ، انظر الطبرى ، ج 2 ، ص 182

(2) ابن هشام ، ج 1، ص 143 وهناك تفاصيل أخرى في " الروص الآف " لسهيل

الذى حدد لقريش رحلتى الشتاء والصيف ؛ فكانت رحلة الشتاء هى رحلة قوافل التجارة إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام وفلسطين ، ويروى أنه عقد اتفاقيات مع دولة الروم ومع أمراء الغساسنة بهدف تأمين وتسهيل عبور قوافله ويقال أيضا أن عبد شمس أخا هاشم عقد تحالفا مع ملك الحبشة وأن نوفل عقد حلفا مع ملك فارس وعقد مطلب حلفا مع ملك اليمن، وهكذا تم تنظيم تجارة قريش على يد أبناء عبد مناف .

ويروى أن أمية بن عبد شمس ابن أخى هاشم كان يكن ضغينة لعمه ، وكان يحاكى أعماله ، وذات يوم ثار على هاشم ووصل الأمر إلى محاكمته أمام كاهن خزاعى ، وصدر عليه الحكم ، ويمتضى الشرط الذى قبل به هاجر إلى الشام لمدة عشر سنوات ، وكانت هذه أول عداوة بين أسرتين من عبد مناف .

وتزوج هاشم بامرأة من طائفة بنى النجار فى رحلته إلى مدينة يثرب (المدينة) ، وكان له من هذه الزيجة ولد يسمى شيبة، وعاش هذا الطفل لدى أمه بالمدينة ، وتوفى هاشم فى رحلة أخرى إلى مدينة عرة بفلسطين ، وبعد هاشم تولى مطلب مهمة المناصب المتوارثة، وعندما علم بوحود ابن أخيه فى المدينة ذهب إليه وأتى به معه إلى مكة ويروى أنه حين ورد إلى مكة مع ابن أخيه تساءل الناس عمن يكون ، فكان عبدالمطلب يحيب " هذا عبدى " لذا فقد عرف شيبة بعد المطلب (1)

كان عبد المطلب من كبار رجال قريش وله تاريخ يزدهم بالأحداث ، وبعد وفاة عمه تولى المناصب المتوارثة، ومنذ البداية وقع الشقاق بينه وبين عمه الآخر نوفل ، وكان الوحيد من أعمامه الذى كان لا يزال حيا حول الأراضى التى آلت إليه بالإرث ، وكانت خاضعة لسيطرة نوفل فطلب العون من أقاربه من ناحية أمه بالمدينة فاضطر نوفل إلى التخلي عن الأرض ، لكنه ذهب إلى سى عبدشمس وأقسم معهم على بنى هاشم، فقام عبدالمطلب بدوره بحشد عدد من بنى خزاعة ، وعقد معهم حلفا داخل الكعبة ، وبهذا وقع الخلاف من حديد بين بنى أمية وبنى هاشم

ومن الوقائع الهامة فى حياة عبد المطلب حفر بئر زمزم ، ذلك البئر الذى تفخر به

(1) الطبرى ، ج 2 ، ص 177

زمن إسماعيل بمقتضى الروايات التاريخية ، وكان أساس الحياة فى مكة ، وكان قد ردم قبل عصر عبدالمطلب بعهود طويلة وطواه النسيان ، فصدر الأمر لعبد المطلب فى منامه بأن يعيد حفره ، وتبدى له مكانه الذى لم يكن عبدالمطلب ولاغيره يعرفونه ، فبدأ فى الحفر بمساعدة ولده الحارث الذى كان ابنه الوحيد إلى ذلك الوقت ، وبعد مدة من الحفر ظهر لهما كنز عبارة عن غزالتين من الذهب كان آل جرهم قد دفنوه هناك فى زمن نزوحهم ، كما عثروا على عدة سيوف ودروع فتنازعت قريش وعبدالمطلب على ملكية البشر الذى اعتبروه ملكا لجدهم إسماعيل ، ونازعوه فى الكنز أيضا ، واستقر الرأى على إجراء القرعة بينهم ، فكان الكنز من نصيب الكعبة والسيوف والدروع من نصيب عبدالمطلب فى حين لم يكن من نصيب قريش أى شىء فأهدى عبدالمطلب ما قسم له إلى الكعبة فصنع لها بابا من السيوف وأقام الغزالتين الذهبيتين بها ، وكانت هذه أول زينة ذهبية تقام بالكعبة (1) ، وبينما كانت قريش تنازع عبدالمطلب كان هو قد نذر الى الله أن يقدم واحدا من بنيه أضحية إن رزق بعشرة منهم ، فكان له ما تمنى ، فجمع بنيه ودخل الكعبة وأجرى القرعة بينهم ، وكان كل خوفه أن تأتى القرعة على اسم ولده عبدالله أصغر بنيه وأحبهم إلى قلبه إلا أن هذا ما حدث فأمسك عبدالمطلب يد ولده عبدالله دون تردد وأخذه والسكين فى يده إلى المذبح ليوفى نذره ، فحالت قريش وبنو عبدالمطلب بينه وبين ما أراد ، واستقر الرأى على إحراء القرعة بين الأضحية وبين دية الإنسان (وكانت فى ذلك الوقت عشرة من الإبل) وإذا أصابت القرعة الفداء ليزيدوا فى عدد الإبل ، وأحرقت القرعة إلى أن أصابت الإبل ، فقدم عبدالمطلب الدية وانتهى الأمر إلى مئة ناقة ، ومنذ ذلك الوقت صارت دية الانسان مئة من الإبل.

ثم اختار عبدالمطلب أمنة بنت وهب ، رئيس قبيلة بنى زهرة (من بطون قريش) ، زوجه لولده عبدالله ، ولكن بعد عدة أشهر توفى عبدالله بالمدينة فى إحدى رحلاته التجارية فى طريق العودة من الشام بصحة قائلة . فدفن بها وفى ذلك الوقت كان السبي فى بطن أمه .

ومن أحداث عصر عبدالمطلب أيضا قصة أصحاب الفيل التى ورد الحديث عنها فى

(1) ابن هشام ، ح 1 ، ص 139 والطبرى وغيرهما

الجزء الأول من هذا الكتاب، فمن المعروف أن أبرهة قام برد الإبل التي كان حنوده قد استولوا عليها لقريش احتراماً لمنزلة زعيم قريش وحرمة، ولما تعجب أبرهة من إحجام عبدالمطلب عن مطالبته بالرجوع عن الكعبة قال عبدالمطلب : " إن للبيت ربا يحميه " .

توفى عبدالمطلب ، طبقاً لرواية كتاب السيرة ، بعد ثمانى سنوات من حادثة الفيل⁽¹⁾ وانتقلت الزعامة والسلطة من بعده من بنى هاشم إلى بنى أمية ، حيث كان زعماء بنى أمية فى التجارة أشد ثراء ونفوذاً ، وفتح زمن عبدالمطلب زادت قريش ثراء من التجارة وحازت نفوذاً عظيماً فى مكة ، وزادتها حادثة الفيل علواً ، فكانوا يقولون : "نحن أبناء إبراهيم وأهل الحرم والحرمه وأولياء البيت وساكنو مكة وليس لأى من العرب مالنا من حق ومنزلة " وفى مراسم الحج كانت لهم امتيازات ولمن ينتسبون اليهم على سائر الحجاج وكان أصحاب هذه الامتيازات يقال لهم "حمس"⁽²⁾ وكان من هذه الامتيازات ترك الوقوف والإفاضة من عرفات حيث كانوا يقولون "نحن أهل الحرم ولا نحترم سوى الحرم" ، وفى حالة الإحرام كان من غير المسموح به لأهل الخمس طهى الكشك أو الطهى بالزيت أو استخدام الصوف فى صنع الحيام ، وقاموا بسن قانون يقضى بالأيحى لأى حاج أن يأكل طعاماً جاء من خارج الحرم ، وبأن يتم الحاج أول طواف له برداء يمنحه إياه الخمس ، وإن لم يجد الحاج مثل هذا الرداء كان عليه أن يطوف عارياً ، وبالنسبة للنساء أجازوا ارتداء قميص ، وطلت تعاليم الخمس سارية إلى ظهور الإسلام حيث تم إلغاؤها .

ميلاد النبى (ﷺ) وطغولنه :

ثمة خلاف بين أهل الحديث حول تاريخ مولد النبى ، فمن المتعارف عليه أنه كان فى عام الفيل يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول⁽³⁾ يرى هوار أنه نظراً لأن وفاة النبى قد حدثت فى عام 632 ميلادية حين كان فى الثالثة والستين من العمر فإن مولده كان فى حدود عام 570 ميلادية⁽⁴⁾ ويرى المؤرخون الأوربيون أن عام الفيل

(1) المتفق عليه أن وفاة عبدالمطلب كانت حين بلغ السىس الشامة ، ويرجع القول بأنه توفى فى العام الثامن بعد عام الفيل إلى اعتبار أن النبى (ﷺ) ولد فى عام الفيل . وفى ذلك خلاف يرد فى الفصل القادم .

(2) جمع " أحسن " أى شديد المراس فى الدين وفى الحرب .

(3) التفاصيل بكتاب الحميس ، ح 1 ، ص 221

(4) Histoire des Arabes , T I , P , 88

كان عام غزوة قام بها أبرهة بتحريض من الروم بهدف مهاجمة فارس من شمال الجزيرة العربية ، ولكنه عاد من منتصف الطريق ، وكانت هذه الواقعة فى أواسط القرن السادس الميلادى أى قبل مولد النبى بفترة من الزمن ، ومن ناحية أخرى يرى المؤرخ العربى الكلبي أن حادثة الفيل كانت قبل ميلاد النبى بثلاثة وعشرين عاما، إلا أن رأى الذى ذهب إليه البعض من أنها حدثت قبل مولد النبى بأربعين سنة لا يتفق مع الدلائل الموجودة (1)

وفى وقت مولد النبى، كما سبق القول ، كان والده عبدالله قد مات إلا أن جده عبدالمطلب كان لا يزال حيا، ويروى أنه احتضن حفيده الوليد وحمله إلى الكعبة ودعا له وأسماه محمدا، وعندما كانت عشيرته تتساءل عن السبب فى إعراضه عن أسماء الأجداد كان يجيب قائلا " أردت له أن يكون محمودا فى السماء والأرض " ، لكن ابن اسحاق وغيره يؤكدون أن أمه هى التى أسمته بهذا الاسم بناء على هاتف أتاها بذلك ، ثم ظلت آمنة ترضعه مدة ثلاثة أيام ، وبعد ذلك أرضعته ثوية أمة أبى لهب مدة أربعة أشهر ثم ظهرت حليلة وتعهدت بمهمة إرضاعه وكان من المألوف فى ذلك الوقت أن تأتى نساء البدو إلى المدينة لأخذ الرضع ، وكانت حليلة قد أتت مع نساء قبيلتها بنى سعد إلى مكة لهذا الغرض، ويروى أن أبا من هؤلاء النسوة لم تقبل أخذ محمد لأنه كان يتيما ، وكانت القابلات عادة ترمى إلى مايجود به أباء هؤلاء الرضع ، أما حليلة فقد اضطرت إلى قبول الطفل محمد بعد أن فشلت فى العثور على غيره ، فحملته إلى البادية وبعد عامين أى بعد فترة الرضاع أتت به إلى أمه وكان وجود الطفل محمد باعشا للخير والبركة فى دار مرضعته ، لذا لم ترد أن تبعده عنها وقالت لأمه : " إنى أخاف عليه من وباء مكة " ، وظلت تلح على أمه إلى أن وافقت فعادت به مرضعته إلى البادية .

ولكن بعد فترة (2) وقعت حادثة خافت على أثرها حليلة على الطفل ، فذات يوم كان محمد قد مضى مع ابن حليلة إلى الصحراء للرعى ، وفجأة جاء ولد حليلة يعدو

(1) تاريخ عربستان ، تقى زاده ، دوره 2 ، قسمت بنجم ، ص 9 - 10

(2) ثمة خلاف حول تاريخ هذه الحادثة فيقول ابن هشام أنها وقعت بعد عدة أشهر ويرى ابن سعد أنها حدثت وهو فى الرابعة ، فى حين يرى غيرهما أنها حدثت وهو فى الثالثة ، وفى بعض الروايات حدثت واقعة شق الصدر فى رمن البعثة .

قائلا إن رجلين يرتديان ثيابا بيضاء قد أتيا وأخذا محمدا فشقا صدره ، فهرعت حليلة إلى محمد فوجدته واقفا بوجه يشع نورا ، فأخذته إلى الدار ثم أعادته إلى أمه خشية أن يكون قد " مسه الجن " .

كان محمد فى سن السادسة حين أخذته أمه إلى المدينة لزيارة عشيرة أبيه أى قبيلة بنى النجار ، وفى طريق العودة من المدينة توفيت آمنة فى الأبواء ودفنت بها ، وعاد محمد إلى مكة بصحبة أم أيمن أمة أبيه التى كانت معهما فى رحلتها هذه ، ومنذ ذلك الحين آلت مهمة رعاية اليتيم إلى جده عبدالمطلب .

وبعد عامين ، أى عندما كان النبى صلى الله عليه وسلم فى الثامنة من عمره ، توفى عبدالمطلب فتكفل عمه أبو طالب بالعتاية به ، وذلك لأن أبا طالب كان شقيقا لعبدالله أبى محمد وكلاهما من أم واحدة ، ويقال إن عبدالمطلب أيضا أوصى أبا طالب بمحمد ورغم فقر أبى طالب وكثرة عياله خاصة وأن مكانة بنى هاشم كانت قد ضعفت فى ذلك الوقت إلا أن أبا طالب كان كريم النفس جوادا ، وكان يحب ابن أخيه محمدا وظل يرعاه بكل حبه وعطفه وظل على حبه له إلى آخر حياته .

ومن المعروف أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب إلى الشام وهو فى الثانية عشرة من عمره برفقة عمه أبى طالب، وفى البصرة تعرف راهب يسمى بحيرا على نبى المستقبل من سماته وملامحه، وهناك أيضا روايات تروى أنه كان فى شبابه يقوم برعى أغنام عشيرته فى جبال مكة، فى حين يروى البعض حرفة الرعى لديه ضمن وقائع سن العشرين⁽¹⁾ .

شباب النبى وبعثته :

من الأحداث التى وقعت فى عهد شباب النبى تلك الحرب التى نشبت بين قريش وهوازن والتى تعرف بحرب الفجار نظرا لنشوبها فى أحد الأشهر الحرم ، كانت قافلة فى طريقها من الحيرة إلى سوق عكاظ محملة بالمسك وفى الطريق اعترضها رجل من بنى كنانة (أصهار قريش) يسمى براص ، فقتل حارس القافلة الذى ينتمى إلى هوازن فى أثناء يومه وسرق البضائع ، فى ذلك الوقت كانت قريش وهوازن مجتمعتين بسوق عكاظ

(1) الخميس ، ح 1 ، ص 293

فوصل خبر الحادث الى قريش أولا ، فهرع رجالها إلى مكة على الفور ، وبعد حين علم رجال هوازن بما جرى فأسرعوا في أثر رجال قريش ، وبلغ القرشيون مكة ليلا بعد كروفر ، ولما كانت مكة أرضا حراما فقد عاد رجال هوازن أدراجهم ، وبعد فترة نشبت الحرب بين الطرفين عدة مرات ، وفي إحدى هذه المرات كان النبي حاضرا مع عشيرته طبقا لروايته هو صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾ ، واختلفت الروايات حول سن النبي في ذلك الوقت بين أربعة عشر عاما وخمسة عشر وعشرين .

وبعد فترة من حرب الفجار تم عقد حلف الفضول ، حيث شكلت قريش تحالفا بهدف صد العدوان على القبيلة وحماية الضعفاء من القهر ، وأقسم المتحالفون على حماية أي مظلوم سواء من أهل مكة أو من غير أهلها وعلى الثبات حتى يأخذوا للمظلوم حقه ، وكانت هذه المعاهدة تعرف بحلف الفضول ، ويروى عن سبب تسميتها بهذا الإسم أن آل جرهم القدامى كان بينهم حلف بمائل ، وكانت أسماء الأعضاء الذين أبرموه جميعها مشتقة من مادة " فضل " (فضل ، فضال ، مفضل ، فضيل) ، فأطلق أصحاب هذا الحلف هذا الإسم على حلفهم ، وقد تم عقد هذا التحالف بدار عبدالله بن جدعان الذي كان من أفاضل قريش ، وكان النبي ، حسب رواية له ، من شهود هذا الحلف المبارك ، وقد قال عنه : " لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب أن تكون لي به حمر النعم ولو دعى به في الإسلام لأجبت " .

وقد أطلع النبي قيس بن ساعدة عن سوق عكاظ وزيارته له ، ويبدو أن هذه الواقعة أيضا كانت قد حدثت في شباب النبي ، وفي سن الخامسة والعشرين التحق النبي بخدمة خديجة ، وهناك روايات مختلفة تقول بأن خديجة هي التي أرسلت في طلب محمد أو أن أبا طالب هو الذي عرفه بها . على أية حال ، فقد تقلت خديجة عمل محمد لديها برحابة صدر ، وكانت تؤجره ضعف أحر الآخرين لأنها كانت قد سمعت عن مدى صدقه وأمانته .

كانت خديجة ابنة خويلد من أشرف قريش وكان لها مال من التجارة كسائر أفراد قريش ، فخرج محمد صلى الله عليه وسلم إلى الشام بقافلة خديجة يرافقه ميسرة

(1) ابن هشام والطبري .

(2) ابن هشام ، ح 1 ، ص 125 .

غلامها، ويروى أنه كان يرى له فى الطريق كرامات وخوارق العادات وتعرف إليه راهب آخر وأنبا ميسرة عما ينتظره ، وبعد العودة أنبا ميسرة خديجة بماعرف ، فعرضت خديجة عليه الزواج بها ، فذهب محمد صلى الله عليه وسلم برفقة عمه حمزة إلى خويلد لخطبتها ، وتم الزواج ويرى الواقدي أن عم خديجة عمرو بن أسد هو الذى زوجها إياه إذ كان والدها حسب ما يرى الواقدي كان قد مات قبل ذلك بسنوات. وبناء على هذا ، فإن الروايات التى تقول بأن خويلد لم يكن راضيا عن زواجهما تعد مغلوطة (1) .

كان النبى فى الخامسة والعشرين من عمره حين تزوج ، وكانت خديجة بين الأربعين والخامسة والأربعين ، وكانت خديجة قد تزوجت مرتين ، ومات عنها زوجها ، ولها منها ولد وبنتان يعدا ريبى ، النبى ومنذ زواجهما انتقل النسي للإقامة فى دار خديجة ، وكان يكن لها كل محبة واحترام حتى أنه لم يتخذ زوجة أخرى معها طوال حياتها ، وأنجبت له ثلاثة بنين ماتوا جميعا قبل زمن بعثته وأربع سنوات .

لم يذكر التاريخ أية واقعة منذ زواج النبى (ﷺ) وبعده بعشر سنوات ، وفى العام العاشر أى حين كان فى الخامسة والثلاثين من عمره ، بدأ موضوع ترميم الكعبة ، وكانت قريش قد فكرت فى تحديد بناء الكعبة ، إذ كان بناؤها القائم والذى بناه قصى عبارة عن ثلاثة جدران قصيرة بلاسقف ، وحدث أن سطى اللصوص مرات عديدة على أموال النذور من داخلها ، ويروى أيضا أن النار اشتعلت فى ستار الكعبة من محمرة امرأة أوقدت نارا فاحترق البيت ، ويقال أيضا أنها إهدمت من جراء سيل حارف . على أى الأحوال ، فقد أزال قريش البناء القديم فى تلك السنة ، وأقامت بدلا منه بيتا أكثر علوا يكسوه الخشب ، ويروى أن إحدى السفن التجارية الرومية كانت قد تحطمت عند جدة فى ذلك الوقت ، فأخذت قريش أحشائها وست به سقف الكعبة على يد لحجار قبضى (2) .

وقامت مختلف عشائر قريش بتقسيم عملية البناء فيما بينها ، فتعهدت كل عشيرة بإنشاء أحد الأضلاع ، وشيئا فشيئا بلغ البناء مرحلة يبغى عندها وضع الحجر الأسود ووقع الخلاف بين العشائر من حديد حول وضعه والعشيرة الأولى بهذا الشرف ، فتعطل

(1) الطبرى ، ج 2 ، ص 197

(2) الحميسر ، سطى

البناء ووصل الأمر إلى درجة النزاع ، بل وأنت قبيلة بيتي عبيد الدار يوعاء هم التحالف وغمسوا فيه أيديهم ، فعرفوا منذ ذلك اليوم بالسلم للعفة اللهم " ، وفي النهاية اقترح أبو أمية الذي كان كبير قومه أن يرضخوا لما يراه أول من يدخل المسجد ، وحدث أن كان أول الواردين محمداً (ﷺ) فارتضت قريش حكمه ، إذ كانوا يعرقونه بالأميين معني ولقبا ، فأمر النبي (ﷺ) بأن يأتوا برداء فوضع الحجر فيه يسلييه ، وأمسكت كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء وحملوه إلى قاعة البيتاء ثم رقع النبي الحجر يسلييه وأقامه في مكانه ، وفي نفس عام بناء الكعبة ولدت قاطمة بنت النبي .

وبعد فترة قصيرة من بناء الكعبة شهدت مكة جنائزا وقحطاً فأرسل النبي أن يمد يد العون لعنه أبي طالب من خلال كفالته لأحد بيتيه ، كما حدث عنده الآخر العباس وكان رجلاً ذا مال على أن يفعل نفس الشيء فذهبوا معاً إلى أبي طالب ، وأخذ النبي علياً رضي الله عنه ، في حين أخذ العباس جعفر ، وكان علي في الخامسة أو السادسة من عمره آنذاك .

وفي ذلك الوقت ، كان هناك شخص آخر يعيش في رعاية النبي (ﷺ) وورد ذكره في التاريخ مراراً فيما بعد وهو زيد بن حارثة ، كان زيد من البوين على اللذين المسيحي يعيشان على مشارف الشام وكان قد وقع أسيراً في يد بعض قطاع الطرق في طفولته ، وبيع في سوق مكة لرجل من أهل خديجة يسمى حكيم ، وحين تزوج النبي من خديجة أعطى حكيم زيدا لخديجة ، ولما كان زيد غلاماً تشيطاً تلبسها فقد حظى بحب النبي قوهيته خديجة إياه وبعد فترة جاء أبو زيد يبحث عنه فوجده عند النبي ، فصرح النبي لزيد بأن يمضي بصحبة أبيه ، إلا أن زيدا فضل البقاء مع النبي ، لذا فقد قيل النبي تتيه بالاضافة إلى منحه حريته ، وأعلن هذا النبي عند الحجر الأسود على عادة أهل مكة ومن ذلك الوقت سمي زيدا بن محمد ، وزوجه النبي بامرأتين قريش وهى زينب بنت جحش .

ورد في روايات عديدة أن النبي ﷺ كان يرى رؤى صادقة قبل البعثة وتزول جبريل عليه بفترة طويلة ، وعندما كان يسير في وديان مكة كانت الأحجار والأشجار تتحدث إليه وتسلم عليه صلى الله عليه وسلم ، وكان ميالاً للتزواء والخلو بنفسه ، فكان يذهب

إلى غار حراء (1) مدة شهر من كل سنة (شهر رمضان فى بعض الروايات) حيث يعتكف ويتأمل ويطعم المساكين ، وكان هذا الإعتكاف من عادات قريش ، ويطلق عليه اسم " التحنث " ، وعندما اقتربت سنة البعثة تنزل جبريل على النبي ﷺ فى غار حراء وأوحى له بأول سورة من سور القرآن ، وكانت واقعة شرح الصدر التى سبق ذكرها طبقا لبعض الروايات من أحداث ذلك الوقت، وكانت المدة التى استغرقتها هذه الأحوال قبل البعثة ثلاث سنوات فى بعض الروايات، وستة أشهر فى روايات أخرى (2).

البعثة والدعوة والهدى إلى الحبشة :

فيما يتعلق بأول جزء نزل من القرآن ، فمن المتفق عليه أنه كان سورة اقرأ التى أتى بها جبريل على صحيفة من الأرض فى غار حراء إلى النبى (ﷺ) ، وقرأها النبى ولكن فى رواية عن حابر بن عبد الله (3) أن النبى قال : « كنت معتكفا فى غار حراء وبعد ختم الاعتكاف هبطت إلى الوادى ، وماكدت أبلعه حتى سمعت نداء ، فنظرت بينة ويسرة وأمامى وورائى فلم أر شيئا وعندما نظرت فوق رأسى رأيت جالسا على مقعد بين السماء والأرض ، فارتعدت وهرعت إلى حديعة وقلت دثرونى وصبوا على ماء ، ثم نزلت على هذه السورة . ﴿ يٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ۚ ۞ ﴾ .

ومن المعروف أن البعثة كانت فى العام الأربعين من عمر النبى (ﷺ) ، وهناك من يؤكد أنها كانت فى سن الساعة والثلاثين أو الحادية والأربعين ، إلا أنه قول ضعيف، وثمة خلاف أيضا حول شهر البعثة فقيل رمضان ، وقيل فى رجب وفى ربيع الأول ، إلا أن المسلمين اليوم يعتبرونها فى السابع والعشرين من رجب وهو ما عليه

(1) حراء بالكسر والتخفيف والمد ، جبل من حبال مكة على ثلاثة أميال ، معجم البلدان .

(2) ذكرت رواية الثلاث سنوات فى كتاب المقاتل لابن شهر آشوب عن الشعبى وابن عامر، ورواية

الستة أشهر فى كتاب الحمير (ج 1 ، ص 317)

(3) الطبرى ، ج 2 ، ص 208

الإجماع (1) ، وأراد البعض الجمع بين الروایتین بالقول بأن الوحي قبل رمضان كان في أثناء النوم وفي رمضان في اليقظة (2) .

وتتفق الروایات على أن الوحي انقطع فترة بعد الوحي الأول، ولاعلم بمدة هذا الإنقطاع ولأسبابه ، يقول ابن اسحق إن النبي (ﷺ) حزن حزنا شديدا لانقطاع الوحي إلى أن عاد جبريل بسورة الضحى التي تشير الآية ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾

بها الى هذا الانقطاع ، وقد أورد الطبري وآخرون خبرا عن تجدد الوحي ضمن أخبار أخرى على لسان النبي نفسه : " كنت سائرا وإذا بي أرى نفس الملك الذي رأيته في غار حراء جالسا على مقعد بين السماء والأرض فأسرعت خائفا إلى خديجة وقلت زملوني زملوني (وفي روايات أخرى دثروني) ثم غطوني وصبوا على الماء ، ونزلت على سورة (يَأَيُّهَا الْمَدَّثِرُ) (3) ويمتازة هذا الخبر بالخبر الذي ذكره جابر

وأوردناه في أول هذا الباب يمكن استنتاج أن سورة المدثر كانت أول سورة نزلت من القرآن بعد فترة انقطاع الوحي وأن أول وحي كان بسورة اقرأ وهو المتفق عليه .

وفي سورة المدثر صدر الأمر إلى النبي (ﷺ) بالدعوة في قوله تعالى (قُمْ فَأَنذِرْ)

وبعد هذه السورة استمر نزول الوحي متصلا ، أما عن كيفية نزوله فقد ورد أنه كان أحيانا حالة تشبه الإغماء تطرأ على النبي ، فيتصبب عرقا ويثقل حسمه ، وعن النبي أنه قال : " يأتيني مثل صلصلة الجرس " وفي بعض الأحيان كان يتنزل عليه بدون هذه الحالة ، فكان النبي (ﷺ) يقول في حالته العادية " هذا جبريل يأمرني " ، وروى الإمام جعفر الصادق أن حالة الإغماء كانت تحدث عندما كان الوحي يتنزل عليه بصورة مباشرة دون توسط جبريل ، أما في الحالة العادية فكانت حين يأتي جبريل بالرسالة (4)

(1) معارج ، ج 6 ، ص 447 .

(2) الحميس ، ج 1 ، ص 316

(3) الطبري ، ج 2 ، ص 208

(4) معارج ، ج 6 ، ص 471 .

كانت الدعوة في البداية تتسم بالسرية ، وتقتصر على أهل البيت ، وكان موضوع الدعوة الإقرار بالتوحيد والتبرؤ من الأوثان ، وكانت أول فريضة فرضت هي الصلاة ، وكانت كل الصلوات في ذلك الوقت في ركعتين ، ومن المتفق عليه أن خديجة كانت أول من آمن بالدعوة ، وكان ثاني من أعلن إيمانه بالدعوة وأول رجل هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه حسب أشهر الروايات وأدقها وتلاه زيد بن حارثة ، وكان أبو بكر كما يقول ابن اسحاق رابع من آمنوا بالإسلام ، وبإيمانه بالإسلام خرجت الدعوة من بيت النبي الى خارجه ، كان أبو بكر من قريش وكان يعمل بالتجارة وكانت له مكانته بين قومه وكان حسن العشرة ومطلعا على أنساب قريش وتواريخ أهلها ، وكان الناس يترددون على داره ، وبدعوته دخل الإسلام أربعة من كبار القوم وهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، وهم من أطلق عليهم اسم السابقين ، ويعددهم اتجهت أعداد المؤمنين إلى الازدياد ، ولكن في الخفاء ، وكان النبي (ﷺ) يؤم أتباعه في الصلاة خفية في وديان مكة

وبعد ثلاث سنوات أوشك عهد إعلان الدعوة على الملأ من بدايته نزول آية ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ وآية ﴿ وَأَذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فاعتلى النسي (ﷺ) يوما تل الصفا وصاح (يا صاحاه) ، وكانت هذه صيحة تطلق عادة في لحظة الخطر لكي يحتشد الناس لمعرفة الخبر عما أطلقها ، فاحتشدت قريش ، فأنذرهم النبي (ﷺ) من العذاب الذي ينتظرهم ، فقال له أبو لهب " تا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ " ، فتفرق الناس ، ونزلت آية ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .

ودات يوم آخر دعا النسي (ﷺ) أقاربه من نسي عبدالمطلب إلى داره ، وقدم لهم الطعام ثم دعاهم للإسلام ، وذكر لهم ما يعود عليهم من وائد دنيوية وأخروية من ذلك ، واشترط على كل من يبايعه أن يكون له أبا وصاحباً ووارثاً ، إلا أن أيا منهم لم يجبه سوى علي رضي الله عنه ، وبهذا ووجهت الدعوة إلى الإسلام بالرفض من جانب أشراف مكة ، أما في الطبقات الدنيا فقد أبدى الناس اهتماماً تدريجياً بها ، وكان من بين السابقين إلى الإيمان بالدعوة عدد من عبيد مكة ومستضعفيها ومن بينهم عمار بن ياسر وصهيب وبلال ويسار وحر وأبو فكيهة وعدد من الإماء كذلك (1) .

(1) انظر ابن هشام ، ح 1 ، ص 339

كان النبي في ذلك الوقت قد استقر بدار الأرقم واتخذ منها مركزا للدعوة ومقرا لتجمع أتباعه، وهذه الدار لاتزال قائمة بمكة إلى جوار تل الصفا وتسمى دار الخيرزان (1).

ويروى أن النبي كان يقضى النهار بهذا المكان وكان الذين سبقوا إلى الإسلام يأتون بأشخاص جدد ليستمعوا لأحاديث الرسول والآيات القرآنية المنزلة ، ويذكر المؤرخون عددا ممن اعتنقوا الدين الجديد بدار الأرقم ، ومن بينهم عمار بن ياسر وعمر بن الخطاب وأعمامه الأربعة .

ولم يتوقف الرسول (ﷺ) عن دعوته لزعماء قريش، وتدل قصة ابن مكتوم التي تشير إليها آية الأعمى على مدى اهتمام الرسول بقريش ، وتبين أنه كان يتبع العطف والمودة مع أتباع دعوته ، وكان سلوك قريش تجاه النبي (ﷺ) يبدو متعقلا في بادئ الأمر ، فكان موقفهم لايزيد عن الإهمال والإنكار (2) ، وما أن يرد حديث يذكر الأوثان والأجداد بسوء كان القوم يثرون ويبادرون بالعداء ، ولما كان النبي (ﷺ) يعيش في حماية أبي طالب فلحأوا بالشكوى إليه قائلين " إن ابن أخيك يذكركنا بسوء ويقبح ديننا ويعتبرنا سفهاء ويعتبر آباءنا من الضالين " ، وكانوا يطالبون أبا طالب إما بنهي ابن أخيه عما يفعل أو بإطلاق يدهم يفعلون به ما يشاءون ، فبدأ أبو طالب من ثورة القوم بحديثه إليهم ، إلا أن النبي كان شديد الانشغال بالدعوة ، فلجأ القوم مرة أخرى إلى أبي طالب يطالبونه بنهي ابن أخيه عن سب الآلهة في مقابل أن يدعوه لإلهه ، فاستدعى أبو طالب النبي وقص عليه ما كان من قومه ، فأحجم النبي (ﷺ) عن مهادنتهم ، وعاد إلى دعوته إلى التوحيد ، فمضى القوم بثورتهم ومضى النبي بوعد من أبي طالب بالتأييد والعون .

وعندما علمت قريش أن أبا طالب ماكان ليخلى بينهم وبين النبي بأسوا من التعرض له ووجهوا حملتهم إلى أتباعه فكانوا يجبرون من ينتسب إلى إحدى القبائل منهم على احترام عادات قبيلته بإيذائه ، وكان أذاهم أفدح بالنسبة للعبيد والغرباء الذين لم يكن لهم

(1) الرحلة الحجازية ص 37 .

(2) في الظري (ج 2 ، ص 218) " لم يعد منه قومه ولم يردوا عليه بعض الرد " .

من يحميهم ، فرحل قوم كثيرون عن مكة ، وأخفى آخرون إيمانهم ولم يبق منهم سوى عدد قليل ، وظل النبي (ﷺ) يعيش في حمى أبي طالب ، وانحاز بنو هاشم وبنو عبدالمطلب باستثناء أبي لهب إلى موقف أبي طالب ، وبهذا انقسمت قريش إلى فريقين فريق يحمي النبي (ﷺ) وفريق يناصبونه العدا .

أمر النبي أتباعه الذين بقوا معه بلحماية بالهجرة إلى الحبشة فرارا بحياتهم ، وقال لهم : " إن بها ملكا لا يظلم لديه أحد ، وهى أرض صدق فامضوا إليها إلى أن يفتح الله عليكم وينجيكم من الضيق " ، وجدير بالذكر أن الأحباش كانوا فى ذلك الوقت يعتنقون المسيحية وكانوا أشد تحصرا من العرب ، كما كان لأهل مكة معرفة قديمة بهم وكانوا يترددون عليهم ويتعاملون معهم فى التجارة .

قسوة قريش :

بينما كان مهاجرو الحبشة يعيشون فى أمان فى حمى النجاشى سمعوا ذات يوم أن الصلح قد عقد بين النبي (ﷺ) وقريش وأن أهل مكة تحولوا إلى الإسلام ، فعاد عدد منهم إلى مكة ، وعلى مشارف مكة علموا أن العداوة لا تزال قائمة على حالها ، فلم يستطع أى منهم أن يدخل مكة إلا فى حمى أحد ذوى النفوذ أو خفية ، وكانت هذه العودة بعد شهرين تقريبا من الهجرة (إلى الحبشة) ، وعادت الضغوط إلى الإزدیاد من جديد ، فأرسل النبي (ﷺ) المستضعفين من الصحابة مرة أخرى إلى الحبشة وكانت هذه هى الهجرة الثانية ، ولم يعد هؤلاء المهاجرون إلى الجزيرة العربية إلا بعد هجرة النبي إلى المدينة .

وفى هذا الوقت أى فى العام السادس بعد البعثة . خل الإسلام اثنان من صفوة قريش ، وتحولهما إلى الإسلام استمد هذا الدين الجديد قوة جديدة وقويت شوكه أتباعه نسبيا ، وكان أحدهما حمزة بن عبدالمطلب والآخر عمر بن الخطاب ، فقام حمزة بضرب أبى جهل فى المسجد الحرام فى حضور قريش بعرض حماية النبي (ﷺ) ، فلم يتعرض له أحد . وفى أواخر هذا العام السادس استبد العصب بقريش من سلوك أبى طالب فى حمايته للنبي (ﷺ) ، فعقدوا فيما بينهم حلفا يقضى ألا يتزوجوا أو يمارسوا التجارة مع أسرة بنى هاشم وبنى عبدالمطلب من بعد ، ودوبوا هذا الحلف على صحيفة علقوها

بدأخل الكعبة ، وعلى الجانب الآخر احتشد بنو هاشم وبنو عبدالمطلب باستثناء أبي لهب حول أبي طالب واستقروا جميعا بصحبة النبي وخديجة في شعب أبي طالب (1) للحفاظ على أرواحهم (في الشهر الأول من العام السابع بعد البعثة) ، فلم يدخل الشعب أحد ولاكان أحد منهم يغادره إلا في موسم الحج ، وقد استمر الحال على هذا عامين أو ثلاثة أعوام ، واشتد الأمر بساكني الشعب الى أن تعاطف عدد من المعارضين معهم ، وأخذوا يتحدثون عن محنة بنى هاشم على الملأ في المسجد الحرام ، وقاموا بنزع الصحيفة من الكعبة وقد أكلها النمل ، وتوقف الحصار في أوائل العام العاشر بعد البعثة .

وبعد شهر من الخروج من الشعب وقعت حادثتان أليمتان للنبي (ﷺ) وهما وفاة خديجة وأبي طالب بفاصل زمني بينهما (بين ثلاثة أيام وعدة أشهر على اختلاف الروايات) ، وكانت خديجة حين الموت في الخامسة والستين من عمرها عاشت منهم ماين عشرين وخمسة وعشرين عاما في بيت النبي (2) ، وكان أبو طالب قد تجاوز الثمانين .

وبعد وفاة خديجة تزوج النبي (ﷺ) سودة التي كان قد توفى عنها زوجها سكران بن عمرو الذي كان من مهاجري الحبشة ، وبعد فترة تزوج عائشة بنت أبي بكر ، ويروى عن النبي أنه قال : " مانالت مني قریش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " ، لذا فقد اعتكف في داره بعد وفاة أبي طالب ، وكان نادرا مايعادرها ، وفي ذلك الوقت كمايروي ابن سعد حدث أمر غير متوقع ، فقد عرض أبو لهب الذي كان حتى ذلك الوقت من أشد أعداء محمد (ﷺ) الصلح معه وأتى إليه يعرض عليه حمايته ، وبعد ذلك لم يتعرض أحد بالإيذاء للنبي (ﷺ) خشية بطش أبي لهب، إلا أن قریشا أوقعت بينهما، فعاد أبو لهب إلى عداوته السابقة، وثرى بعض الروايات أن أبا طالب استدعى آل بيته وهو على فراش الموت وأوصاهم بالنبي، وإن صحت هذه الروايات فربماكان اهتمام أبي لهب بالنبي قد حدث على أثر هذه الوصية، ولاننسى أن أبا لهب كان أيضا عم النبي .

(1) شعب (بكسر الأول وسكون الثاني) تعني " وادي " أو متحة بين حلين ، وورد ذكر شعب أبي طالب في معجم البلدان والمراصد باسم " شعب أبي يوسف " وهو واد بمكة كان ملكا لعبد المطلب وآل لبينه بالتوارث وتوكان للنبي فيه سهم وكان يسكنه بنو هاشم

(2) وهذا الاختلاف ناهم عن الاختلاف حول سن خديجة حين تروحت النبي كماسبق أن ذكرنا

ويقال أن قريشا بعد رجوع أبي لهب عادت الى بطشها المعهود وأذاها الذي أنزلته
بالنبي (ﷺ) وأتاعه فورد في الأخبار أن جيران النبي ألقوا على داره يوما سقط شاة،
فحملها النبي (ﷺ) على طرف عصاه وقال :

" يا بني عبد مناف ، أهذا حق الجيرة والجوار عندكم ؟ " ، وفي دار خديجة بمكة
هناك صخرة يقال أن النبي، (ﷺ) كان يحتسب بها من الجيران وما يلقونه عليه من
أحجار في أوقات الصلاة (1) ويروى أيضا أنهم يوما صبوا التراب على رأس النبي
(ﷺ) ويقول الطبري وابن هشام أن النبي (ﷺ) كان يطوف بالكعبة يوما فوقف جمع
من قريش في ركن ، وكابوا كلما مر بهم النبي في طوافه يفحشون القول له ، وفي ثالث
مرة غضب النبي (ﷺ) وقال لهم : " يامعشر قريش أما والذي نفس محمد بيده لقد
حتتكم بالذبح ، فخاف الناس مما قال وطلبوا عفوه ولكنهم في اليوم التالي أحسوا
بالخجل من تخاذلهم هذا ، فازدحموا عند النبي وقام أحدهم (برواية عتبة ابن
أبي معيط) بشد رداء النبي (ﷺ) حول رقبته وأخذ يضغط ، فصاح بهم أبو بكر
قائلا : " أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ! " ففرق الجمع . (2)

ولم يرد تاريخ هذه الوقائع في الأخبار، والمسلم به أن الأمور قد اردادت سوما على
النبي (ﷺ) بعد موت أبي طالب ، فلم يتحول أحد إلى الإسلام في الفترة الأولى ،
وكان معظم الصحابة قد هاجروا الى الحبشة ، وكانت مقاومة قريش بالعدد الضئيل من
المستضعفين الذين ظلوا بمكة تدر أمرا محالا لولا أن كان عزم النبي أقوى من قدرات
المنافقين له ، وظل النبي (ﷺ) يبحث عن يحميه فاتمحه نظره الى خارج مكة .

يرى البعض أن حادثة شق القمر وقعت في العام التاسع بعد البعثة ، من ثم فقد وقعت
إبان إقامة النبي (ﷺ) وأتاعه بالشعب . (3)

(1) الرحلة الحجازية .

(2) الطبري ، ج 2 ، ص 223

(3) الحميس ، ج 1 ص 337

الدعوة خارج مكة :

كانت الطائف أول مدينة تجذب نظر النبي (ﷺ) من المدن خارج مكة ، وكانت الطائف التي تقع على بعد ثلاثة أيام على الطريق إلى الشرق من مكة في واد أخضر عامر بالحياة مستقرا لنبي ثقيف في ذلك الوقت ، وكانت تحت رعاية ثلاثة إخوة هم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير ، وكانوا على اتصال وثيق بزعماء قريش وبينهم قحارة وتعاملات ، كما كانت الطائف مقرا للثلاث أكبر أوثان العرب ، لكل هذه الأسباب كان من الطبيعي ألا ينظر أهل الطائف إلى الدعوة الجديدة بأى مودة ، وتطالعنا الأخبار أيضا بأن أثرياء الطائف كانوا يحثون قريشا على ماصصة النبي العداء في أوائل ظهور الاسلام ، إلا أن هذه السمات التي ميزت الطائف لم تدخل اليأس على قلب النبي من نشر الدين الجديد ودعوة أهل الطائف إليه ، فخرج ذات يوم برفقة زيد بن حارثة (أو بمفرده في بعض الروايات) من مكة فطوى وادى متى وعرفات وبلغ الطائف وبقى بها عشرة أيام ، واجتمع بالاحوة الثلاثة وحشهم على قبول الدين الجديد والوقوف معه في مواجعة قريش ، إلا أنهم رفضوا ، فنهض السى ، ويقال انه ألح في طلبه منهم ألا يعلنوا عن زيارته وحديثه اليهم حتى لا يبلغ الخبر مكة فيؤدى إلى زيادة اضطهاد قريش ، إلا أن الاخوة حشوا جمعا من السهواء والغلمان على تعقب النبي (ﷺ) بالجليلة والسفهاء ، وعاد النبي إلى مكة حريق القدمين وفي منتصف الطريق في مكان يسمى نخلة توقف لعدة أيام ، وفي منتصف الليل حيث كان قائما يصلى ويرتل القرآن مر بالمكان جماعة من الجن فأمنوا بالاسلام على أثر سماعهم القرآن ، وعادوا إلى قومهم بالشورى وتتناول سورة الجن في القرآن هذه الواقعة .

وعندما اقترب النبي (ﷺ) من مكة أحجم عن دخولها ، وأرسل أحد المارة إلى الأخنس بن شريف يطلب حمايته وكان رد الأخنس بالرفض ، فأرسل إلى سهيل بن عمرو برفض أيضا ، فأرسل إلى مطعم بن عدى فقبل ، وفى الصباح دخل المسجد مع سبه وأبناء أخيه مسلحين كإشارة إلى أنهم يسمعون حمايتهم على شخص ودخل النبي (ﷺ) مكة .

كان موسم الحج يمثل دائما فرصة مواتية للنبي (ﷺ) لنشر الدين والدعوة إليه بين القبائل ، إذ كانت الطوائف على اختلافها تجتمع في هذا الموسم في مكة والأسواق المحيطة

بها، وكانت حرمة الأشهر الحرم تمنع إيقاع أى أذى بين الناس ، فكان النبی يلتقى بالواردين إلى مكة ويشرح لهم أركان دينه ويطلب منهم الحماية . ويصف لنا عربى من بنى عامر كان قد أتى إلى مكة فيقول : " أتانا شاب من قريش من بنى عبد المطلب قال انه نبي ودعانا لحمايته ومرافقته إلى بلادنا ، وفى خبر آخر يتعلق بواحد من مجالس الدعوة هذه أن أبا لهب وقف وراء النبي وما أن انتهى النبي من حديثه بدأ يكذبه ويحذر الناس من متابعتة .

وكان النبي يحضر أسواق عكاظ ومجنة وذى مجاز لنشر الدعوة وإبلاغ كلمة الله للناس ، إلا أن العرب ماكانوا ليقبلوا اعتناق الاسلام وحماية النبي سواء خوفا من قريش أو من الدين الجديد الى أن جاء خزرج المدينة يوما الى النبي .

بيعة العقبة والهجرة : (من العام الحادى عشر الى الثالث عشر من البعثة)

فى قلب جبال الحجاز ثمة واد طويل يقال له وادى القرى يمر به الطريق التجارى من اليمن الى الشام بعد العبور من أطراف مكة ، وعلى طول هذا الوادى الممتد من الشمال الى الجنوب ثمة واحات عديدة تنزل بها القوافل للتزود بماء آبارها والقليل من الخضرة ومن بين هذه الواحات مدينة يثرب القديمة التى تعرف باسم المدينة وكانت تسكنها طوائف من اليهود منذ القدم ، وكانت قد أتت اليها من الشمال ، وفى أوائل القرن الرابع الميلادى نزحت طائفتان من عرب الجنوب (القحطانيون) هما الأوس والخزرج إلى يثرب وسكنوا مع يهودها ثم تعاون أفراد الطائفتين العربيتين مع اخوتهم من البدو على اليهود ، وقاموا بقتل زعمائهم ليلا فى أحد المجالس وفرضوا هيمنتهم على يثرب ، ولكن لم يمر وقت طويل حتى وقع الشقاق بينهما ، وأبرمت كل قبيلة حلفا مع قبائل أخرى من العرب، وانقسم اليهود أيضا الى فريقين : بنو قريظة وبنو النضير الى جانب الأوس وبنو قينقاع الى جانب الخزرج.

وبينما كان النبي مشغولا بالدعوة فى مكة كان العداء قد بلغ ذروته بين الأوس والخزرج فى المدينة، وكان قد أتى إلى مكة عدد منهم بقيادة أنس بن رافع لطلب المدد من قريش ، فالتقى بهم النبي وعرض عليهم دين الاسلام ، فأعجب أحدهم ويسمى إياس بن معاذ بحديثه ، إلا أن قائد الجماعة وكانت عينه مركزة على استمداد قريش وبخه ، وبهذا

لم يقبلوا دعوة النبي (ﷺ) ، ومضوا في طريقهم ، وفي النهاية نشبت حرب مستعرة بين القبيلتين وهي حرب بعاث وحالف الاوس النصر ، فقاموا بإحراق بساتين النخيل الخاصة بأعدائهم وتخريب ديارهم ، وظل القتلى يتساقطون على الجانبين بين حين وآخر وظل السلام يعم فترة والحرب تنشب فترة بالتناوب .

وفي النهاية مل الطرفان سفك الدماء ، وسعيا الى عقد السلام وكان من أشراف الخزرج رجل اسمه عبدالله بن أبي يلوم قومه على هذه الفوضى ولم يشارك في حرب البعاث ولهذا فقد توسط لدى كلتا القبيلتين ، وفي هذه الأثناء حيث ظهرت بوادر الصلح بين الطرفين قبلت القبيلتان أن يتولى هو زعامتهما وأعدتا له كما تجرى الرواية تاج الامارة ، الا أن الحادثة التالية وقعت وحالت دون توليه الزعامة .

ذات يوم كان النبي (ﷺ) يطوف بالحجيج في موسم بمكة كعادته وفي المكان المسمى بالعقبة وقعت عيناه على جماعة فسألهم عن هويتهم ، فقالوا له " نحن طائفة من الخزرج " ، فسألهم « وهل أنتم من موالى اليهود ؟ » ، فقالوا " نعم " ، فسألهم أن يجلسوا قليلا لكي يتحدث معهم ، فجلسوا ودعاهم الرسول (ﷺ) إلى الله وإلى الاسلام وتلى عليهم آيات من القرآن ، وروى أن هؤلاء القوم كانوا يحاورون اليهود بالمدينة وكان اليهود أهل علم وكتاب وكان هؤلاء من المشركين عدة الأصنام ، ونادرا ما كان اليهود يسمحون لهم بدخول منازلهم ، وكلما كانت تنشب بينهم منازعة كان اليهود يقولون لهم : " إنا ستطر نبيا سيطهر في هذه البلاد وسنتبعه وسنقضى عليكم بصحبته كما قضى على عاد وارم " ، وعندما سمع الخزرج في ذلك الوقت ما قاله الرسول (ﷺ) بمكة قالوا " هذا هو النبي الذي يخيفنا به اليهود " ، وفي نفس المجلس أعلنوا اسلامهم قبل أن يبادر اليهود بذلك ، لكنهم قالوا للنبي . " ثمة خلاف وعداء بين قومنا وعسى الله ان يزيله على يدك ، انا ذاهبون لنعرض عليهم ما أتيتنا به ، فإن قبلوه فلن يكون بيننا أعز منك « ، ومصوا . وكانت هذه الحادثة في العام الحادي عشر من البعثة وكان المخزجيون ستة ، وبعد أن بلعوا المدينة بدأوا في الدعوة ، فانتشر الاسلام بها حتى انه يروى انه لم يبق بها بيت من بيوت الأنصار لا يدور فيه حديث النبي (1) .

(1) الفسري ح 2 ، ص 234

وفى العام التالى (الثانى عشر بعد البعثة) أتى الى مكة فى موسم الحج نفس هؤلاء الحربيون الستة ومعهم ستة آخرون من قومهم وبايعوا النبى (ﷺ) فى العقبة واثقين مما تحقق للإسلام من تقدم فى ربوع المدينة ، وتسمى هذه البيعة " بيعة العقبة الأولى " ، وكان نص هذه البيعة كما أورده الطبرى كما يلى : " نبايعك على ألا نشرك بالله أحدا وألا نسرق وألا نقتل أولادنا وألا نكذب وألا نعصاه فى خير يأمرنا به " ، وردا على هذه البيعة قال النبى (ﷺ) : " إن وفيتكم لكم الجنة وإن خنتم العهد أقيم عليكم الحد فى الدنيا وتكونوا من الكافرين إن طهرت خيانتكم وإن خفيت فإنكم تتركون ليوم القيامة يعفو الله عنكم أو يعذبكم » ، ولم تنص هذه البيعة على التكليف بالقتال ويسمى هذا الجزء من البيعة " بيعة النساء " وذلك لان النبى فى فتح مكة أقر بيعة النساء بهذا القسم .

وبعد بيعة الخزرج عادوا الى المدينة بعزم أكبر على نشر دين الاسلام ، وأرسل الرسول اليهم واحدا من رجاله هو مصعب بن عمير القرشى لتعليمهم شئون دينهم وتلاوة القرآن عليهم .

يرى معظم المؤرخين أن واقعة الإسراء والمعراج (1) كانت فى العام الثالى عشر من البعثة ، وكما يدور الخلاف حول العام الذى حدثت فيه يدور الخلاف كذلك حول الشهر واليوم ، وكذلك حول موضعها ، وما إذا كانت قد وقعت فى دار النسي أم من المسجد الحرام أم من دار أم هانئ (ست أسى طالب) ، وثمة خلاف أيضا حول ما إذا كان الإسراء والمعراج قد حدثا معا فى ليلة واحدة أم فى ليلتين ، وحول تفاصيلهما التى وردت فى كتب الحديث المذكورة ، ويرى جمهور المسلمين من الشيعة الامامية أن الإسراء والمعراج كانا معا فى ليلة واحدة وكانا بالجسد لا بالروح وحدهما وفى البقعة لا فى المنام ، وفى ليلة المعراج تقررت الصلوات الخمس ، يقول الواقدي إن صلاة الحضر كانت فى البداية ركعتين كصلاة السفر ، ثم زيدت بعد ذلك فى العام الثالى للهجرة

(1) المراد بالإسراء السر من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، والمعراج الصعود الى السموات ، يقول البوصري فى التهذيب (طبعة المبرية ، ج 2 ، ص 81) أن أفضل احاديث الاسراء هو حديث مالك بن صعصعة الذى اتفق عليه كل من الحارثى ومسلم (المؤلف) .

واقترب العام الثالث عشر من البعثة ، وكان أمر الإسلام قد علا فى المدينة بحيث يقال انه لم يبق بين الأوس والخزرج سوى أربع أسر على غير الإسلام، وفى موسم الحج من ذلك العام أتى إلى العقبة سبعون من زعماء المدينة مع مصعب بن عمير وبايعوا النبى (ﷺ) ، وهذه هى البيعة الثانية وكانت أشد من بيعة العام السابق فكانت بيعة حرب الأحمر والأسود والتزام بحماية النبى ونسائه وبنيه ، وقام النبى بتحديد اثنى عشر منهم ليتولوا قيادة قومهم بلقب " نقيب " .

كانت هذه المباحثات تتم سرا وليلا، ويروى المؤرخون أن عباس بن عبدالمطلب كان يحضر هذه المباحثات ويساعد على جلب اهل المدينة⁽¹⁾ وبعد ثلاثة أيام داع الخبر بمكة وبدأت قريش فى تعقب المسلمين ببطشها ، ويطلق المؤرخون على هذا " الفتنة الثانية " فى مقابل " الفتنة الأولى " التى أدت الى الهجرة الى الحبشة ، ولكن فى هذه المرة كان للمسلمين ملاذ محكم كالمدينة وأنصار يؤازروهم كالأوس والخزرج ، وبهذا بدأت الهجرة الى المدينة، فنزع المسلمون جماعات بأمر من النبى (ﷺ) ولم يبق منهم سوى النبى نفسه ومعه على وأبو بكر .

وفى أوائل العام الرابع عشر من البعثة أدركت قريش استفحال أمر الاسلام ، فاجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون ويرى أن الشيطان حضر هذا المجلس فى صورة شيخ تجدى وأدلى برأيه بضرورة قتل النبى (ﷺ) وبضرورة أن يتم هذا الأمر بصورة جماعية حتى يشيع الأمر ولا يقع الجرم على فرد بعينه ، فأقر الجميع هذا رأى، وفى الليل حاصروا بيت النبى فأمر النسي (ﷺ) عليا بأن ينام فى فراشه ، وخرج هو قاصدا غار ثور وعمر من بين القوم ومضى فى حى الله دون أن يراه أحد واستيقظ أبو بكر بعد لحظات من خروج النسي ولحق به ، وتروى معظم الروايات أن أبا بكر كان يحدس نية الرسول (ﷺ) فى الهجرة قبلها مدة طويلة لذا فقد أعد أسباب السفر إلى أن حلت ليلة الهجرة حين عادر النسي من بيت أبى بكر ورفقته قاصدا الغار ومكثوا بالغار ثلاثة ايام وفى كل ليلة كان راعى اغنام أبى بكر يأتى الى الغار بغنمه ويقدم لهما اللبن وكان ابن

(1) الفسرى ، ج 2 ، ص 238

أبى بكر يأتى اليهما بأخبار مكة كل ليلة ، وبعد مضى الأيام الثلاثة وهدوء الاضطراب
أتى غلام أبى بكر بجملين كان قد أعدهما لهذا الغرض وخرج النبى (ﷺ) وابو بكر
برفقة الدليل الذى استأجراه قاصدين المدينة ، ويشير القرآن الى مؤامرة قريش فى الآية
{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ } [(الأنفال ، 30)] ويشير كذلك
الى القلق الذى ألم بأبى بكر فى الغار فى الآية. [إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلْنَا] (التوبة ، 40) .

* * * *

الفصل الثالث

النبي في المدينة

العام الأول بعد الهجرة

فى الثانى عشر من ربيع الأول من العام الرابع عشر بعد البعثة وهو السنة الأولى وصل النبى (ﷺ) إلى المدينة ونزل فى قباء ، وهى حى خارج المدينة ، وهبط من راحلته فى ظل شجرة ، وتوافد الناس بعد أن ظلوا يترقبون قدومه ، ونزل النبى (ﷺ) بدار أحد أفراد بنى عمرو بن عوف ، فى حين نزل أبو بكر فى حى آخر يسمى "سنح" ، وكان على قد ظل بمكة حتى يرد الأمانات التى كانت لدى النبى (ﷺ) إلى أصحابها ، وبعد إتمام مهمته غادر مكة بعد ثلاثة أيام من بلوغ النبى المدينة ، ونزل فى قباء وسكن مع النبى .

وظل النبى بقباء حتى نهاية الأسبوع ، وحدد بقعة ليقام عليها المسجد بها ، وأدى الصلاة بها ، وفى يوم الجمعة ذهب إلى المدينة بصحبة موكب بنى النجار الذين كانوا يمتنون للنبى بصلة قري ، وفى الطريق أدى أول صلاة جمعة بين قبيلة بنى سالم بن عوف ، ثم دخل المدينة ، فاحتشد الناس بعد أن ملأهم الفرحه بقدوم النبى (ﷺ) ، وظل كل منهم يسعى للإمساك بزمام راحلته أملا فى النزول عليه ضيفا ، إلا أن النبى قال : " اتركوها فهى مأمورة وتعرف أين يحط بها المقام " ، فبركت الناقة فى حى بنى النجار على باب دار أسى أيوب ، فأخذ أبو أيوب بزمامها إلى داره فنزل النبى (ﷺ) عنده ، وكانت ثمة قطعة أرض بور (مرید) أمام الدار وبها عدد من النخل وعدد من القبور القديمة ، فاشترها النبى وكانت ملكا ليتيمين (وفى رواية أهدوها إليه) فأقام بها مسجدا ، ويقوم المسجد الرئيسى بالمدينة على أساس هذا المسجد ، وتم بناء هذا المسجد بيد النبى نفسه (ﷺ) ومعه صحابته ، فأقاموا أربعة جدران من الآجر النىء بدون سقف ، وباتجاه القبلة التى كانت لا تزال إلى بيت المقدس أقاموا عمودا من خشب الخيل تعلوه مظلة ، وعلى أحد جوانب المسجد أقاموا مصطبة فرشت عليها الفرش لفقراء الصحابة (أصحاب الصفة) ، وسوا بيتين ملحقين بالمسجد لزوحى النبى سودة وعائشة ، وفى ذلك الوقت زف النبى إلى عائشة التى كانت قد بلغت التاسعة ، وبعد إقامة المسجد فرض الأذان وتقرر أن يكون بلال مؤذن المسجد .

وبدأ تعداد المهاجرين فى الازدياد بحيث حلت ديار عديدة من سكانها تماما فى مكة ، وكان الأنصار يأوون المهاجرين فى ديارهم ، وعقد السى عهد أخوة بين المهاجرين

والأنصار (فى الشهر الخامس أو السادس من الهجرة) ، واختار عليا بن أبى طالب
رضى الله عنه أخا له ، وأصبح المسجد مركزا للاجتماع ، وكان الرسول (ﷺ) يؤم
الناس فى الصلاة به ويخطب فيهم .

وكان من بين عرب المدينة من يخالفون النبى ولا يؤمنون بالإسلام ، فهاجر بعضهم
كأبى عامر الذى عرف بالراهب ، وأما من بقى منهم بالمدينة فكان يضرر البغضاء دون
القدرة على إظهارها ، وهؤلاء هم من يطلق القرآن عليهم « المنافقون » ، ومنهم عبد الله
بن أبى الذى ضاعت منه زعامة المدينة بسبب الإسلام ، وكانت المسألة الأهم هى يهود
المدينة الذين كان لهم وضع خاص ، فكانوا سكان المدينة القدامى وسيطرون على مائها
وأرضها ، وكانت تربطهم بالأوس والخزرج عهود ومواثيق قديمة ، بالإضافة إلى أن اليهود
من أهل الكتاب والتوحيد ، كانوا بمقتضى كتبهم ينتظرون ظهور نبى ، وعلى ذلك كان
عليهم ألا يتخلفوا عن العرب " الأميين " فى الميل إلى الإسلام ، فلم يدخر النبى (ﷺ)
وسعا فى مهادنتهم ، وفى نص قرار الإخاء بين المهاجرين والأنصار (1) أقر بالحفاظ
على أمنهم بشرط حفاظهم على أمن المسلمين ، ورغم تحول اثنين من أحبار اليهود إلى
الإسلام وهم مخيريق وعبد الله بن سلم اللذان كانا يجادلان اليهود لنصرة الرسول (ﷺ)
إلا أن عامة اليهود ظلوا يقاومون الإسلام ويعارضونه بكل ما أوتوا من قوة ، وكانوا
يتربصون بالحبريين المسلمين المذكورين ، وانضم المنافقون إلى اليهود ، ثم أطلع الله النبى
وحيا بما يضره الفريقان له ولأتباعه ، ونزلت آيات عديدة ومن بينها ما ورد فى سورة
البقرة ضد اليهود وكشف بها سوابق كفرهم وإلحادهم وقتلهم للأنبياء وتحريفهم للكلم عن
مواضعه وإنكارهم بعد إقرارهم به .

حسب رواية كل من الواقدي والطبري بدأت العمليات الحربية من ذلك العام ، أما ابن
إسحاق فيرى أن بدء الغزوات كان فى العام الثانى من الهجرة، وهناك اختلاف حول تاريخ
الغزوات والسنوات التى حدثت فيها بصورة عامة بين كتاب السيرة، بل وأحيانا يرد ذكر
عروة ما تحت اسمين وفى مكايين مختلفين. على أية حال، تجرى رواية الواقدي على أن
السى (ﷺ) أوفد حمزة فى الشهر السابع من ذلك العام وبصحته ثلاثون من المهاجرين

(1) النص كاملا فى اس هشام ، ح 2 ، ص 94

إلى قافلة لقريش ، وكان قائد القافلة أبا جهل ومعه ثلاثمئة فرد ، فعاد حمزة دون قتال ، وفى الشهر الثامن خرج عبيدة بن الحارث (من بنى عبد مناف) بصحبته ستين من المهاجرين إلى رابغ ⁽¹⁾ لملاقاة إحدى القوافل ، ونشبت معركة محدودة بالسهم بين الفريقين ، وفى شهر ذى القعدة خرج سعد بن أبى وقاص مع ستين فرداً إلى خرار ، وعندما بلغوا ذلك المكان كانت القافلة قد مرت ، وكان أفراد هذه الفرق جميعاً من المهاجرين وكان قادتها من رجال مكة وقريش ، وكان النبی (ﷺ) عندما يجرد الفرقة يعقد لها راية يسلمها لقائدها كرمز على تسلمه لواؤها .

العام الثانى بعد الهجرة :

فى ذلك العام تحولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، وكان النبی (ﷺ) والمسلمون منذ بداية الإسلام وحتى ذلك الوقت (أى بعد ستة عشر شهراً من الهجرة أو ثمانية عشر شهراً فى رواية أخرى) يولون وجوههم فى الصلاة شطر بيت المقدس ، فقال اليهود " إن محمداً وصحبه لا يعرفون لهم قبلة إلى أن هديناهم إليها " ، فحزن النبی (ﷺ) وود لو كانت الكعبة قبلة المسلمين ، وذات يوم كان النبی (ﷺ) يصلى الظهر بمسجد بنى سلمة ، فنزلت عليه آية تحويل القبلة ، ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ⁽²⁾ ، فاتجه النبی (ﷺ) فى الحال شطر الكعبة وتبعه من كانوا يصلون معه ، ثم مضى إلى مسجد قباء ووجه المحراب شطر القبلة الجديدة

وبعد فترة قصيرة من هذا الحدث فرض صيام شهر رمضان بدلاً من صوم عاشوراء الذى كان قد فرض فى العام السابق ، وفى نهاية شهر رمضان أبلغ السى (ﷺ) حكم زكاة الفطر فى خطبة له ، وفى يوم عيد الفطر ذهب إلى مصلاه ، وكانت هذه أول صلاة عيد تؤدى فى المصلى ، وبعد عدة أشهر أجريت مراسم عيد الأضحى لأول مرة ، فخرج النبی (ﷺ) إلى مصلاه ، ونحر بيديه شاة ، وكذلك فعل القادرون من الصحابة ، ثم صلى بهم صلاة العيد .

كانت العمليات الحربية فى ذلك العام عديدة ، وشارك النبی فى بعض منها ، وتسمى العملية الحربية « غزوة » فى مقابل « السرية » التى كانت تخرج دون رفقة النبی

(1) مكان على الطريق بين مكة والمدينة قرب البحر

(2) سورة البقرة آية 144 ، ورد الخبر إجمالاً لدى ابن هشام وتخصيلاً لدى الطبرى وفى مجمع البيان .

(ﷺ) (1) ، وكلما كان النبي يخرج بنفسه كان يولى على المدينة واحدا من صحابته ، وكان الهدف من هذه العمليات إلقاء ضغوط على قريش من خلال مهاجمة قوافلها وإخضاع القبائل غير المسلمة فى المقاع المجاورة وإدخالها فى الإسلام ، كانت غزوة الأبواء التى تسمى أيضا غزوة ودان هى الأولى ، ثم تلتها غزوة بواط وكانتا جميعا فى شهر ربيع الأول ، وفى كلتا الغزوتين عاد النبي (ﷺ) دون قتال ، وكان يقصد بها قوافل لقريش ، وفى هذه الأثناء قام شخص يسمى عامر بن كريز (أو كرز بن جابر) النهري بالهجوم على أطراف المدينة والإغارة على قطعان أغنام تخص أهلها ، فتعقده النبي (ﷺ) إلى بدر فلم يلحق به ، وقد سميت هذه الغزوة بدر الأولى (2) .

وفى شهر جمادى الأولى شاع الخبر بأن قافلة قريش فى طريقها من مكة إلى الشام بقيادة أبى سفيان ، وكان أبو سفيان يعد شيخ بنى أمية ومن أكبر زعماء قريش ومكة ، فخرج النبي (ﷺ) بصحبة مثنى رجل وثلثين جملا وراء هذه القافلة وبلغوا عشيرة دون اللحاق بها ، فعقد حلفا فى هذه المنطقة مع قبيلتى بنى مدلج وبنى ضمرة . وكان هذا أول حلف يعقد مع قبائل خارجية .

وفى جمادى الثانية أو رجب من نفس العام أرسل النبي (ﷺ) عبد الله بن جحش برفقة ثمانية أفراد أو اثنى عشر فردا من المهاجرين إلى نخلة بالقرب من مكة لتقصي أحوال قريش، فنصب عبد الله كمينا فى نخلة، ومرت إحدى القوافل فقام المسلمون بقتل أحد رجالها ويسمى عمرو بن الحضرمى بسهم ، وعادوا إلى المدينة بما كانت تحمله القافلة من بضائع ومعها أسيران، وكان هذا أول نصر يتم إحرازه، ولكن وقعت هذه الواقعة فى أحد الأشهر الحرم، فاحتجت قريش واليهود على ذلك، وحتى المسلمون أنفسهم وجهوا اللوم إلى عبد الله بن جحش ورفاقه وامتنع النبي (ﷺ) عن الحصول على نصيبه مما غنموا إلى أن نزلت آية تبرىء هذه الملة وهى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْثَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (سورة البقرة آية 217)

(1) لم يرد هذا الاصلاح لدى الطبرى

(2) يرى بعض المؤرخين أن هذه الغزوة كانت بعد غزوة عشيرة

وفى أعقاب هذه الواقعة وقعت غزوة بدر ، كانت قافلة قريش عائدة من الشام بقيادة
أبى سفيان ، فخرج السبى (ﷺ) وصحابته قاصدين هذه القافلة ، ونصبوا كميناً فى بدر ،
فلما بلغ الخبر أبى سفيان حاد عن الطريق وأرسل رسولا إلى مكة يطلب المدد ، فعاءته
جماعة من أهلها ووقعت المواجهة بينهم وبين المسلمين فى بدر ، وعندما مرت القافلة من
مكان الخطر أرسل أبو سفيان رسالة إلى قريش لكى يعود رجالها دون قتال ، وكان من
بين المسلمين أيضا عدد حاموا قاصدين القافلة وحسب دون ميل إلى القتال ، خاصة وأن
عدد المسلمين كان يقل كثيرا عن عدد رجال قريش ، إلا أن أبى جهل بالاع فى تصويره
حادثة مقتل عمرو بن الحضرمى لدى قريش وحشهم على القتال ، علاوة على ذلك كانت
قريش ترى كثرتها أمام قلة عدد خصومها ، فمالوا إلى وجهة نظره مع رغبة فى ترهيب
أهل الحجاز ، فاصطف الطرفان واتخذ النبى (ﷺ) مكانه فى ظل شجرة ووقف جمع
من صحابته حوله يدافعون عنه بينما مضى الباقون إلى ميدان القتال ، ولم يمر وقت طويل
حتى لحقت الهزيمة بالمشركين ، فقتل سبعون من قادة قريش وأسر سبعون آخرون وفرت
فلول منهم ، وكان الرسول قد أمر بعدم قتل أحد من بنى هاشم ، ولذا فقد تم التحفظ على
العباس عم النبى صمن الأسرى ، وألقى بالقتلى فى قاع بئر ، ووقع الحلاب بين الصحابة
حول العنائم ، فكان من شاركوا فى القتال يريدون نصيبا يزيد عما قسم لى ظلوا حول
النبى ، إلى أن نزلت الآية ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا
اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
(سورة الأنفال، الآية الأولى)، فجمع السبى (ﷺ) الغنائم

بمقتضى هذه الآية وسار بحيشه باتجاه المدينة، وفى الطريق وزعها بينهم بالتساوى، وفى
الطريق أيضا أمر بصرب أعناق عدد من الأسرى ممن كانوا يغالون فى مناهضة الإسلام من
قبل، ودخلوا المدينة، وفى اليوم التالى أتوا بالأسرى مهلبين فرحين، وكانت واقعة بدر أول
فتح للإسلام، فهلك عدد من رعاء قريش ممن كانوا يناصبون النبى واتاعه فى مكة أبلغ
عداء، فقويت الروح المعنوية لدى المسلمين وآمنوا بنصر الله لهم ومعة الإسلام .

وأملت الفاجعة بأهل مكة من عروة بدر ، وظلت أصوات النواح والكاء تعلو من
ديارها مدة من الزمن ، وأحجم أهلها عن اقتداء أسراهم فى بداية الأمر ثم توافدوا واحداً
بعد واحد كل يفتدى أسيره بالمال ، أما العباس فقد أطلقه المسلمون بلا فدية إكراما لكونه

عم النبي، ومات أبو لهب بمكة بعد عدة أيام من موقعة بدر، وأصبح أبو سفيان زعيماً لمكة فعلياً من بعد، وظلت قريش كلها تفكر في اليوم الذي تثار فيه لهزيمتها.

وبعد بدر تعقب النبي (ﷺ) المنافقين واليهود بالمدينة وعاقبهم، فقتل على يد الأنصار اثنان من المنافقين نظماً شعراً ضد النبي وكانا يثيران الاضطراب بين الناس؛ أحدهما أبو عفك الشاعر الذي كان من بنى عمرو بن عوف وكان يهودياً والأخرى امرأة من الأوس تسمى عصماء بنت عمير، وكان يهود قينقاع أول طائفة يهودية ينزل بها العقاب، وكانوا يسكنون في قلعة خارج المدينة ويعملون بصياغة الذهب والحدادة، وفي شهر شوال جمعهم النبي وقال لهم أن اعتبروا من المصير الذي آلت إليه قريش وآمنوا بالإسلام فأنتم تعلمون أني النبي، فامتنعوا وأغلظوا له القول، فنزل عليه الوحي ﴿وَأِمَّا تَحَارَبُونَ مِنَ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَابْذُلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال 58)، فأحكم

النبي (ﷺ) الحصار حول قلعتهم خمسة عشر يوماً إلى أن طلبوا الأمان، ولكن بشفاعة من عبد الله بن أبي الذي كان حليفهم ويحميهم بدل النبي (ﷺ) حكم قتلهم إلى النفي، فرحلوا جميعاً إلى مشارف الشام وصارت أموالهم غنيمة للمسلمين بعد وضع الخمس ونصيب النبي، وكانت هذه أول مرة يتم فيها تحصيل الخمس.

وفي آخر ذي الحجة وقعت غزوة سويق⁽¹⁾، كان أبو سفيان قد أتى إلى مشارف المدينة برفقة مئتين من أتباعه وفاء لنذر قطعه على نفسه، فأضرم النار في عدد من النخيل، وقتل شخصين، فتعقبه النبي (ﷺ) إلا أن أبا سفيان كان قد لاذ بالفرار بسرعة، وبلغ النبي خبر بأن قبيلتي بنى سليم وغطفان كانتا تحتشدان للدخول في حرب ضد النبي، وكانت هاتان القبيلتان تسكنان في لجد على الطريق التجاري بين مكة والخليج العربي وكان يربطهما بقريش تحالف، فهاجم النبي (ﷺ) مع مئتين من أتباعه قرقرة الكدر وهو الحى الذي تسكنه القبيلتان، إلا أنهما كانتا قد لاذتا بالفرار، فغنم المسلمون عدداً من الإبل وأسروا رعائهم، يرى البعض أن هذه الغزوة سقت غزوة سويق ويرى البعض أنها كانت في العام الثالث بعد الهجرة⁽²⁾.

(1) "سويق" تعني "الطحين"، يقال إن المشركين في فرارهم خفوا ما لديهم من طحين، سُميت الغزوة بهذا الاسم.

(2) اسطر الطبرى، ج 2، ص 298.

ومن وقائع العام الثانى بعد الهجرة زواج فاطمة الزهراء من على رضى الله عنه فى شهر ذى الحجة⁽¹⁾ .

العام الثالث بعد الهجرة :

فى شهر صفر من ذلك العام خرج النبى (ﷺ) مرة أخرى قاصدا قبيلة غطفان بنجد، فرحل عنها أهلها، فأمضى بقية الشهر بها ثم عاد (غزوة ذى أمر)، وفى ربيع الأول خرج قاصدا بنى سليم فذهب إلى لحيان، ومرة أخرى عاد دون قتال، وفى نفس هذا الشهر كان قتل كعب بن الأشرف اليهودى، كان أبو كعب من أعراب بنى طى وأمه من يهود بنى النضير، وكان هو نفسه يدين باليهودية، ويروى أنه فى بداية هجرة النبى إلى المدينة أعلن إسلامه ثم ارتد إلى دينه بعد تحويل القبلة، وأصبح يعلن مناهضته للإسلام، ويروى أنه ذهب إلى مكة فى أعقاب غزوة بدر وأخذ ينظم الأشعار فى رثاء قتلى بدر وكان يحرض قريشا على الإسلام والمسلمين، ثم عاد بعد ذلك إلى المدينة وظل يتناول فى أشعاره سيرة بعض نساء المسلمين حتى ضاق الناس ذرعا به ، فتطوع محمد بن مسلمة وخرج مع عدد من رفاقه ليلا وقتلوه ، وفى غداة مصرعه أمر النبى (ﷺ) أتباعه بقتل كل يهودى يحدونه، فهاجم أحد الصحابة يسمى محبصة تاجرا يهوديا يسمى ابن سنيينة⁽²⁾ وقتله ، يقول الواقدي أن اليهود تملكهم الخوف على أثر هذه الحوادث ، فأرسلوا عددا منهم إلى النبى وعقدوا معه معاهدة جديدة، وظلوا بعد ذلك يعيشون دوما فى زلة واضطراب .

وفى حمادى الثانية وقعت سرية قردة ، وجدت قريش بعد غزوة بدر أن الطريق الساحلى الآخر لا يصلح للعبور ، فخرجت قافلة فى الشتاء تحمل فضة على طريق البادية، فتولى زيد بن حارثة قيادة الحملة ، فأدرك القافلة فى منطقة قردة وعاد إلى المدينة محملا بالكثير من العنائم ، وكانت أول سرية وبيرة الغنم حتى أن خمس النبى منها بلغ عشرين ألف درهم ونصيب كل فرد ثمانمائة درهم ، وفى شعبان من ذلك العام تزوج النسي حفصة بنت عمر

(1) طبقا للشيخ محمد فى مسار الشعة (ط القاهرة ، ص 36) كان هذا فى أول ذى الحجة

(2) ورد الاسم بصورة مختلفة ، ويرى صاحب الروص الآنف أن صحيحه " شبيبة " .

وفى يوم السبت السابع من شوال وقعت معركة أحد ؛ فعلى أثر هزيمة قريش فى بدر استمدت قريش العون من حلفائها ، وفى ذلك اليوم خرج جيش يقال إنه كان يضم ثلاثة آلاف ومئتى جواد وألفاً من الإبل بقيادة أبى سفيان قاصدا المدينة ، فأرسل العباس عم النبى والذى كان قد عاد إلى مكة بعد خلاصه من الأسر رسالة إلى النبى (ﷺ) يبلغه فيها بخبر حملة قريش ، فبلغ رسوله المدينة بعد ثلاث ليال ، وبلغ المشركون مشارف المدينة عند ذى الحليفة فى عشرة أيام ، واتجهوا منها إلى شمال المدينة ، ونزلوا عند سفح جبل أحد فى بقعة بها الماء والكلأ ، فأرسل النبى (ﷺ) عيونه يستطلعون أحوال العدو بدقة، وفى يوم الجمعة تشاور مع صحابته فى المسجد وكان قد استدعى إلى هذه الجلسة أيضا عبد الله بن أبى رغم أنه لم يشاوره فى أى أمر من قبل ، فرأى عبد الله ضرورة البقاء بالمدينة لجذب القتال إلى الداخل ، وكان النبى (ﷺ) ميالا لهذا رأى ، أما الآخرون فقد أصرروا على الخروج إلى الصحراء للقتال ، فاتخذ النبى عدة الحرب ، فخرج الناس من حمل الرسول (ﷺ) على قبول رأيهم ، إلا أن النبى قال : " لا ينبغي لنبى أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل " ، ثم خرج فى ألف من المسلمين ، وفى شوط عبد الله بن أبى عزم النبى على الرجوع فى ثلاثمئة من أتباعه ، وعزمت قبيلتا بنى سلمة وبنى حارثة لذلك على الرجوع ، لكن الله ثبتهم ، ووردت فى القرآن إشارة إليهما :

﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْتَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (1)، فواصل النبى (ﷺ) طريقه مع سبعمئة من أتباعه وجواديهم فقط ومئة مقاتل يرتدون الدرع فبلغوا أحدا ليلا ، وفى الغداة اصطف الفريقان ، وأمر النبى خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن حبير بأن يصطفوا فى مواجهة فرسان العدو يصدونهم، وبدأ القتال رجلا لرجل كما هو معتاد آنذاك، ثم بدأ الفريقان فى الهجوم العام، فانتصر المسلمون فى مستهل الهجوم واخترقوا أعماق صفوف جيش العدو وأعملوا القتل فيهم، إلا أن الرماة خوفا من أن يخرحوا بلا نصيب فى الغنم تركوا مواقعهم، وبهذا سحقت الفرصة لفرسان العدو بقيادة خالد بن الوليد فأحاطوا بحيش المسلمين وتغيرت موازين الحرب ، وكان النبى (ﷺ) فى ذلك الوقت واقفا يرقب سير

(1) سورة آل عمران ، آية 122 ، المترجم .

القتال فى مقر قيادته برفقة عدد من حراسه ، فهاجم عدد من المشركين موقعه وجرحوا
النبي وعلا الصياح بأن النبي قد قتل ، فلحقت الهزيمة بالمسلمين مرة واحدة ولاذ عدد من
جندهم بالفرار من المعركة ، ولجأ النبي (ﷺ) مع من تبقى من أصحابه معه إلى واد ،
واتجه أبو سفيان إلى المسلمين وصاح : " أعل هبل ، موعدنا العام القادم فى بدر " .

بدأ المشركون بعد ما حققوه من نصر فى الاستعداد للعودة ، وكان النبي (ﷺ)
يخشى أن يغير المشركون على المدينة ، فأرسل من أتاه نبأ أن المشركين حين اقتربوا من
المدينة اختلفوا فى رأى حول دخول المدينة ، وفى النهاية انصرفوا واتخذوا طريق مكة
على ظهور الإبل ، فاطمأن المسلمون وبدأوا فى دفن قتلاهم ، فأتى النبي (ﷺ) على
رؤوس القتلى وقال : " أنا شهيد على هؤلاء " ، وعزم البعض على نقل قتلاهم إلى
المدينة ولكن النبي (ﷺ) منعهم ، فتم دفن كل اثنين أو ثلاثة من الشهداء فى قبر ،
وكان عددهم أربعة وسبعين شهيدا ، أربعة من المهاجرين والباقيين من الأنصار ، وبلغ عدد
قتلى العدو عشرين قتيلا ، ومن شهداء أحد المشهورين حمزة " سيد الشهداء " عم النبي
الذى استشهد بحربة غادرة من غلام جبير بن مطعم ، وحزن النبي (ﷺ) حزنا شديدا
على موت حمزة وبكى ، وقبر حمزة معروف فى أحد وهو من المزارات ، ويروى أن عبد
الله بن جحش مدفون فى نفس القبر .

وعاد النبي (ﷺ) إلى المدينة مع صحابته والنساء اللاتى جئن فى أثر شهدائهن ،
وفى اليوم التالى أذن مؤذن النبي بأن كل من كان فى الحرب عليه اليوم أن يمضى بصحبة
النبي لتعقب الأعداء ، فاحتشد الناس على ما بهم من جراح وإعياء وذهبوا مع النبي ،
ويروى أن النبي كان يهدف من هذا التحرك إلى إلقاء الرعب فى قلوب الأعداء ولكى
يعلموا أن المسلمين لا تزال قوتهم باقية ، ونزل الركب فى حمراء الأسد على مسير يوم
من تحرك قريش منها ، فأوقدوا النار على التلال المحيطة وفى أماكن متفرقة لإيهام العدو
بكثرة عددهم ، ثم عادوا إلى المدينة ، وفى الطريق سقط اثنان من جند العدو ضلا الطريق
فى يد المسلمين ، وهما أبو عزة الشاعر ومعاوية بن المغيرة ، وتم قتلها بأمر من النبي ،
وتعرف هذه الواقعة بغروة حمراء الأسد .

وفى أعقاب غروة أحد انشعل السى بمراعاة المسلمين ، ونزلت آيات عديدة من بينها :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَرِّقُونَ ﴾ (1)،

وآية ﴿ غَمًّا يَغْمِرُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا

أَصَابَكُمْ ﴾ (2) وغيرهما كثير مما أورده ابن هشام، وفي هذه الآونة نزل حكم الإرث بصدده أبناء سعد بن الربيع الذين استولى أحدهم على ميراثهم، وفي هذه الآونة أيضا صدر الأمر بقتل حارث بن سويد الذي كان من منافقي المدينة لقتله أحد المسلمين يسمى مجذر في يوم أحد بسبب قتله لأبى حارث في الجاهلية، ومن وقائع العام الثالث بعد الهجرة أيضا ميلاد الحسن بن علي.

العام الرابع بعد الهجرة :

بلغ النبي أن قبيلة بنى أسد تعتزم الهجوم على المدينة ، فأرسل النبي (ﷺ) أبا سلمة المخزومي على رأس مئة وخمسين جنديا (في أول محرم من السنة الرابعة) ، وكان يسير ليلا ويختبئ نهارا بأمر من النبي إلى أن بلغ قطن (3) ، ففر الأعداء وعاد أبو سلمة بالغنائم والأسرى ، وكان أبو سلمة من جرحى أحد ، وفي الطريق انفتح حرحه وتوفي متأثرا به بعد فترة .

وفي الخامس من محرم أمر النبي عبد الله بن أنيس بصد سفیان بن خالد اللحياني شيخ قبيلة هذيل للذئوع خبر بأن سفیان ينوي تجريد جيش يهاجم به المسلمين ، فنزل عبد الله في حي يقال له عرفة عند سفیان وقتله وعاد برأسه إلى المدينة، فمنحه النبي (ﷺ) عصا كجائزة.

وفي شهر صفر من ذلك العام وقع ستة من أصحاب النبي في يد الكفار في ربيع بالقرب من مكة، ويروى أنهم كانوا قد أوفدوا لتعليم الأعراب شئون دينهم وهم أعراب عضل وقارة ، وفي ربيع أغار عليهم اللحيانيون فقتلوا أربعة منهم واستسلم آخرون وتم أسرهما وبيعا لقريش في مكة، فقتلتهم قريش قصاصا لقتلهم في بدر، وتعرف هذه الحادثة بسرية ربيع .

(١) سورة آل عمران، آية 169، (الترجم).

(٢) سورة آل عمران، آية 153، (الترجم).

(٣) قطن (بنتح الأول والثاني) حل في منطقة فد في نجد

وفى نفس الشهر وقعت حادثة أشد أثرا وهي حادثة بئر معونة ، كان الرسول (ص) قد أوفد أربعين من صحابته - وفى رواية سبعين - لدعوة قبيلة بنى عامر بناء على طلب من شيخ القبيلة ، وفى بئر معونة هاجمهم عامر بن الطفيل وجمع من بنى سليم وقتلهم جميعا عدا عمرو بن أمية الضمري حيث وسم عامر على جبينه وسمها طلبا للرحمة على أمه ثم أطلق سراحه ، وفى الطريق التقى عمرو باثنين من بنى عامر فقتلها وعاد إلى المدينة ، وتألم النبي ألما عظيما لحادثة بئر معونة حتى أنه استنزل اللعنة على اللحيانيين وغيرهم من الأعراب بأسمائهم فى صلاة الصبح مدة شهر⁽¹⁾ ، وفى هذه الآونة أوفد بنو عامر رسولا إلى النبي يطالبون بدية العامرين اللذين قتلها عمرو بن أمية بمقتضى المعاهدة التى عقدها النبي معهم، فأراد النبي (ﷺ) أن يأخذ هذه الدية من يهود بنى النضير لأنهم كانوا قد أبرموا معاهدة مماثلة مع بنى عامر، فذهب مع عدد من أصحابه إلى قلعة بنى النضير وحلّس إلى جوار جدار بيت من بيوتها للتفاوض، وقبلوا اقتراح النبي ظاهريا، أما فى قلوبهم فقد اضمروا إلقاء حجر رعاة على رأسه من أعلى السطح، فأطلعه حبريل على ما اعتزموا، فعاد النبي إلى المدينة وأرسل إلى بنى النضير رسالة يأمرهم فيها بالرحيل عن أراضى النبي، فأذعن اليهود فى بادئ الأمر، إلا أنهم عادوا ورفضوا الرحيل بتحريض من عبد الله بن أبي، فخرج النبي مع صحابته مسلحين ومكبرين وعسكروا عند قلعة بنى النضير، وامتد الحصار خمسة عشر يوما إلى أن استسلموا، فاشتراط عليهم أن يتركوا أموالهم ويرحلوا وأن يأخذ كل ثلاثة منهم حملا وحملا ماء، وتم إبعادهم إلى أذرعات الشام (فى صفر من السنة الرابعة)، وتم توزيع ممتلكاتهم بين المهاجرة، وتعرف هذه الواقعة بغزوة بنى النضير ، وفى هذه الغزوة نزل حكم تحريم الخمر.

وبعد شهرين خرج النبي (ﷺ) إلى نجد قاصدا بنى محارب وبنى ثعلبة من طوائف غطفان ، وفى حى ذات الرقاع وهو اسم جبل التقى الجمعان ، إلا أن الحرب لم تنشب بينهما وعاد النبي ، وفى هذه الغزوة التى تعرف بذات الرقاع تقرر صلاة الخوف وأقيمت لأول مرة (فى جمادى الأولى من السنة الرابعة) .

وفى شهر شعبان ، وفى رواية الواقدي فى شهر دى القعدة خرج النبي (ﷺ) إلى بدر للموعد الذى ضربه أبو سفيان يوم أحد ، وعلى الجانب الآخر خرج أبو سفيان ومعه أهل

(1) الحميس ، ج 1 ، ص 508

مكة إلا أنه تردد في المضي عند مجئته حيث كان العام عام جفاف ، فعاد أدراجه ، وكانت هذه هي غزوة بدر الثالثة وتعد في رأى البعض بدر الثانية .

وفي نفس هذا العام أمر النبي (ﷺ) زيد بن ثابت بأن يتعلم كتابة اليهود ، فقد كانت كتب (1) الرسول حتى ذلك الوقت يدونها له يهود ، وقال النبي " لا آمن أن يبدلوا كتابي " ، وكان زيد بن ثابت شابا من الأنصار وكان قد تعلم الخط العربى من أحد أهل مكة تم أسره في غزوة بدر ، وهو زيد الذى قام بجمع المصحف وتدوينه في عهد عثمان .

وكان من أحداث هذا العام أيضا ميلاد الحسين بن على رضى الله عنه في شهر شعبان ، ووفاة فاطمة رضى الله عنها وزواج النبي من أم سلمة .

العام الخامس بعد الهجرة :

في ربيع الأول من ذلك العام خرج النبي إلى غزوة دومة الجندل ، وكان هذا المكان بقعة على رأس الطريق التجارى بين الخليج العربى والبحر الأحمر وكان منزلا للقوافل ، وكان قد بلغ الرسول (ﷺ) خبر بأن ثمة جمعا قد احتشد بهذا المكان وينوون سوءا ، فخرج في عدد كبير من أتباعه قاصدا دومة الجندل ، وظلوا يسرون بالنهار ويكمنون بالليل ، ولكن كان الجمع قد لاذ بالفرار ووقع عدد من الأغنام في أيدي المسلمين غنيمة ، وتكمن أهمية هذه الرحلة في أن هذه المنطقة كانت تقع على حدود الشام ، فوقف أهلها على مدى قوة الإسلام إلى حد ما ، ثانيا تأكدت قدرة المسلمين على الوصول إلى بقاع نائية وصحارى شديدة الحرارة ، وفي العودة عقد النبي معاهدة عدم اعتداء مع قبيلة فزارة وأذن لهم برعى أغنامهم على أطراف المدينة في ذلك العام الذى تميز بالجفاف .

وفي ذلك العام تزوج النبي (ﷺ) من زينب بنت جحش بعد أن طلقها زوجها زيد بن حارثة ، وفي تلك الآونة نزلت آية الحجاب وتقررت الأحكام على النساء عامة وعلى أمهات

(1) ربما كان المقصود بذلك الرسائل التى كان النبي (ﷺ) يكتبها لليهود ، ويروى البلادى عن زيد بن ثابت أنه بعد أن تعلم كتابة اليهود قال " كنت اكتب له إلى اليهود وإذا كتبوا إليه قرأ كتابهم " . (شرح البلدان ، ص 480) .

المؤمنين خاصة .

وفى شهر شعبان من نفس العام حدثت غزوة بنى المصطلق (1) ، وكان بنو المصطلق من قبائل خزاعة وكان الخزاعيون فى تلك الفترة على وفاق دائم مع النبى ، وإذا بنى يرد بأن بنى المصطلق قد احتشدوا ضد النبى ، فخرج النبى (ﷺ) قاصدا إليهم ومعه جيش المسلمين ، ونشبت الحرب عند بئر مريسيع قرب ساحل البحر الأحمر ، وكان النصر فيها للمسلمين وغنموا منها أموالا وأسرى .

تروى عن هذه الحرب عدة وقائع ، منها أن نزاعا قد وقع يوما بين أجير لعمر بن الخطاب وأحد موالى الخزرج ، فاستصرخ هذا معشر المهاجرين واستنجد ذاك بالأنصار ، فغضب عبد الله بن أبى وأغلظ القول للإسلام والمسلمين فى حضور جمع من قومه (الخزرج) . فقام شاب يسمى زيد بن أرقم كان من حضور المجلس بإبلاغ النبى بما جرى ، وكان عمر عند النبى فقال : " يا رسول الله مر عباد بن شربقتله " ، إلا أن عبد الله بن أبى جاء بنفسه إلى النبى وكذب زيد بن أرقم وتشفع له الأنصار ، فأمر النبى (ﷺ) الجيش بالرحيل مع أن ساعة الرحيل لم تكن قد حلت بعد حتى يحتوى الأزمة ، ثم نزلت الآية { إِذَا حَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ . . . } المنافقون ، آية (1) واسترضى النبى زيدا .

وفى طريق العودة إلى المدينة أتت جويرية بنت الحارث شيخ بنى المصطلق وكانت ضمن غنائم أحد المسلمين إلى النبى تطلب عونه ، فأشترها النبى من صاحبها وتزوجها ، وعلى أثر هذه الزيجة أطلق المسلمون سراح مائة أسيرة من أسرى بنى المصطلق بحكم كونهم من أصهار النبى (2)

وفى تلك العروة أيضا حدثت قصة الإفك ، وعند العودة إلى المدينة نزل الجيش عند ذات الجيش بالقرب من المدينة وأمضى جريا من الليل، ثم تحرك الجيش، وكان النبى (ﷺ)

(1) يرى كل من الطبرى واس هشام أن هذه العروة وقعت فى العام السادس ، إلا أن الواقدي وغيره كثيرين يعتبرونها من أحداث العام الخامس ، ويرى البعض أنها وقعت فى العام الرابع وهو ما يخالف رأى جمهور المؤرخين ويشير مشكلات تارحيمة ، انظر إمتاع الأسماع ، ح 1 ، ص 214

(2) الطبرى ، ح 3 ، ص 46

فى أسفاره يصطحب بعض زوجاته بحكم القرعة ، وفى تلك السفرة كان يصطحب عائشة ، وكان التقليد يقضى بأن يوضع هودج النساء والأستار مسدلة عليه عند باب خيمة النساء وقت التحرك ، فتجلس فيه المرأة ثم يأتى بعض الأفراد ويحملونه ، فوضع الهودج عند باب خيمة عائشة عند التحرك كما هو معمول به وأسدت عليه الستر ورفع على ظهر الجمل ، وعندما بلغ الجيش منزلا كان الهودج خاليا ، وبعد حين أتت عائشة على ظهر حمل فى مؤخرة القافلة وكان صحابى يسمى صفوان ممسكا بلجام الحمل ، وانتشر الخبر فى الجيش ، ولم تسلم عائشة من طعن المنافقين بل ومن عدد كبير من المسلمين أيضا ، وتقول عائشة نفسها عن هذه الحادثة : " عندما توقف الجيش ذهبت لقضاء حاجتى ، فضاعت قلادتى فتأحرت حتى أحدها ، وحين عدت إلى الركب كانت القافلة قد شدت رحالها ، وفى ذلك الوقت أتى صفوان وكان قد تخلف عن الركب لحاجة له ، فحملنى على حمل وأتى بى إلى منزل القافلة " ، وتآلم الرسول (ﷺ) ألما شديدا لهذه الحادثة ، فهجر عائشة حينما إلى أن تلتقى وحيا ببراءتها وتوبيخ من اتهموها ظلما ، فجاء النبى (ﷺ) بالبشرى لعائشة وأجرى الحد على أربعة ممن اتهموها ، وتقرر فى هذه الآية حكم لروم أربعة شهود فى دعوى الرنا ضمن هذه الآيات .

وفى شوال من ذلك العام وقعت عروة الخندق التى يطلق عليها أيضا غزوة الأحزاب ، وذهب عدد من يهود بى النصير المستبشرين ممن كانوا يسكنون بحير إلى قرش وقبيلة غطفان وحرصوهم على محاربة البى ، فاتحدت الطائفتان واستدوا إلى حلفائهم وحشدوا ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل للهجوم على المدينة ، فبلغ الخبر النبى ، فبدأ فى تعبئة الجيش وأمر بحفر خندق حسم ارتأى سلمان الفارسى وكانت المدينة تتمتع بمنعة طبيعية من ثلاثة جوانب بالبيوت والنجيل ، ولم تكن مكشوفة إلا من طرفها الحصى الغربى ، وتم حفر الخندق هناك ، وكان أحد طرفيه متجها إلى المدينة والطرف الآخر إلى جبل سلع ، وتم توزيع العمل على الطوائف ، فأخذت الفؤوس والمعاول من يهود بى قريظة ، وسار العمل بحدية تامة ، وكان البى (ﷺ) شارك فى العمل إضافة إلى تشجيعه المعوى لرفاقه ، وكان يردد معهم أغانيهم التى كانوا يتعمون بها فى عملهم ، ورأى ذات يوم فى الشرار المتولد من اصطدام المعاول بالأحجار ما تحمله الأيام التالية من فتوح للإسلام ، وبهذا تم إعداد الخندق فى غضون ستة أيام رغم أنها كانت سنة حفاف عالى الناس فيها

من نقص فى الأرزاق ، وعندما وصل الكفار وجدوا أنفسهم فى مواجهة إجراء عسكرى لا سابقة له عند العرب .

أمر النبى (ﷺ) جيشه بالتمركز على طول الخندق واقبمت له قبة من الجلد الأحمر ، وأقامت النساء فى أبراج حصينة ، وتم تعيين عدد من الحراس بالمدينة للحيلولة دون وقوع أية فتنة محتملة ، كما وقف عدد آخر لحراسة النبى وعدد آخر لدعم المناطق الضعيفة من الخندق ، وعسكر الفريقان على جانبى الخندق فى المواجهة ولم تحدث سوى بعض المناوشات بالسهم والحجارة ، وذات يوم تمكن عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبى جهل ومعهما عدد آخر من عبور إحدى النقاط الضعيفة من الخندق ، وسارع المسلمون لصدهم ، فقتل على رضى الله عنه عمرو وفرق رفاقه ، وفى اليوم التالى قام الكفار بشن هجوم مكثف حتى تعرضت قبة النبى للخطر ، إلا أن شجاعة المسلمين ومهارة الرماة على وجه الخصوص مكنتهم من صد الحملة ، واستمر القتال فى ذلك اليوم حتى المساء وفاتت أوقات أداء الصلاة وقد جمعها الرسول (ﷺ) فيما بعد وصلاتها بهم قضاء ، وكانت هذه أول مرة تقام فيها الصلاة قضاء ، وقتل فى هذه المعركة ثلاثة من الكفار واستشهد خمسة من المسلمين ، وأصيب سعد بن معاذ شيخ الأوس بجرح توفى متأثرا به بعد حين .

يروى عن أم سلمة قولها . " كانت غزوة الخندق أصعب الغزوات وأشقها " ، وكان من مصاعبها الكبرى أن يهود بى قريظة وقفوا إلى جانب الكفار فيها بتحريض من حبي بن أخطب ، وطلب الرسول (ﷺ) من نعيم بن مسعود الذى كان من قادة قبيلة غطفان ووقف على الحياد فى هذه المعركة أن يحدث الفرقة فى صفوف القوم وقال له : " إنما أنت فىنا رجل واحد ، مخذل عنا إن استطعت فان الحرب خدعة " ، فذهب نعيم الذى كان يتظاهر بالحيادة مع كل الأطراف ، وأحدث الوقعة بين بنى قريظة وقريش وغطفان بخدعة مأكرة بحيث صار كل منهم يخشى الآخر . ومن ناحية أخرى ، دخل شيوخ غطفان فى مفاوضات منفصلة مع النبى بعيدا عن قريش على أن يحصلوا على ثلث محصول نخيل المدينة ويرحلوا ، إلا أن شيخ الأنصار سعد بن عبادة الخروحي وسعد بن معاذ الأوسى لم يوافقا على هذا الشرط وفضلا خوص الحرب ، وأصبح معلوما أن الأنصار لا يرضون بالتخاذل ، وحاء الحل من الغيب ، فهت ريع عاتية وتساقط المطر وعمت برودة شديدة لدرجة تعذر معها إيقاد النار وبناء التحصينات من حاسب الكفار ، فأعلن أبو سفيان تراجعهم وركب

جمله ومضى وتبعه الآخرون ، وفى اليوم التالى عاد النبى (ﷺ) مع المسلمين إلى المدينة ، وهكذا فض الاشتباك بين الجيشين بعد خمسة عشر يوما من المواجهة ، إلا أن نتيجة المواجهة بالنسبة للإسلام كانت كبيرة وهامة ، فقد أضحى ضعف قريش وقوة المسلمين واضحا أكثر من ذى قبل فى الداخل والخارج ، فعلت همة المسلمين وتخاذلت قوى الكفار ، وكانت موقعة الخندق إرھاسا بالانتصار النهائى للإسلام . لذا ، فقد قال الرسول (ﷺ) ، فى طريق العودة من الخندق : " الآن نغزوهم ولا يغزونا " .

وفى عودته إلى المدينة أمر الرسول (ﷺ) بإقامة خيمة فى المسجد لسعد بن معاذ الذى كان جريحا وأقام بها تحت الرعاية ، وما كاد النبى (ﷺ) يضع عنه سلاحه حتى تنزل عليه جبريل وأنبأه بأن الملائكة لم تضع سلاحها وبأنه يجب أن يخرج لملاقاة بنى قريظة ، فأصدر النبى أمره بالتحرك على الفور ، وعسكر الناس تحت قلعة بنى قريظة حتى صلاة العشاء ، واستمر حصار القلعة مدة خمسة وعشرين يوما وفى إحدى الروايات شهر ، وطلب منهم أن يذعنوا لحكم النبى لكنهم امتنعوا ، وكانوا يعرفون جرمهم ، وكان أبو لبابة⁽¹⁾ الذى كان وسيطا فى التفاوض قد أنأهم عن طريق الإشارة أن حكم النبى يقضى بقتلهم ، وكان الأوس الذين كانوا حلفاء بنى قريظة يتوقعون اتخاذ إجراء تجاه يهودهم يماثل ما اتخذ تجاه اليهود حلفاء الخزرج (يهود بنى قينقاع) ، أى النفى ، واستقر الأمر على تحكيم سعد بن معاذ زعيم الأوس ، فأتوا بسعد من المدينة رغم ما به من مرض ، وكان حكمه على غير ما توقعه اليهود والأوس ، فقد حكم بقتل رجالهم وأسر من تبقى منهم واقتسام أموالهم ، فجىء باليهود إلى المدينة مقيدى ونفذ فيهم حكم سعد، ويروى أن قتلهم بلغوا ما بين ستمئة وتسعمئة ، ولم يقتل من نساءهم سوى امرأة واحدة كانت قد قتلت مسلما بحجر ، وفى تقسيم أموالهم حصل كل فارس على ثلاثة أسهم وكل راجل على سهم واحد ، وكانت هذه أول مرة يتقرر فيها الفارق بين الراكب والراجل⁽²⁾ ، ومن بين الأسرى اختار النبى (ﷺ) فتاة تسمى ربيعة كأمة له ، ولما طلت على غير الإسلام فقد بقيت أمة حتى آخر حياتها ، وتم نقل عدد من الأسرى إلى نجد حيث تم بيعهم واستخدم ثمنهم فى شراء الجياد والسلاح ، وفى هذه الواقعة لم يقتل من المسلمين سوى

(1) كان أبو لبابة من الأوس (حلفاء بنى قريظة) ومن نقباء بيعة العقدة الاثنى عشر، (المؤلف) .

(2) أى الفرسان والمشاة ، (المترجم) .

فرد واحد ، وتمت إعادة سعد بن معاذ إلى خيمته بالمسجد ، لكن جرحه انفجر وما كاد حتى مات ، وتآلم النبي (ﷺ) وصحابته لوفاة زعيم الأوس الوفى ، أما أبو لبابة الذى خان النبي فى تفاوضه مع اليهود فقد أمر بالثول فى المسجد وتم تقييده إلى حجر إلى أن نزلت آية وقبلت توبته .

وفى تلك السنة أجريت مسابقة خيول فى المدينة بأمر من الرسول (ﷺ) ، فتقررت مسافة محددة للجياذ المضمرة (خيول الركض) ومسافة أقل للحياذ غير المضمرة ، وكان من المشاركين فى هذه المسابقة عبد الله بن عمر .

العام السادس بعد الهجرة :

ارتفعت فى هذا العام درجة النشاط العسكرى ، فكانت فرق الجيش فى حركة دائبة بين صد القبائل المعتدية وتعقب اللصوص والاستيلاء على قوافل قريش ، كما ازداد عدد الفرسان فى الجيش بدرحة ملموسة .

وفى شهر محرم نزل محمد بن مسلمة ومعه ثلاثون فارسا فى حى يقال له ضربة (بين البصرة ومكة) وفاجأوا قبيلة القرطاء فقتلوا عددا منها وفر الباقون ، وعاد المسلمون إلى المدينة وقد غنموا خمسين من الإبل وثلاثة آلاف من الأغنام ، وفى الطريق التقوا عابرا من بنى حنيفة فأسروه وأخذوه معهم إلى المدينة وقيده إلى عمود المسجد ، فتعرف عليه النبي (ﷺ) ، وكان ثمامة بن أنال شيخ اليمامة ، فأكرم ضيافته فأسلم وعاد إلى قومه ، وامتنع من بعد عن توريد القمح إلى مكة ردا لإحسان النبي إليه ، إلى أن عانت قريش فاشتكت إلى السى (ﷺ) حتى أذن بإعادة توريد القمح إليها .

وفى ربيع الأول أو جمادى الأولى خرج النبي (ﷺ) من المدينة قاصدا بنى لحيان لمعاقبتهم على قتل المسلمين فى سرية ربيع (العام الرابع بعد الهجرة) ، ويهدف ضمان مباغتتهم اتجه صوب الشام أولا وبعد قطع مسافة من الطريق حاد عنه واتجه بسرعة إلى غران التى كانت سكن بنى لحيان ، ولكن القوم كانوا قد فروا إلى الجبال ، فبقى النبي (ﷺ) بها يوما أو يومين ودعا لشهداء ربيع ، ثم اتجه إلى عسفان ومعه مئتان من

الفرسان بغرض ردع أهل مكة ، وأرسل عددا منهم إلى كراغ الغميم ثم عاد إلى المدينة .

وفى هذه الأثناء هاجمت المدينة جماعة من بنى فزارة واختطفوا عددا من النوق من القطيع الخاص بالنبي وكان يرعى فى غابة ، فحشد النبي المسلمين معلنا " الفزع " وعبأ جيشا فى ذى قرد وجرده لتعقب اللصوص ، واسترد الجيش النوق بعد أن قتل أحد أفرادها ، ويطلق البعض على هذه الغزوة اسم غزوة غابة فى حين يذكرها البعض باسم غزوة ذى قرد ، وذكر البعض تاريخها فى أعقاب الحديبية التى سيرد الحديث عنها لاحقا .

وفى ربيع الأول صدر الأمر لعكاشة بن محصن بأن يهبط على بنى أسد مع أربعين رجلا فى حى غمر ، ولكن ما أن بلغوا المكان حتى لاذ القوم بالفرار ، فعاد المسلمون إلى المدينة غانمين مئة من الإبل .

وكانت قبائل غطفان قد نزلت على مشارف المدينة بغرض الرعى وتعرضت قطعان المسلمين للخطر ، فصدر الأمر لمحمد بن مسلمة وعشرة معه بالخروج لاستطلاع الأمر ، وفى حى ذى القصة وقعت هذه الفرقة فريسة فى يد أعراب بنى ثعلبة وقتل كل أفرادها سوى محمد بن مسلمة الذى سقط جريحا فوجده أحد المسلمين وحمله إلى المدينة ، فأرسل النبي (ﷺ) أبا عبيدة بن الجراح ومعه أربعين رجلا فى أعقاب بنى ثعلبة ، فلاذ الأعراب بالجبال ، فغنم المسلمون عددا من الإبل والأغنام .

وفى جمادى الأولى كانت قافلة قريش فى طريقها إلى الشام على الطريق الساحلى ، فهاجمها زيد بن حارثة فى حى العيص فاستولى على كمية كبيرة من الفضة وعدد من الأسرى ، وكان من بين الأسرى أبو العاص ابن أخ خديجة ، وكان أبو العاص هذا قد وقع أسيرا فى غزوة بدر ثم أطلق النبي سراحه بشرط أن يرسل زينب امرأته إلى النبي بعد بلوغه مكة ، فأرسلها إلى المدينة برفقة أخيه كنانة ، وعندما وقع فى الأسر هذه المرة أتى به إلى المدينة فأمنته زينب ، فأطلق المسلمون سراحه إكراما لابنة النبي ، فعاد إلى مكة وجمع ماله وأفل عائدا إلى المدينة حيث دخل الإسلام وتزوج زينب بنت النبي بعقد جديد ، إلا أن زينب كانت قد أصيبت من قريش عند الهجرة من مكة بعد سقوطها من فوق الجمل على أثر ضربة رمح وجهت إليه ، وقد أجهضت على أثر سقوطها وظلت تعاني المرض إلى أن توفيت بعد ذلك بعام ، وعلى أثر موتها أصدر النبي (ﷺ) أمره بحرق من أصابوها

حيثما وجدوا ، لكنه أمر فى اليوم التالى بقتلهم بالسيف تخفيفا إذ " لا يحرق بالنار إلا رب النار " .

وفى جمادى الأخرى وقعت سرية حسمى ، كان دحية الكلبي عائدا من عند قيصر الروم إلى المدينة ، وكان محملا بأموال من هبات القصر أو بتجارة له حسب روايات أخرى ، وفى منطقة حسمى أغار عليه أعرابى يسمى هنيذ من قبيلة جذام واستولى على ماله ، فهبت قبيلة جذام التى كانت كلها من المسلمين وترتبط مع النبى بعهد لنصرة دحية واسترداد أمواله من قاطع الطريق ، إلا أن دحية جاء إلى النبى وطالب بدم السارق ، فأمر النبى (ص) زيد بن حارثة بالخروج مع خمسمئة آخرين ، وفى الصباح هاجموا قبيلة جذام وأعملوا فيها القتل والغارة واستولوا على ألف من الإبل وخمسة آلاف من الغنم وأسروا مئة امرأة وطفل ، فأسرع شيخ بن جذام إلى المدينة ، وفى المسجد رفع المعاهدة فى يده وطالب بالقصاص ، فقال النبى (ﷺ) وماذا أنا فاعل فى القتلى؟ فتنازل الشيخ عن دم القتلى واستقر الأمر على أن يسترد أسراه وأموال قومه ، فأرسل النبى عليا رضى الله عنه بعلامة منه (سيفه الخاص) إلى زيد بأمره برد ما تم الاستيلاء عليه من أموال وأسرى .

وفى شعبان أوفد النبى (ﷺ) عبد الرحمن بن عوف ومعه سبعمئة رجل إلى بنى كلب بدومة الجندل لدعوتهم إلى الإسلام ، وأوصاه إذا قبل القوم دعوته بأن يتخذ من ابنة شيخهم زوجة له ، وقال فى أمر الحرب : " قاتلوا من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تعذروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا فهذا عهد الله وسيرة نبىه فيكم " ، فطل عبد الرحمن فى دومة الجندل ثلاثة أيام ، فأسلم شيخ القبيلة وعدد من قومه وفرضت الجزية على الباقين ، وعاد عبد الرحمن ومعه ابنة الشيخ .

وفى شعبان ذهب رضى الله عنه مع مئة من المسلمين إلى قبيلة بنى سعد التى كانت تنزل ما بين فداك وخيبر ، ففر القوم واستولى المسلمون على خمسمئة من الإبل وعشرة آلاف من الأغنام غنيمة لهم .

وكان زيد بن حارثة قد مضى إلى الشام ومعه تجارة عدد من الصحابة ، فأغار عليه طائفة من بنى فزارة وجردوه مما معه ، وعندما أتى إلى المدينة أعاده النبى (ﷺ) مع جيش لمعاينة القوم (وكان ذلك فى رمضان) ، فبلغ زيد منزل القوم عند الفجر وقبض

على أم قرفة التى كانت بمثابة " ملكة " على قومها فقتلها وطاف برأسها فى المدينة ، وكانت قريش تعتبرها لا تهزم من فرط قوتها (1) .

وفى رمضان أيضا خرج عبد الله بن أنيس فى عدد من القوات ليلا على أبى رافع التاجر اليهودى الذى كان يقيم بخيبر فقتله ، يرى البعض أن هذه الواقعة حدثت فى العام الثالث بعد الهجرة ، وبعد مصرع أبى رافع اختار يهود خيبر رجلا يسمى أسير (أو يسير) بن رزام (2) زعيما عليهم ، وترددت أنباء عن تأمره ضد الإسلام مع قبيلة غطفان ، فذهب عبد الله بن رواحة فى البداية لتقصى حقيقة النبأ ومعه ثلاثة من رفاقه ، وذهب مرة أخرى إلى أسير مع ثلاثين رجلا وأوهمه بأن النبى يود لقاءه لتوليته إمارة خيبر ، فخرج من داره ، وفى الطريق قتله ومعه ثلاثين من قومه .

وفى هذه الأثناء أتى إلى المدينة عدد من عرب بنى عرينة وأعلنوا إسلامهم وأقاموا بها ، إلا أنهم سرعان ما اشتكوا من عدم ملائمة مناخ المدينة لهم ، فأرسلهم النبى (ﷺ) بقطيعه الخاص إلى البوادر حتى يستردوا صحتهم بلبن الإبل ومناخ البادية ، وذات يوم تعرض رعاة النبى للقتل وفى رواية قطعت أيديهم وأرجلهم وذراشوك فى أعينهم واختطف القطيع ، فأرسل النبى (ﷺ) كرز بن جابر الفهري ومعه عشرون رجلا لتعقب الجناة ، فعادوا بهم مسلسلين من غابة إلى البنى الذى أمر بقطع أيديهم وأرجلهم ثم شنقهم (جمادى الآخرة أو شوال) ، فنزلت الآية: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (3)

يرى البعض أن سرية مينا وقعت فى هذا العام ، فى حين يرى البعض أنها كانت فى العام الثالث ، يروى أن زيد بن حارثة خرج فى سرية إلى مدين وعاد بأسرى من مينا التى تقع على ساحل البحر وأول حدود مصر ، ثم عرضهم أصحابهم فى سوق المدينة للبيع بعد فصل الأمهات عن أطفالهن ، فبلغ النبى بكاء الأسرى ، فأمر بعد أن تحقق من أمرهم ألا يتم بيعهن إلا مع أطفالهن .

أمر النبى (ﷺ) عمرو بن أمية الضمرى بالذهاب إلى مكة لقتل أبى سفيان ، يروى

(1) ابن هشام المختصر ، الطبرى وابن سعد والإمتاع المصل .

(2) ورد الاسم فى بعض الكتب رارم ودارم (3) سورة المائدة ، آة 33

أن أبا سفيان كان البادىء فى هذا مع النبى وكان قد أوفد أعرابيا إلى المدينة لقتل النبى إلا أن أمره انكشف قبل تنفيذ ما أوفد لأجله ، ولهذا كان أمر النبى لعمره ، كان عمرو هذا قد تكرر ذكر اسمه فى تاريخ الإسلام مقترنا بالذكاء وسعة الحيلة وكان فى الجاهلية من رجال العرب الأشداء المعروفين . لذا، فقد تعرف عليه الناس حين دخل مكة فلادوا بالفرار، وقد ضحك النبى (ﷺ) حين قص عليه عمرو قصته هناك .

وفى نفس هذا العام أتى المدينة عشرة من قبيلة بنى عيس وأعلنوا إسلامهم ، وكانت بنو عيس قبيلة صغيرة إلا أنها عرقت بالشدة فى الحرب .

وهكذا، فى أواخر ذلك العام امتدت قوة الإسلام لتشمل شمال شبه الجزيرة العربية، فخضعت قبائل البدو بها، فأسلم بعضها وقبل البعض الآخر بدفع الجزية، وبقيت مكة نقطة المقاومة الوحيدة بالفعل، وفى ذى القعدة من ذلك العام فكر الرسول (ﷺ) فى السفر إلى مكة لأداء العمرة، كما رأى فى منامه أنه دخل مكة وأزال الأصنام من داخل الكعبة، فأطلع صحابته على ما اعتزمه وما رآه فى منامه، وكان أصحابه أيضا قد حرّموا الحج لسنوات عديدة وكانوا فى شوق لزيارة الكعبة، فأعدوا العدة للسفر، وأمر النبى (ﷺ) الأعراب عند أطراف المدينة بالانضمام إلى الركب، إلا أن كثيرا منهم اختلقوا الأعذار، ولم تنضم إلى الركب سوى قبيلة بنى أسلم، وصاروا منذ ذلك الحين يعدون ضمن المهاجرين.

ثم ترك النبى عبد الله بن أم مكتوم مكانه فى المدينة وخرج فى ألف وأربعمئة (وفى رواية سبعمئة) من أتباعه ومئة ونيف من الإبل للأضحية ، وفى ذى الحليفة أحرّموا ومضوا إلى مكة منها ملبين ، ولم يصطحب النبى (ﷺ) من أمهات المؤمنين فى تلك السفرة سوى أم سلمة ، وعزمت قريش على المقاومة ومنع النبى من دخول مكة ، وأقامت معسكرا لجيوشها بذى طوى ومعها عدد من الفرسان فى المقدمة بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ، فجاء بشر بن سفيان الكعبي بالأنباء إلى النبى فى عسفان وقال : " هذه قريش قد ارتدت حلود اليهود وخرجت بنسائها وأطفالها " ، فتأسف النبى (ﷺ) لعناد قريش وصلفها ، ولما كان لا ينوى القتال فقد عرج إلى الطرف الأدنى من مكة وبلغ الحديبية (قرب مكة) ، وبركت ناقته بها ، فقال الرسول (ﷺ) : " حسنها حاس الفيل، والذي نفسى بيده لا تدعوى قريش إلى خطة يعظمون فيها حرّات الله ومهـ

صلة الرحم إلا أعطيتهم " ، ثم قال لبديل بن ورقاء الخزاعي الذي كان قد جاء من مكة لرؤية النبي : " لم نأت لقتال ، إنما لزيارة الكعبة ، ولا ننوي هتك حرمة بيت الله ولا قتل أهلنا " ، وقال أيضا : " لقد أنهكت الحرب قريشا ، فإن شاعوا تركناهم مدة على أن يتركوني وسائر العرب ، وإن شاعوا سلكوا السبيل الذي سلكه الناس (أى الإسلام) ، وإن امتنعت عن كلا الأمرين فإنى أقاتلهم بما فى يدي على هذا الأمر " ، فعاد بديل إلى قريش وقص عليهم ما كان من النبي ، فثارت ثائرة سفهاء القوم ، وأما عقلاؤهم وأهل الرأي فيهم فقد أصغوا إلى ما قال الرسول (ص) واستمروا فى إرسال سفرائهم بهدف استمرار التفاوض ومزيد من تقصى الأمور ، وكان السفراء يطلعون قريشا على ما رأوا من عظم جيش المسلمين ، إلا أن عامتهم كانوا لا ينصتون ولا يقبلون نداء السلام ، وفى النهاية انشقت صفوفهم إلى فريقين ، فأرسل النبي (ص) عثمان لما له من مكانة لدى قريش رسولا إليهم ، ولم يلبث أن شاع الخبر بأن عثمان قتل ، فعزم النبي عزما حاسما على الحرب ، فجمع أصحابه وأخذ منهم البيعة التى سميت ببيعة الشجرة لأنها عقدت تحت شجرة سنط ، إلا أن عثمان عاد ومعه سهيل بن عمرو من طرف قريش لعقد الصلح مع النبي ، فتم إبرام معاهدة هدنة لمدة عشر سنوات ، وتضمنت المعاهدة شرطا بأن كل من يذهب دون إذن من وليه من جانب قريش يجب إعادته ، وأن كل من يأتى إلى قريش من المسلمين لا يسترد ، كما تركت الحرية لقبائل العرب فى الانضمام إلى قريش أو المسلمين وأن يصرف النبي النظر عن دخول مكة فى ذلك العام ويرجئه إلى العام التالى .

وعلى أثر عقد الصلح أمر النبي (ﷺ) الناس بإعداد الأضاحى وحلق الرؤوس للاعتمار، لكن الناس كانوا قد خرجوا من المدينة وفى خاطرهم فتح مكة فثاروا على هذه المعاهدة و " كادوا أن يهلكوا " كما يقول أحد المؤرخين، وأبوا الحلق والنحر إلى أن بادر النبي (ﷺ) بذلك ، فلم يدركوا الأهمية الحقيقية لهذا الصلح الذى كان بحق فتحا جليلا إلا حين نزلت الآية : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ (الفتح، آية ١) ، وكانت واقعة الحديبية كما وحده إليها المؤرخون اهتمامهم من أكبر فتوح الإسلام، فيقول الزهرى أن الناس ازدادوا تقاربا على أثر هذا الصلح وتلقوا دعوة الإسلام دون حائل يمنعهم عنه، فمالت إليه قلوب أعداد توازي أعداد من دخلوه فى الأعوام السابقة بل وزيادة.

وبعد عودة النبي إلى المدينة عاد إليها مسلم يسمى أبا بصير كان قد فر من سجن

قريش فطالبت به قريش بمقتضى المعاهدة ، فتم إرسال أبى بصير ، إلا أنه فى الطريق قتل
رسل قريش وأفل عائدا إلى المدينة ومنها رحل إلى ساحل البحر إلى مكان يقال له عيص
، فانضم إليه عدد آخر من مسلمى مكة وأخذوا يغيرون على قوافل قريش إلى أن ضاقت
قريش بهم ذرعا ، فطلبوا من النبى أن يستدعى أبا بصير إليه ، وتم إلغاء شرط استرداد
الفارين .

وفى هذا العام تقرر حكم الإظهار فى قضية أوس بن الصامت الذى طلق امرأته خولة
طبقا للعرف الجاهلى فاشتكت امرأته ثم نزلت الآية وتقررت الكفارة .

العام السابع بعد الهجرة :

فى أوائل ذلك العام بدأ النبى (ﷺ) فى دعوة ملوك الأمم المحاورة وزعمائها (1) ،
وبلغ النبى أن هناك تقليدا متعنا بين الملوك ألا يقبلوا أية رسالة غير ممهورة ، فأمر النبى
بأن يصنع له خاتم من الفضة نقشت عليه عبارة " محمد رسول الله " على ثلاثة أسطر ،
وتم ختم الرسائل به .

حمل دحية الكلبي رسالة امبراطور الروم الشرقية إلى والى البصرة الذى أرسلها بدوره
إلى الامبراطور وكان فى ذلك الوقت فى زيارة لبيت المقدس بالشام ، ويذكر بعض المؤرخين
أن الامبراطور كان يبطن الإسلام إلا أنه لم يجرؤ على إظهاره خوفا من قومه (2) .

وحمل رسالة ملك الفرس عند الله بن حذافة السهمي ، وكما هو معروف قام ملك
فارس خسرو برويز بتمريق الرسالة وأفحش القول للنبى إلى أن انقطع ملكه ، أما المقوقس
حاكم مصر فقد تلقى رسالة النبى بكل احترام ولو أنه لم يسلم ، وأرسل إليه الهدايا ومنها
جارتين قبظيتين إحداها مارية التى اتخذها النبى لنفسه والأخرى شيرين التى وهبها
لحسان بن ثابت ، ونقل عمرو بن أمية الضمري رسالة نجاشي الحبشة ، ويروى أن ملك

(1) يرجع بعض المؤرخين هذه المراسلات إلى العام السادس الهجرى ومن بينهم الطبرى، ويجمع آخرون بين
الرأيين فيقولون بأنها كانت فى أواخر العام السادس وان الرد عليها تم فى بدايات العام السابع

(2) الخمس ، ح 2 ، ص 38

الحبشة أعلن إسلامه وأوفد ولده مع عدد آخر من قومه إعلاناً للولاء إلى المدينة ، إلا أن الوفد لم يبلغ مقصده حيث غرق أفرادُه في البحر ، ويرد في التاريخ ذكر لرسالة ثانية أرسلها الرسول (ﷺ) إلى النجاشي يأمر فيها بإرسال جعفر بن أبي طالب وبقية المسلمين لديه إلى النبي وأن يزوجه أم حبيبة ابنة أسى سفيان التي كانت بالحبشة ومات عنها زوجها ، ولبي النجاشي المطلين وعاد المهاجرون بعد حين إلى المدينة .

وأرسلت رسالة للأمير الغساني الحارث بن أبي شمر ، فأرسل الأخير تقريراً بالموضوع إلى امبراطور الروم ، وطلب الإذن له بالخروج لمحاربة النبي ، إلا أن الامبراطور أمره بالتزام الصمت ، فأنعم الحارث على حامل الرسالة وأعاده سالماً (1) .

وكانت الرسالة السادسة خطاباً إلى هوذة بن علي الحنفي أمير اليمامة ، فأكرم هوذة وفادة الرسول لكنه كتب في رده أنه قد يعلن إسلامه إذا ما أشركه النبي في إدارة الدولة ، فقال النبي (ﷺ) " لو سألتني سيابة من الأرض ما فعلت ، ناد وباد ملكه " ، ومات هوذة في العام التالي .

وفي العام السابع حدثت غزوة خيبر ، وكانت خيبر منطقة يقطنها يهود ، وتضم قلاعاً عديدة وحدائق نخيل وقطعان ومالا وفيراً ، وكان الله قد وعد المسلمين هذا الفتح في الحديثية في قوله تعالى [وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فجعل لكم هذه] (2) .

خرج النبي (ﷺ) من المدينة في محرم وفي رواية في حمادى الأولى ومعه ألف وستمئة رجل منهم مئتا فارس ، ولم يكن مسموحاً لمن اقتصرت أهدافهم على العنائم بالمشاركة في هذه الحملة ، كانت المسافة بين المدينة وخيبر بيضا وثلاثين فرسخاً تقطع مع السرعة في ثلاثة منازل . وفي وادي ربيع الذي يقع بين خيبر ومنازل غطفان نزل الركب ، إذ لم يتمكن العطفانيون من تقديم العون لحلفائهم ، فعادوا إلى ديارهم خوفاً بعد أن كانوا قد قطعوا مسافة من الطريق باتجاه خيبر .

(1) الخمس ، (نقل عن الواقدي) ، ح 22 ، ص 42

(2) سورة الفتح ، آية 20 ، (المترجم) .

وتوالت فتوحات قلاع خيبر واحدة بعد الأخرى ، ولم تستعص سوى قلعة قموص ،
ويبدو أن قصة قتال على بن أبى طالب رضى الله عنه ومرحب التى اشتهرت وورد ذكرها
لدى كل المؤرخين قد حدثت عند هذه القلعة ، يروى عن بريدة الأسلمى أن النبى (ﷺ)
كان يصاب فى بعض الأحيان بصداع شقى يدوم يوما أو يومين ، فكان النبى يلزم داره ،
وفاجأه هذا الصداع فى أيام خيبر ، فحمل أبو بكر راية النبى ومضى إلى القتال ، ولكن
لم يحدث أى تقدم ، فمضى عمر فى اليوم التالى وعاد بدوره دون تحقيق تقدم ، وبلغ
النبى النبأ فقال : " غدا أعطى الراية لرجل يحبه الله ورسوله ويحبهما " ، وفى اليوم
التالى سلم الراية لعلى بن أبى طالب وأرسله للحرب ، فخرج لمقاتلة محارب يسمى مرحب
يرى ابن هشام أنه كان حميريا ، فقتله على ثم اتخذ لوحا يروى الرواى أن سبعة من
المقاتلين عجزوا عن حمله فجعله درعا وتقدم نحو القلعة ، ووقع كنانة بن الربيع بن أبى
الحقيق صاحب القلعة أسيرا ، وتم العثور على قدر من الكنوز تتعلق به فى إحدى خرائب
القلعة ، وطالبوه ببقية الدفائن فأبكرها ، فضربه الزبير بن العوام وصادها ، وفى النهاية
تم تسليمه لمحمد بن مسلمة ليقتله ثارا لدم أخيه محمود بن مسلمة الذى كان قد قتل فى
الحرب ، واتخذ النبى (ﷺ) امرأة كنانة وتسمى صفية لنفسه .

قسم النبى (ﷺ) غنائم خيبر الوفيرة بين أهل الحديبية أى من حضروا الحديبية ،
وكان الأسرى كثيرين أيضا ، وتقرر حين الاستسلام نفى الأهالى ، إلا أنهم طالبوا فيما
بعد باقتسام حدائق النخيل منا صفة استنادا إلى قولهم : " إنا أعلم بأمرها " ، فوافق
النبى بشرط أن يخرجهم منها فى أى وقت يشاء ، فكان يأتى مأمور من المسلمين كل
سنة وقت الحصاد ويحصل نصف المحصول ، وطل الأمر على هذا الحال حتى رمان عمر
حيث تم إخراج اليهود كلية من الجزيرة العربية

فزع يهود فذك من المصير الذى آلت إليه خيبر ، فأرسلوا رسولا وتصالخوا مع السى
على غرار ما تم مع خيبر ، ولما سلمت فذك دون قتال فقد كانت خالصة للنبى صلى الله
عليه وسلم ، وفى وقت عروة خيبر تفررت عدة أحكام شرعية منها تحريم لحم الحمر
المستأنسة بعد أن كان الناس يأكلونها فى وقت الحرب ، والسماح بأكل لحم الخيل والنهى
عن بيع الغنائم قبل تقسيمها

يروى أنه كان فى خيبر امرأة يهودية تسمى زينب ودست السم للنبي فى شاة مشوية ، وكان النبي يشعر به على فراش الموت . لذا ، فإن مسلمى صدر الإسلام يعتبرون النبي (ﷺ) شهيدا .

وفى زمن فتح خيبر أتى جعفر بن أبى طالب ومهاجرون آخرون من الحبشة إلى النبي ، وسر النبي لمجيئهم .

وبعد فتح خيبر بقى النبي (ﷺ) بالمدينة عدة أشهر ، وكان فى هذه الفترة يرسل السرايا تباعا إلى المناطق المجاورة ، وكان بعضها يعود غائما والبعض الآخر يعود خالى الرفاض ، إلا أنها كانت ذات فائدة حيث كان الإسلام يبسط نفوذه على البقاع المحيطة بصورة مطردة .

وفى ذى القعدة عزم النبي على أداء العمرة طبقا للمعاهدة التى أبرمها مع قريش فى العام السابق ، وكان فى ركب النبي ألفان من المسلمين ، وكان المعتمرون لا يحملون سلاحا سوى السيوف بمقتضى المعاهدة ، ولكن من قبيل الاحتياط حمل عدد منهم قدرا من الأسلحة ، أو ربما من قبيل ترهيب العدو ، وقرب مكة تركوا أسلحتهم بمر الظهران ودخلوا مكة ، وكان النبي (ﷺ) يتقدم الركب على ظهر ناقته القصوى ، وكان عبد الله بن رواحة ممسكا بزمامها ونشد :

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير فى رسوله

أحلت قريش المسجد الحرام واصطفوا أمام دار الندوة بشاهدون الركب ، وبالقرب من المسجد ترحل النسي عن ناقته وأخرج ذراعه اليمى من رداءه وقال " رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة " ، ثم بدأ فى الطواف ، وكان كلما مر بقريش هرول وأصحابه معه ، وبقى النسي بمكة ثلاثة أيام تروج فيها ميمونة ست الحارث بن عبد المطلب بواسطة العباس ، ثم أرسلت قريش حويطب بن عبد العزى فى جمع من قومه إلى النسي يطالبونه بالرحيل بمقتضى المعاهدة ، فقال النبى " ما ضرکم لو ترکتمونى أتروح وأطعمکم ! " ، فامتنعوا ، فخرج السى وترك وراءه أبا رافع غلامه فأحضر ميمونة إلى النسي فى سرف (1)

(1) فتح الأول وكسر الثامى ، موضح على بعد عشرة إلى سعة أمسال من مكة

فى تلك الرحلة اتضح للجميع مدى قوة الإسلام وصعف قريش ، وأدرك الجميع أن الشوك فقد القدرة على المقاومة وسرعان ما تتزلزل أركانه ، ونزل فى هذه الرحلة قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءُيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (سورة الفتح، آية 27)، وتسمى هذه السفرة "عمرة القضاء" حيث كان قضاء من عمرة العام السابق، وبعد العودة من مكة خرجت سرية فى ذى الحجة بقيادة أحزم بن أبى العوجاء قاصدا بى سليم، فاستشهد كل أفرادها على يد الكفار، وفى رواية ظل قائدها على قيد الحياة إلى أن عاد إلى المدينة

العام الثامن بعد الهجرة :

بدأ من صفر من ذلك العام بدأت الغزوات ، وكان الحديد أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص حاما فى بداية ذلك الشهر إلى المدينة مسلمين ، وبإسلامهما فقدت تريش اثنين من كبار رجالهم وأفاد الإسلام من إصمامهما إلى جيوشه، وفى شهر صدر أيضا خرج عبد الله الليث إلى كديد قاصدا بى الملوخ وعاد بالغنائم، وفى ربيع الأول غرى شعاع بن وهب بنى عامر، وخرج كعب بن عمير الفجارى ومعه خمسة عشر رجلا إلى ذات أطلاح على حدود الشام، فقتل القصاصيون بها كل أفراد الحملة عدا كعب الذى عاد إلى المدينة.

وفى شعبان أتى إلى عانة جمع من بى حشم لقتال النبى ، فأرسل السى عددا من أتباعه لتقصى الأحوال ، ففاحأوا قائد الحشميين رفاعة بن قليس وقتلوه بسهم ، ففر من معه وعاد المسلمون بالعائم الوفيرة وحرقت سرية أخرى بقيادة أسى قتادة إلى أضم ، وفى الطريق قتل أبو قتادة رجلا من حند عامر بن الأصط لسابق عدواة بينهما رغم أن عامر كان يتظاهر بالإسلام ، فمرلت الآية [يا أيها الذين آمنوا إذا صرستم فى سبيل الله فتبيرا] (1) ، لكن بعضا من المؤرخين يرون أن هذه الآية نزلت فى واقعة قتل مرداس بن

(1) سورة النساء ، آية 94 ، ذكر المؤلف نص الآية كما يلى (يا أيها الذين آمنوا إذا صرستم فى

الأرض فتبيرا) المترجم

نهيك (أو نهيك بن مرداس) على يد أسامة بن زيد فى سرية غالب بن عبد الله على بنى عمرة أو فى سرية الزبير بن العوام على فذك ، ويذكر الطبرى هاتين السريتين فى أحداث العام السابع .

وتم تجريد سرية بقيادة أبى عبيدة إلى بنى جهينة الذين كانوا يقيمون على ساحل البحر (ربما فى شهر رجب) ، ولم يذكر التاريخ عن هذه السرية سوى أن المسلمين عانوا الشدة والجوع وظلوا يقتاتون على أوراق الشجر بعض الوقت إلى أن عثروا على حوت ضخمة ملقى على الشاطئ ، فأكلوا منه وأخذوا من لحمه قدرا إلى المدينة ، ويطلق على هذه السرية اسم " سرية خبط " (1) .

وفى جمادى الأولى تم تجريد سرية مؤتة ، كان النبى (ﷺ) قد أوفد سفيراً يسمى الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك البصرة شرحبيل الفسانى ، فقتل الملك السفير فى مؤتة ، فجرد النبى جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل وحمل زيد بن حارثة قائداً عليه وقال : " لو قتل زيد فليتل جعفر بن أبى طالب الإمارة ، وإن قتل فعبد الله بن رواحة وبعده فليختر الجيش أميره " ، وفى معان بلغ المسلمين نبأ بأن العدو قد حشد جيشاً عظيماً من الروم والعرب فى اللقاء ، فمكثوا يومين بمعان للتشاور فى الأمر فيما إذا كان عليهم أن يستأنفوا المسير أم يبلغوا النبى وينتظروا صدور أمر جديد ، فحث عبد الله بن رواحة الجنود قائلاً : " مالنا وكثرة العدد ، إن حربنا لقوة هذا الدين ، فإما الفتح أو الشهادة " ، فقال الحند : " والله صدق ابن رواحة " ، وتحرك الجيش ، ونشبت الحرب فى اللقاء ، فقتل زيد وجعفر وعبد الله على التوالى ، فاختر الحند خالد بن الوليد أميراً عليهم ، فدبر خالد أمره وأعاد تنظيم الجيش الذى انهزم وعاد إلى المدينة ، فوجه أهل المدينة اللوم إليهم ، أما النبى فقد واساهم وواسى ابن جعفر .

وبعد حرب مؤتة انتشرت الأنباء بأن حشداً من بنى قضاة قد عزم على الهجوم ،

(1) بفتح الأول والثانى ، وهى تعنى ورقة الشجر التى تسقط بالعصا ، وهذا هو سبب تسمية السرية لدى كتاب السيرة ، لكن صاحب القاموس يرى أن خطأ كان اسم الموضع ، ويرى البعض أن هذه السرية كانت فى العام السادس ، الحميس ، ج 2 ، ص 83 .

فأرسل النبي إليهم عمرو بن العاص ومعه ثلاثمائة رجل ، وتوقف عمرو في الطريق وطلب امدادات من النبي ، فذهب معه أبو عبيدة بن الجراح ومعه مئتين ، فحمل عمرو على قبيلتي بلي وعذرة ، فتفرق جمعهم ، وبهذا استقرت قوة الإسلام على تخوم الشام على الرغم من هزيمة مؤتة ، وقويت شوكة العشائر التي تقطن تلك المنطقة والحليفة للمسلمين ، وخضعت أيضا عدة عشائر أخرى هي عبس ومرة وظبيان ، والأمر الأهم هو خضوع قزاة وشيخها عيينة الذي كان يناصب المسلمين عدااء شديدا واستسلام قبيلة سليم التي وقفت في وجه الإسلام ردحا من الزمن .

وفي شهر رمضان من ذلك العام عزم النبي (ﷺ) على فتح مكة ، وتهيأت الساحة لذلك حيث كانت عشيرة بني بكر التي ارتبطت بتحالف مع قريش في معاهدة الحديبية قد أغارت ليلا على عشيرة خزاعة التي تحالفت مع النبي وقتلت عددا من أفرادها بسبب ثأر لها ، فأمدت قريش بني بكر بالسلاح بل وروى أن عددا من رجال قريش شاركوا في الغارة متنكرين ، فجاءت خزاعة إلى المدينة تستغيث ، فعزم النبي على الخروج قاصدا مكة ، وأتى أبو سفيان إلى المدينة لإحراء مفاوضات لإصلاح ما فسد من علاقات خوفا مما يمكن أن تجره من عواقب ، إلا أنه عاد بلا نتيجة .

خرج النبي (ﷺ) بجيش عظيم يضم كل المهاجرين وعشائر البدو حديثة الإسلام من سليم ومزينة وغيرها ، ونزل الجيش ليلا بمر الظهران (منزل على الطريق إلى مكة) ، وأمر النبي كل فريق بإشعال النار حتى تتبين قريش ضخامة الجيش ، ونظرا لبطء حركة الجيش (مدة أسبوع) واتخاذ كافة الاحتياطات فقد ظلت قريش لا تدري شيئا ولو أنهم كانوا يخشون الهجوم بصورة عامة . لذا ، فقد خرج أبو سفيان مع رجلين آخرين من مكة لتقصي الأحوال ، فالتقى بالعباس في معسكر النبي ، ثم رافقه إلى النبي وتشفع له عنده ، فأسلم أبو سفيان وعاد إلى مكة بأمر من النبي لكي يعلن على الأهالي ضرورة أن يلزم كل بيته أو يتخذ ملاذا في دار أبي سفيان أو بالمسجد الحرام حتى يأمن على نفسه .

وتحرك الجيش بحشوده من مر الظهران ، ولم يلق أية مقاومة في طريقه ، جماعة واحدة من زعماء قريش العنيدون وقفوا في طريق خالد بن الوليد الذي تولى قيادة الميمنة على جيوش البدو ، فقتل من قريش اثنان وعشرون رجلا في مقابل رجلين من جيش خالد

وطارد المسلمون فلولهم إلى أن بلغ النبأ النبي فأمر خالد بالامتناع عن القتال ، وأعلن الأمان العام . لذا ، فقد أطلق على قريش اسم " الطلقاء " ، ولم يأمر إلا بقتل عشرة أو اثني عشر فردا كانوا يكتنون للإسلام عداوة شديدة ، وتمكن بعض منهم من الفرار .

وفى مكة بدأ النبي (ﷺ) بعد أداء الصلاة والطواف في تحطيم أصنام الكعبة ، ويروى أن الناس كانوا يرفعون عليا على أكتافهم حتى يزيل الأصنام من سقف البيت ، ثم وقف الرسول (ﷺ) على باب البيت وقال : " لا إله إلا الله ، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت وسقاية الحاج ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالإباء ، الناس لآدم وآدم خلق من تراب " ، ثم جلس على تل الصفا وتوافد الناس رجالا ونساء وباعوه على التوحيد وطاعة الله ورسوله .

عندئذ قام النبي (ﷺ) بتجريد سرايا إلى أطراف مكة بهدف تحطيم معابد الأصنام وإدخال القبائل في الإسلام ، ومن بين هذه الحملات خرج خالد بن الوليد إلى عشيرة بني جذيمة ، ورغم إدخالهم في الإسلام وتجريدهم من سلاحهم إلا أن خالد قام بأسرهم جميعا لسابق عدا كان بينه وبينهم في الجاهلية ، فسلم كلا منهم عهدة بين يدي أحد الجنود لكي يقتله ، ونفذ الجنود البدو الأمر ، أما المهاجرون والأنصار الذين كانوا بجيشه فقد أطلقوا سراح أسراهم ، وبلغ الخبر النبي فغضب ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد " ، ثم أمر عليا رضي الله عنه بالمضى إلى هؤلاء القوم ودفع دية القتلى كاملة .

وبعد خمسة عشر يوما من إقامة النبي بمكة حدثت غزوة حنين ، عقدت عدة عشائر تسمى هوازن حلفا مع أهالي الطائف بغرض محاربة النبي ، واحتشد جيشهم في أوطاس بقيادة مالك بن عوف ، فخرج النبي (ﷺ) إليهم في جيش تعداده اثنا عشر ألف حندي؛ ألفان منهم من أهل مكة من حديثي الإسلام، وخرج الجيش من مكة في السادس من شوال من العام الثامن بعد الهجرة، وتولى قيادته عتاب بن أسيد، وحين بلغ الجيش وادي حنين بدأ آل هوازن الذين كانوا قد نصبوا أكمنة في الوديان المحيطة في إطلاق السهام، واهمرت السهام غزيرة إلى درحة أن تشتت جيش الإسلام ولاذ حنوده بالفرار، ولم يصمد

سوى النبی وعلى والعباس وعدد من أهالی المدینة الشجعان المخلصین ، إلى أن عاد الفارون وشنوا الهجوم، وهنا أيضا نثر النبی (ﷺ) حفنة من الرمال فی وجه الأعداء كما فعل فی غزوة بدر واستمد عون الملائكة من السماء ، وما لشت هوازن حتى هزمت ولاذ حندها بالفرار ، فأرسل النبی (ﷺ) أبا عامر الأشعري لتعقب قلوبهم فی أوطاس ، ولما كانت هوازن قد خرجت بأموالها ونسائها وأطفالها فقد غنم المسلمون غنما وفيرا ، فكان نصيبهم أربعة آلاف من الإبل ومثلها من الأغنام وأربعة آلاف أوقية من الفضة وستة آلاف أسیر ، واستشهد من المسلمین فی هذه المعركة أربعة فی حين قتل من الكفار ما یقرب من سبعمئة.

ترك النبی (ﷺ) الغنائم والأسرى فی وادی جعرانة وأرسل طفیل الأوسی لتدمير معبد ذی الکفین للأصنام، وذهب نفسه على رأس جيش إلى الطائف، فاحتسأ أهل الطائف بالقلعة وكانت حصينة وبدأوا فی إطلاق وإبل من السهام، ویروی أن طفیل الأوسی أتى للمسلمین بالمنحنيق والدابة، وهاجموا القلعة بهما، إلا أن المتحصنین بالقلعة صبوا علیهم قطع حديد محمی، فزاد الموقف صعوبة، فنادى منادی النبی بأن كل من یرج من القلعة فهو حر، فخرج عشرة أفراد ونيف من القلعة، كما أمر النبی باضرام النيران فی الكروم، إلا أنه أصدر أمرا لاحقا بالعفو عن أهل القلعة، وفی النهاية رأى فی نومه ماما فسرہ أبو بكر على أن الإذن بفتح الطائف لم یصدر بعد، فعادوا إلى جعرانة، وهناك وفد على النبی وفد من هوازن وقدموا له فروض الطاعة وذكروا للنبی انتساب قبيلة سعد للنبی، وباء على أمر من النبی جاء بمثل هوازن للصلاة فی أثناء إقامة صلاة الظهر وأعلنوا ما جاموا من أحله على الصحابة، فقال النبی "كل مالی وما لبنی عبد المطلب فهو منكم"، فأجاب المهاجرون ومن بعدهم الأنصار قائلین "كل ما لنا هو لرسول الله"، وامتنعت عشیرتا فزارة وقيم ، فوعدهما النبی (ﷺ) بأن ینحهم ستة من الإبل بدلا من كل أسیر من أول غنیمة یتم الحصول علیها ، فأطلقوا كل أسراهم وتقرر تقسیم الأموال، وعندما أراد النبی العودة إلى خیمته أحاط به العرب وقالوا "قسم الإبل بیننا الآن"، وتزاحموا حوله حتى سقطت برده عنه ، فطالبهم بإعادة ردائه وأقسم لهم بأنه لو كان یملك من الإبل ما یوازی تعداد نخل تهامة لمحهم إياه، ثم قسم الغنائم، ومنح عددا من زعماء القبائل ما یروا على المئة من الإبل باسم تألیف القلوب، وكان من بینهم مالک بن عوف شیخ هوازن الذی

كان قد لاذ بالطائف بعد معركة حنين، وأكرم النبي وفادة رسوله وطلب منه الحضور فأعلن إسلامه ، ومنذ ذلك الحين كان يشتد على أهل الطائف ولواء للنبي ، ولم يحصل الأنصار على نصيب في هذه القسمة ، وعندما اشتكوا قال لهم النبي " أنا غنيمتكم " وأكرمهم .

وعاد النبي (ﷺ) إلى مكة للعمرة ، وبعد أداء عباداته اتجه إلى المدينة ، وترك إمارة مكة لعتاب بن أسيد نظير أجر يومى مقداره درهم واحد ، وولى معاذ بن جبل مهمة تعليم القرآن ، ووصل المدينة في ذى القعدة ، وفي الأشهر الأخيرة من ذلك العام أوفد النبي سفارتين : فأوفد علاء بن الحضرمي إلى البحرين لدى المنذر بن ساوى ملك البحرين برسالة مفادها : " بلغتنى رسالتك ورسلك ، كل من يتلو صلاتنا ويأكل من ذبيحتنا ويولى وجهه شطر قبلتنا فهو مسلم وإلا فعليه أن يدفع الجزية " ، واستقر الأمر على أن يقوم مجوس البحرين بدفع الجزية على أن يحظر الأكل من طعامهم والزواج منهم ، وأوفد عمرو بن العاص سفيرا إلى عمان لدى ملكيها جيفر وعبد⁽¹⁾ ولدى جلندى ، فأعلننا إسلامهما وقدا صدقة عن أموالهما ، وقام مجوس البلاد بدفع الجزية . وفي ذى الحجة من ذلك العام ولد إبراهيم ابن النسي من مارية القبطية .

العام التاسع بعد الهجرة :

في بداية العام اتجه العمال إلى البقاع المحيطة لتحصيل الصدقات ، وامتنعت قبيلة بنى تميم ، فتم تجريد سرية اليها بقيادة عيينة بن حصن الذى كان حديث الإسلام ، فأسر عددا منهم ، فأتى إلى النبي شيوخ بنى تميم يلتمسون عفوه ، فرد النبي أسراهم وأنعم بالجوائز على شعرائهم ، ونزلت عنهم الآية ﴿ إِنَّ الدِّينَ يُنَادُوكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الحجرات ، آية 4) .

واتجه عامل آخر هو الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق، وقابله جمع من رجال القبيلة، فخاف الوليد من تجدد العداء الذى كان بينه وبينهم فى الجاهلية، فعاد أدراجه وادعى أنهم خرجوا بقصد الحرب، فأراد النبي (ﷺ) أن يحرر اليهم حملة لتأديبهم، إلا أن وفدا

(1) ورد اسم الثانى بصورة مختلفة ، فقد ذكره ابن هشام باسم " عباد " وورد فى الطبرى باسم " عمرو " وفى الخميس (عبد) ، جلندى بصم الأول والثانى .

منهم مثل بين يديه وقالوا إنهم كانوا يقصدون استقباله واكرام وفادته وليس الحرب، فنزلت الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (الحجرات، آية 6).

وفى صيف ذلك العام تم تجريد عدة سرايا لتأديب القبائل المتمردة فى المناطق المجاورة، وكانت من بينها سرية خرجت لإخضاع الأحباش الذين أعلنوا تمردهم فى جدة ، وسرية بقيادة على رضى الله عنه إلى قبيلة بنى طى لتحطيم أصنامهم ، وفى هذه السرية تم أسر ابنة حاتم، فأطلقها النبى (ﷺ) وهبها ناقة، فذهبت إلى أخيها وحثته على دخول الإسلام ، فجاء معلنا إسلامه ، وفى تلك الآونة جاء إلى المدينة كعب بن زهير الشاعر المعروف وأعلن إسلامه ونظم قصيدة " بانث سعاد " فى مدح النبى فوهبه (ﷺ) بردة .

وفى صيف ذلك العام أيضا وقعت غزوة تبوك ، أتى إلى المدينة جمع من تجار النبط من الشام وأشاعوا أن الروم قد جمعوا قواتهم فى البلقاء بغرض شن الحرب على المسلمين وأن عرب الشام من لخم وجذام وعاملة انضموا إليهم ، فأمر النبى بحشد الجيوش وعلى خلاف معظم الغزوات أوضح الهدف من البداية حتى يعد المسلمون للأمر عدته ، وأخرج القادرون من الصحابة صدقات لنفقات القوات كل حسب قدرته ، وتم أيضا تعبئة قبائل البدو ، وتحرك جيش هائل ربما لم تشهد الجزيرة مثيله من قبل ، فكان قوامه ثلاثين ألف رجل ، كان الجو شديد الحرارة وكان العام شديد الجفاف ، وكان الخروج من المدينة بشمارها وظلالها أمرا صعبا على الناس ، إضافة إلى الخوف من الروم وقوتهم . لذا ، فقد تعذر عدد من الناس بالأعذار حتى لا يخرجوا ومهم عبد الله بن أبى ، ونزلت فى شأنهم الآية

ولى النبى (ﷺ) محمد بن مسلمة الأنصارى إمارة المدينة كما ورد لدى ابن هشام أو سباع بن عرفة كما يذكر الطبرى ، كما أمر على بن أبى طالب بالبقاء بالمدينة لرعاية الأهل وقال له " أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي "، ثم تحرك بالجيش من ثنية الوداع التى كان الجيش يعسكر بها ، وبلغوا تبوك بعد تحمل محن العطش والحرارة القاسية ، وهناك اتضح أن ما أشاعه التجار عن حشود الروم لم يكن صحيحا ، وكان الماء والظل فى تبوك وفيرا ، فتوقف بها النبى ، وتوافد عليه شيوخ أيلة والجرباء وأذرح من المناطق المجاورة وقدموا الجزية ، وعقد النبى مع كل منهم معاهدة أمان، وأرسل خالد بن الوليد من هناك إلى دومة الجندل لدى مليكها أكيدر الكندى ، فبلغه خالد

ليلا وأسره ، وعندما وصل النبي (ﷺ) إلى المدينة استدعى الملك الأسير بردائه المراءى بالذهب واصطلح معه على الجزية .

عاد النبي إلى المدينة في شهر رمضان ، ورد في البحار (ج 6) أن عددا من المنافقين يتراوح بين اثني عشر وخمسة عشر فردا كانوا قد نصبوا للنبي كميناً في مكان على الطريق ، فأطلع جبريل النبي على أمرهم ، فأرسل النبي (ص) حذيفة لإحباط عملهم ، وفي المدينة كان أول ما أمر به النبي تدمير مسجد ضرار في قباء ، ويذكر المؤرخون عن هذا المسجد أن اثني عشر من المنافقين كانوا قد أقاموه وعندما عزم النبي على الخروج إلى تبوك جاؤوا إلى النبي وقالوا " إنا بنينا هذا المسجد للمرضى ومن بهم حاجة وللبيالي المطيرة الباردة " ، وطلبوا منه أن يقيم الصلاة به ، إلا أن النبي أرجأ ذلك إلى حين عودته ، وبعد أن عاد أصدر أمره بتخريبه ، وقد ورد بالقرآن فيما يتعلق بهذا المسجد قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدَ ضَرَارٍ أَكْثَرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة ، آية 107) .

وفي المدينة توافد المتخلفون عن صحبة النبي في الغزوة يلتمسون العفو والعذر ، فعفا عنهم ، وفيما يتعلق بالثلاثة الذين أقروا بتقصيرهم أمر الناس ألا يكلمونهم إلى أن نزلت الآية ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ (التوبة ، آية 117) ، وبعد عدة أيام من عودة النبي جاءه وفد من ثقيف معلنا إسلامه ، وكان محيىء هذا الوفد مبعث بهجة وموضع اهتمام كبير بالنسبة للمسلمين نظرا لمكانة ثقيف ومدينة الطائف الهامة ، فأقيمت للوفد خيمة في ركن من المسجد وأتاهم الطعام من بيت النبي ، وطال أمد المفاوضات نظرا لمطالبة الوفد للنبي بالتجاوز عن الصلاة بالنسبة لهم وعدم تحطيم اللات ، إلا أن النبي لم يستجب لأى من المطلبين ، وفي النهاية تقرر أن يتم تحطيم اللات على يد غير الثقيفيين أنفسهم ، ثم تخير النبي شابا من أفراد الوفد كان قد تعلم قدرا من أحكام الدين في أيام إقامته المعدودة ، وكان يميل إلى إقرار الشورى بين المسلمين ، فعينه أميرا على الطائف وأمر أبا سفيان والمغيرة بن شعبة بتحطيم الصنم ، فذهبوا بصحة الوفد إلى الطائف ، وبهذا استسلمت الطائف التي ظلت أمدا على عنادها وصلتها

وبعد شهرين فتح الله على المسلمين فتحا جديدا وكان هذا موت عبد الله بن أبى ، فتخلص الإسلام من شر منافق كبير بالمدينة .

بعد غزوة تبوك إخضاع الطائف امتد نفوذ الإسلام ليشمل كل أرجاء الجزيرة العربية ، ومنذ ذلك الحين بدأت وفود القبائل وأمراء العرب في التوافد على المدينة ويشرفون بدخول الإسلام ، وكان الوفود ينزلون عادة ضيوفا على ديار الصحابة ويتوافدون على المسجد في مواقيت الصلاة ويعرضون مطالبهم في حضور جماعة المسلمين ، وبعد قبول الدين كانوا يعودون إلى بلادهم بعد أن يقدم لهم النبي (ﷺ) كتابا ومالا لنفقات الطريق ، وكان النبي في الغالب يوفد معهم من يتولى جمع الصدقات وآخر لتعليم شئون الدين والقرآن ، ويطلق المؤرخون على العام التاسع بعد الهجرة اسم " عام الوفود " .

وفي شهر ذي الحجة من ذلك العام أوفد النبي (ﷺ) أبا بكر أميرا لقافلة الحج من المدينة وكانت تضم ثلاثة من الحجاج ثم أوفد على بن أبي طالب من بعده لبيتلو على الناس سورة البراءة في موسم الحج ، فتلى على الآيات الأربعين الأولى من هذه السورة على الملأ في منى ، وفحواها أن الله ورسوله براء من الذين أشركوا وأن كل عهد باطل سوى العهود الموقوتة التي تراعى مددها ، ومنح المشركون مهلة مدتها أربعة أشهر لكي يعودوا إلى ديارهم وبعدها يقتل كل مشرك يرى ما لم يدخل الإسلام ، ولم يصرح لأى مشرك بأداء الحج من بعد ، كما صدر الأمر بحظر الطواف عريا ، وعندما تليت الآيات قال بعض المشركين لعلى " نحن نتبرأ من عهدك وعهد ابن عمك " ، وفي موسم الحج في العام التالي تم تنفيذ حكم البراءة بدقة فتطهرت مكة من المشركين .

العام العاشر بعد الهجرة :

قضى النبي (ﷺ) هذا العام كله بالمدينة منشغلا بالوفود وإيفاء عمال الصدقة ومعلمى الدين وتعاليمه إلى المناطق المجاورة ، وكانت معظم الأمور تتصل باليمن والجنوب، ففي أواخر العام السابق أوفد الأمراء الحميريون باليمن وأمير البحرين وغالبية عشيرة بنى بكر وقبيلة بنى حنيفة النصرانية وفودا تعلن دخولهم الإسلام ، وكان من بينهم وفود لقبيلة خولان وبجيلة وأزد وجراش ، وتم على يد مسلمى بجيلة تحطيم صنم ذى الخلاص الخاص بتلك القبيلة ، وكان من أهم أصنام الجزيرة العربية ، وكان معبده في الجاهلية يطلق عليه " كعبة اليمس " .

ومن حضر موت أتى أميران كنديان أحدهما يسمى وائل وكان ملكا على المناطق

الساحلية والآخر يسمى أشعث وكان ملكا على البقاع الداخلية ، أتيا بنفسيهما إلى المدينة وأعلنا قبولهما لدين الإسلام ، وتأكيذا على تمسكه بالإسلام تزوج أشعث أم فروة ابنة أبي بكر ، ومنذ ذلك الوقت كان للإسلام شأن مع هذا الرجل وعشيرته ، وكان دخول عرب قحطان في الإسلام بصورة عامة نقطة تعود إليها كثرة من الأحداث التي تلت .

ومن وفود ذلك العام وفد نصارى نجران ، فأرسلت قبيلة بنى الحارث التي تقطن نجران وتدين بالنصرانية عددا من رجالها إلى المدينة للقاء النبي والتباحث معه ، فدعاهم النبي (ص) للإسلام فلم يقبلوا ، فاقترح عليهم المباينة⁽¹⁾ فامتنعوا ، ثم عقدوا معاهدة مع النبي على أن يدفعوا الجزية وينعموا بالأمان ، وظلت هذه المعاهدة التي عقدت طبقا لأمر سورة التوبة سارية إلى عهد عمر رضى الله عنه حيث أخرجهم من الجزيرة العربية .

وكانت ثمة طائفة أخرى من بنى الحارث على غير النصرانية أوفد النبي إليهم خالدا ، فقبلوا الإسلام وأرسلوا إلى المدينة وفدا وتم إيفاد عامل عليهم ، وكانت ثمة طوائف كقبيلة نخع وبعض العشائر الأخرى لا تزال غير خاضعة ، فأرسل النبي (ص) عليا ومعه ثلاثمائة رجل ، فخرجت طوائف لقتاله وانهزمت ، وهى على رضى الله عنه الجند عن تعقبهم ، وعاد إلى دعوتهم للإسلام فقبلوا ، وعاد إلى النبي بالغنائم (وكان النبي آنذاك بمكة في حجة الوداع) ، وفي مطلع العام التالي (العام الحادى عشر) أتى إلى المدينة وفد من هذه العشائر .

وفي المنطقة الشمالية أيضا كان الإسلام في طريقه لفرض سيطرته ، فأرسل فروة بن عمر الجذامى الذى كان يقيم بمعا حيث كان يتولى الحكم في تلك الناحية من جانب دولة الروم البيزنطية رسولا إلى النبي وأعلن إسلامه ، ويروى أن هرقل ملك الروم غضب عليه وحكم عليه بالسجن فمات في سجنه .

وفي ذلك العام دخل فرس اليمن (الأنباء) الإسلام ، فأتى منهم شخص يسمى فيروز إلى المدينة وعرض على النبي إسلامه وإسلام قومه ، وفي خلال هذه الأحداث فجع النبي (ﷺ)

(1) " باهل " بعضهم بعضا احتتمعوا فتداعوا ، فاستنزلوا لعة الله على الطالم منهم ، وفي حديث ابن عباس . " من شاء باهلته أن الحق معى " (المعجم الوسط المترجم) .

فى ولده الرضيع ابراهيم فى ربيع الأول ، وحدث كسوف شمسى يوم وفاته ، فشاع بين الناس أن ذاك بسبب وفاة إبراهيم ، فقال الرسول (ﷺ) : " أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد " (1) .

وفى أواخر ذى القعدة خرج النبى إلى مكة بقصد أداء الحج وفى ركابه جمع كبير من الناس ، ولم يكن النبى قد أدى الحج منذ أوان الهجرة حتى ذلك الوقت ، وكانت أسفاره إلى مكة كلها فى صورة عمرة ، فكانت هذه أول حجة له بعد الهجرة وآخرها حيث انتقل إلى جوار ربه بعد ذلك بقليل ، لذا تسمى هذه الحجة " حجة الوداع " ، ولعل إحجام الرسول عن تكرار الحج يرجع إلى كراهته لرؤية المشركين فى بيت الله ، وعندما انزلت عليه اليرامة بالقضاء على الشرك زال المانع .

أحرم النبى فى ذى الحليفة، ثم سار بالذبائح و الحبيج، ورافقه فى هذه السفرة كل آل بيت النبى، ودخلوا مكة فى الرابع من ذى الحجة، وطاف راكبا راحلته حتى يكون مشرفا على الناس وكان يستلم الحجر بعصا فى يده، وبعد الطواف أمر من لم يحضروا دبيعة معهم بأن يعتمروا، وفى تلك الأوبة كان على رضى الله عنه قد عاد من اليمن ومعه عدد من الذبائح لحجة النبى ، ولما كان قد عزم على أداء الحج فقد أشركه النبى فى ذبيحته ، وفى غيبة على قام الحمود الذين كانوا معه فى اليمن بارتداء بعض الأردية التى غصوها هناك ، وعندما رآهم على أمرهم بخلعها ، فاشتكى الجنود ، فقال الرسول فى خطبة له " يا أيها الناس لا تشكوا عليا ، فوالله إنه لأخشن فى ذات الله من أن يشكى " (2) .

وفى يوم التروية ذهب النبى من مكة إلى منى حيث قام ، منى الحمرات ونحر الذبائح ، ثم طلب حلاقا وحلق شعر رأسه وقسم الشعر على أصحابه ، ثم امتطى ناقته وتلى حطة اشتملت على بيان لأحكام الدين ، وفى نهايتها قال : " اللهم هل بلغت ؟ " ، فقال الناس " نعم " ، فقال النبى " اللهم فاشهد " ، وعاد إلى مكة فى اليوم الثالث فطاف ومكث ثلاثة أيام ثم تحرك مع قافلة الحبيج صوب المدينة

ورد فى الأحبار أن النبى (ﷺ) جمع الناس فى منزل عدير حم بمقتضى وحى أرسل إليه

(1) المحسن ، ج 2 ، ص 163

(2) لم ترد عبارة (من أن يشكى) فى النص ، وتم إسالتها من اس هشام

وصعد منبرا ومعه على ، وبعد خطبة اشتملت على مواعظ وأخبار عن قرب وفاته قال : " إنى مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى ، كتاب الله وعترتى فى أهل بيتى لن يفترقا حتى يردا على الحوض " ، ثم أمسك بذراع على ورفعها وقال بصوت جهورى : " من كنت مولاه فهذا على مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله " ، ثم هبط من منبره ، فنزلت الآية : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ ﴾ (المائدة، آية 3) ، وحرى بنا أن نذكر أن حديث " من كنت مولاه " قد ورد كذلك لدى أهل السنة، ويكمن الخلاف بين الشيعة والسنة فيه حول تفسير لفظ "مولى" .

العام الحادى عشر بعد الهجرة :

مرض النبى (ﷺ) فى طريق عودته من حجة الوداع على أثر تعبته من السفر ، وفى تلك الآونة استفحل أمر الأسود العنسى فى اليمن ، وكان الأسود هذا قد أعلن عصيانه فى أواخر العام العاشر وأوائل ذلك العام فى صنعاء اليمن ، فادعى النبوة وأقلق عمال الإسلام ومن بينهم شهر بن باذان الفارسى الذى كان عاملا على صنعاء من قبل النبى، فقتله الأسود وأخذ امرأته لذا، فقد حلت الكراهية بينه وبين فرس اليمن (الأبناء)، فكتب النبى (ﷺ) إلى فرس اليمن وسائر المسلمين بها وأمرهم بقتل الأسود سواء بالقتال أو غيلة ، فاحتشدوا وانقضوا على الأسود ليلا بمساعدة من امرأته فقتلوه ، إلا أن خبر قتله جاء بعد رحيل النبى إلى المدينة .

وتعافى النبى (ﷺ) من المرض الذى ألم به مؤقتا ، ولكن فى ذلك الوقت ظهر كذابان آخران شقا عصا الطاعة ، أحدهما مسيلمة فى قبيلة بنى حنيفة باليمامة والآخر طليحة فى قبيلة بنى أسد بنجد ، واتبع الرسول فى شأنهما " سبيل الرسل " فى محاربتهم على حد قول المؤرخين ، فأثار عليهما المسلمين المجاورين لهما ، إلا أن أمرهما لم ينته الا فى عهد خلافة أبى بكر .

وفى أواخر شهر صفر من ذلك العام أمر النبى بتجهيز سرية لحرب الروم ، وولى عليها أسامة بن زيد وقال له : " سر إلى موضع مقتل أبىك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فاغز صباحا وحرقت عليهم فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء

وقدم العيون والطلائع أمامك " ، وأمر كبار المهاجرين والنصارى بالخروج مع الجيش .

وفى اليوم التالى ، يوم الأربعاء ، مرض النبى (ﷺ) مرة أخرى وألمت به الحمى والصداع ، ولكن فى غداة ذلك اليوم خرج من داره وعقد الراية لأسامة بيده وأصدر الأمر بالتحرك ، فخرج أسامة بجيشه وعسكر فى الجرف (على بعد فرسخ من المدينة) ، فبدأ الناس يحجمون عن الانضمام إلى جيش أسامة معتذرين بمرض النبى ، بينما دار على السنة البعض أن النبى (ﷺ) ولى شابا فى العشرين من عمره على المهاجرين المجريين ، فبلغ هذا اللفظ مسامع النبى فغضب . فخرج إلى المسجد رغم توعكه رابطا منديلا على رأسه واعتلى المنبر ، وبدأ كلامه بقوله أنه رأى فى الليلة السابقة فى منامه رباطين من ذهب عقدا على ساعديه وأنه استاء من ذلك وضاق ونفخ فيهما فطارا فى الهواء وأنه أول منامه بأن هذين القيدتين هما الكذابان صاحب البعامة وصاحب اليمن ، ثم قال أنه قد بلغه ما يقال فى صدد اشارة أسامة وأن كلاما قد قيل فى اشارة أبيه من قبله ، وأكد على كفاءته وجدارته بالقيادة وكذلك ابنه ، ثم طلب من الناس أن يمسحوا الطريق لجيش أسامة .

يروى أن النبى ذهب فى الليلة السابقة على مرضه إلى البقيع بصحبة غلامه أنى موهبة⁽¹⁾ ، وقال " أمرت أن استغفر لأهل البقيع " ، ثم وقف وسط المقابر وقال : "السلام عليكم أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، والأخيرة شر من الأولى " ، ثم قال لأنى موهبة : "جئ إلى بمفتاح كنوز الدنيا والخلود فيها وخيرت بين الدنيا وبين الجنة ولقاء ربي ، فاخترت الجنة " ، ثم استعمر لأهل القبور وعاد إلى داره حيث ألم به المرض .

كان النبى (ﷺ) يبقى بديار أمهات المؤمنين بالتناوب كعادته فى الأيام الأولى من مرضه ، ثم أقام بدار عائشة فيما بعد بموافقة كل نسائه وطل به إلى أن استقل إلى حوار ربه ، ودات يوم وفى شدة مرضه طلب أن يحضر إليه سعة أوان من الماء من آبار مختلفة وأن تعصب على جسده إلى أن اكتفى ، ثم خرج إلى المسجد وارتقى المنبر ، وبدأ خطبته بالاستغفار لأصحاب أحد ثم أوصى بالأنصار حيرا ، ثم وجه حديثه إلى المهاجرين وقال : "لقد زدتم عددا لكن الأنصار لا يراد عددهم ، فالأنصار ملادى ، فأحسنوا إلى من أحسن

(1) يقول مبيد فى الإرشاد أنه ذهب مع جمع من الناس وكان يستد إلى يد على رضى الله عنه

منهم واعفوا عمن أساء " ، ثم قال : " خير عبد من عباد الله بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ، كل من له حق لدى فليأخذه أو يحمله ، ولو كنت قد ضربت بدصاي على ظهر أحد أو قسوت على أحد فليقتص مني ، فما أنا بمبغض وما ينبغي لى " ، ثم هبط من فوق المنبر وأدى صلاة الظهر وعاد وجلس فوق المنبر وكرر ما قال ، حينئذ نهض البعض وعرضوا مطالبهم بينما انشغل بالدعاء بعض آخر ، ثم نزل النبي (ﷺ) من فوق المنبر واتكأ على كتف على رضى الله عنه والفضل بن العباس وعاد إلى داره متثاقلا يحر قدميه على الأرض من شدة مرضه .

وزادت وطأة المرض على النبي (ﷺ) وألمت به حمى شديدة لدرجة أنه يروى أن أحدا ما كان ليستطيع أن يضع يده على يده من شدة الحرارة ، وما عاد يخرج للصلاة ، ويروى أهل السيرة أنه أمر أبا بكر بالصلاة بالناس في حين يرى الشيعة أنه لم يحدد شخصا معيناً لذلك وأنه قال : " فليصل أحدكم بالناس فأنا مشغول بما بى " ، وأن عائشة هي التي اختارت أبا بكر للصلاة بهم .

وردد في أخبار العامة والخاصة أن النبي في شدة مرضه قال : " اتوني بدواة حتى اكتب لكم فلا تضلوا بعدى " ، فعلت الأصوات من حوله فتألم النبي (ﷺ) وأمرهم بالخروج ، وفي يوم الاثنين حيث كان المسلمون يؤدون صلاة الصبح في المسجد مع أبى بكر دخل النبي (ﷺ) المسجد ، وكاد الناس من فرحتهم لرؤياه (ﷺ) أن يخرجوا عن صلاتهم ، فأتى النبي إلى جوار المحراب وحلّس - كما جاء في السيرة - على الأرض بجوار أبى بكر وبدأ يصلى ، ويروى الشيعة أن أبا بكر تراجع عن المحراب وترك المحراب للنبي ليصلى بالناس ، وبعد انتهاء الصلاة اتجه إلى الناس وقال : " يا أيها الناس سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وأنى والله لا تمسكون على شيئا ، انى لم أحل لكم الا ما أحل لكم القرآن ولم أحرم عليكم الا ما حرم عليكم القرآن " ، ثم عاد إلى داره ، وعند صلاة الظهر من نفس ذلك اليوم رحل إلى الرقيق الأعلى ، وفي رواية لعائشة أن آخر قول صدر عن النبي كان : " لا يترك بجزيرة العرب دينان " .

وتروى أخبار الشيعة أن النبي (ﷺ) حين رحيله نادى عليا وأقر بأنه وصيه في

حضور العباس وآخرين ، وأكد مرة أخرى على خلافته (1) .

لا خلاف على أن النبي (ﷺ) توفي في يوم اثنين . لكن الخلاف حول الشهر واليوم الذي توفي فيه ، فيرى عامة المؤرخين أنه كان في الثاني عشر من ربيع الأول في حين يعتبره محدثو الشيعة في الثامن والعشرين من صفر ، وهناك من يرى أنه توفي في الثاني أو في الأول من ربيع الأول ، كما أن ثمة آراء تتسم بالضعف والغرابة .

قام كل من علي والعباس وعدد آخر من المقربين بغسل بدن النبي (ﷺ) ثم أسجوه على فراشه في نفس داره ، ونشأ خلاف حول مكان دفنه وما إذا كان ليدفن بالمسجد أم في مقابر الصحابة ، إلى أن روى أبو بكر قائلًا : " ما قبض نبي إلا ويدفن حيث قبض " ، وصلى على وأقرباؤه على النبي ثم أخذ الناس يتوافدون جماعات ويصلون عليه ويمضون ، ونشأ خلاف آخر أدى إلى تأخر الدفن ، فكان عمر يردد قائلًا " أن النسي لم يميت وإنما غيب كما ذهب موسى إلى الطور " ، وأقسم أنه سيعود ويقطع أيدي من قالوا بموته وأرحلهم ، وبينما كان عمر يردد قوله هذا في المسجد جاء أبو بكر ودخل المسجد وأسكت عمر بصعوبة واتجه إلى الناس وتلى آية من القرآن نصها : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ (آل عمران

، آية 144) ، واتبعها بآية ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (الزمر ، آية 30) ، ثم قال : " أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، اذهبوا وواروا حسد النبي " ، وأتى العباس أيضاً وأكد على موت النبي ، ثم أودع جثمان الرسول الكريم الثرى في ليلة الأربعاء في دار النبي نفسه وفي مكان فراشه .

ورد في أخبار الشماثل أن النسي (ﷺ) كان متوسط القامة عريض المنكبين ، كانت بشرته بيضاء مشوبة بحمرة ، وفي بعض الروايات كان قمحي الشرة ، وكانت رأسه كبيرة وشعره يبلغ شحمة الأذن ، وفي رواية يسدل على كتفه ، وكان الشعر يغطي كتفه وساعديه مع وجود خط من الشعر يمتد حتى وسط بطنه ، وكان عالي الجبين قوى اليدين

(1) وتؤكد ما هنا على ما ذكره المؤلف من أن هذا الخبر قد انتصر على كتب أخبار الشيعة ، (المرحم)

والرجلين ، كان حين يمشی " كأنه يقتلع من صخرة أو كأنه ماء ينساب من جبل " (1) ،

وكانت نظرتة دوما الى الأرض وقلما كان يرفع رأسه ، وكان قليل الكلام ، وكان عندما يتجه بنظره إلى شيء يتجه إليه بكل بدنه ، وفي اشارته كان يشير بيده كلها ، وفي دهشته كان يقلب كفيه ، وفي حديثه كان يضرب انهام يده اليسرى في كف يمينه ، وحين العصب كان يتحول بوجهه ، وحين الفرح كان يغمض عينيه ، وكان ضحكه ابتساما

كانت ملابسه غالبا بردتين من القطيفة إحداها حول خصره والأخرى على كتفيه ، وكان يرتدى القميص ، وكان يحبه ويفضله على كل الملابس طبقا لرواية الترمذی ، وكان أحيانا يضع قلنسوة على رأسه وأحيانا أخرى عمامة ، وفي بعض الأحيان كان يلبس القلنسوة ومن فوقها العمامة ، وكان لديه ثلاث قلاتس ، إحداها بيضاء اللون وأخرى سوداء اللون والثالثة تغطي الأذنين كان يصعها على رأسه في الأسفار والحروب ، كما كان يرتدى في أسفاره جبة ذات أكمام .

كان الرسول عليه صلوات الله وسلامه يولى عناية كبيرة للاغتسال ونظافة البدن والملبس وكان كلما هم بالخروج يتعطر ويمشط شعر رأسه ، وكان عندما يتوضأ يمسح بمنديل على وجهه ، وكان يخصص رداء خاصا ليوم الجمعة ، وكان يستخدم المسواك لتنظافة أسنانه قبل النوم وبعده وفي أيامه الأخيرة في الدنيا طهرت عدة شعرات بيض على عارضيه ومفرق رأسه ، وثمة خلاف حول ما إذا كان النبي قد استخدم الخصاب ، وكان النبي حسن العشرة مع أصحابه ، وكان قنوعا ومتسظا في غذائه ، ويروى انه لم يمتدح أو يذم طعاما أبدا ، ويروى عن الامام الصادق قوله . " كان رسول الله يأكل أكل العبد ويحلس حلوس العبد ويعلم انه عبد " (2)

* * *

(1) البحار ، ج 6 ، ص 176 وغيره من الكتب .

(2) البحار ، ج 6 ، ص 202 .

الفصل الرابع الخلفاء الراشدين

خلافة أبي بكر

عندما كان على منشغلا بغسل النبي كان أبو بكر يخطب في المسجد عن وفاة النبي ، فبلغ عمر أن الأنصار في دار سقيفة بني ساعدة قد اجتمعوا لتعيين أمير للمسلمين ، فأخبر عمر أبا بكر بالأمر فأسرعا إلى السقيفة ، وفي الطريق قابلا أبا عبيدة بن الجراح واصطحبا معه ، كانت الأنصار من أوس وخزرج مجتمعين بالمكان وكان سعد بن عباد شيخ الخزرج جالسا رغم مرضه وبجواره يتحدث بلسانه يتكلم ويعدد أفضال الأنصار وكيف آوا النبي وأسبغوا عليه حمايتهم بعد أن خذله أهله بمكة ، وعلى هذا فإن الأنصار يكونون أحق بالخلافة من المهاجرين ، وهنا نهض أبو بكر وبدأ حديثه بالثناء على فضل المهاجرين والأنصار على السواء مع التركيز على المهاجرين في الدرجة الأولى حيث أنهم أهل النبي وأول من آمنوا برسالته وأنهم ثبتوا على عبادة الله الواحد ونصرة نبيه رغم معارضة الناس وإيذائهم لهم ، أما الأنصار - والحديث لا يزال لأبي بكر - فرغم أن خدماتهم للأسلام لا مجال لنكرانها فيأتون في الدرجة الثانية ، لذا فالمهاجرون أحق بالخلافة وأن العرب لن يجتمعوا تحت راية لغير قريش ، فاقترح بعض الأنصار أن يتم تنصيب أميرين أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار ، وكان هذا الاقتراح طبقا لقول سعد بن عباد أول صنف يصيب الأنصار ، فرفضه أبو بكر وقال « لنا الامارة ولكم الوزارة ولن نقر أمرا دون مشورتكم ورأيكم » ⁽¹⁾ ، وبعد أبي بكر حدث كل من عمر وأبي عبيدة ، ثم عم الضبيج ، وفي النهاية بعث الخلفاء القديم بين الأوس والخزرج ، فالأوس وهم الأقلية رفضوا امارة الخزرج ووافقوا على أن تكون الامارة في المهاجرين ، ومن ناحية أخرى تحدث بشير بن سعد الخزرجي الذي كان يكن حقا على قريبه سعد الخزرجي وأوضح صحة رأي أبي بكر ، حيث اقترح أبو بكر كلا من عمر وأبي عبيدة أميرا على الناس ، بينما أثنى كلاهما على أبي بكر واعتبرا الأفضل لهذه المهمة ، وبادرا مع بشير بن سعد إلى أبي بكر وباعوه ، فماج المجلس وازدحم القوم على أبي بكر

(1) معروف أن أبا بكر استشهد في خطبته بعديث عن النبي أنه قال « الأئمة من قريش » واستشهد بالحاضرين شهدوا ، إلا أن الطبري وابن هشام اللذين أوردا حادثة أبي بكر (الطبري في الفصل وابن هشام في المختصر) لم يذكر هذا الحديث ، فما ورد لدى ابن هشام هو قول أبي بكر: « لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش » هم أوسط العرب سبا ودارا . أنظر: تاريخ الخلفاء ، ص 6 .

يبايعونه إلى درجة أنهم كادوا يطأون سعد بن عبادَةَ المريض تحت أقدامهم ، فصاح أحدهم محذرا الناس من أن يطأوه ، فقال عمر « اقتلوه قتله الله » (1) ، فأمسك ابن سعد لحية عمر وكاد يشتبك معه لولا أن هدأ أبو بكر ثورة عمر ، وفى تلك الآونة جاءت قبيلة بنى أسلم حلفاء المهاجرين من خارج المدينة لمبايعة أبى بكر ، وازدحمت الطرقات بالناس ولم يكن ثمة مجال للشك فى استقرار الأمور ، ويروى عن عمر انه قال : « كانتبيعة أبى بكر فلتة وفى الله الناس شرها » ، وكان يقول انه لم يطمئن إلى نتيجة الأمر إلا حين أتت قبيلة بنى أسلم .

وفى غداة ذلك اليوم جلس أبو بكر بالمسجد لتلقى المبايعة العامة ، وافتتح عمر المجلس بكلمة موجزة أشار فى بدايتها إلى مقولته التى قالها فى اليوم السابق عن أن النبى لم يمت ويرر خطأه فى ذلك ، ثم أثنى على أبى بكر وعدد مناقبه وطالب الناس ببيعته ، فبايعه الناس ، حينئذ نهض أبو بكر ليتحدث إليهم ، فبدأ خطبته بحديثه عن عجزه تواضعا فقال : « وليت عليكم ولست بخيركم ، فلاتتظروا منى ما كان من النبى ، فقد كان معصوماً ، أما أنا فلى شيطانى الذى يوسوس لى أحيانا ، ولكن عليكم أن تعينونى على أمرى وإن رأيتم منى أعوجاجا فقوموه » ، ثم بشر الناس بعدله وأوصاهم بالطاعة والجهد ، وفى النهاية قال « قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » . (2)

امتنع عدد من الناس عن البيعة ومن بينهم سعد بن عبادَةَ ، وكان عمر يرى ضرورة انتزاع البيعة منه بالقوة ، إلا أن أبا بكر بنصيحة من بشير بن سعد خشى ثورة الخزرج فلم يقر به ، ومن حانبه أيضا امتنع سعد عن الصلاة مع أبى بكر ، وفى موسم الحج كان ينغزل عن جماعة أبى بكر ، وبعد وفاة أبى بكر ووصول الخلافة إلى عمر هاجر سعد بن عبادَةَ من المدينة إلى الشام واستقر فى حوران ، وفى منتصف ليلة وجد ميتا .

ولم يأت على وِسْوَ هاشم وعدد من الصحابة للبيعة ، فأرسل أبو بكر عمر ومعه عدد من الناس إلى دار على لكى يأتوا ببنى هاشم الذين كانوا محتجعين عنده ، فهجم الزبير

(1) وردت هذه المقولة بالعمل فى تاريخ الطبرى (ح 3 ، ص 225) .

(2) متن الحطة فى الطبرى ، ح 3 ، ص 211

ابن العوام بسيفه عليهم ، فأثروا العودة حتى لا تكون فتنة كبرى ، لكنهم بايعوا أبا بكر بعد وعد العباس وطلحة والزبير ووعيدهم ، وطبقا لرواية الزهري التى نقلها الطبرى والبخارى ومسلم فإن عليا لم يقدم بيعته مدة ستة أشهر أى طوال المدة التى بقيت فى عمر فاطمة ، وبعد وفاتها وتحول الناس عن على اضطر إلى البيعة (1)

قام أبو بكر بمصادرة فذك وغيرها من الأراضى التى كانت ملكا للنبي فى حياته ، وعندما طالبت فاطمة بإرثها روى لها حديثا عن النبي مفاده « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، وما يبقى منا صدقة » ، أى يدخل ضمن المال العام (2) ، لذا فقد استأمت فاطمة من أبى بكر ولم تتحدث إليه طوال حياتها ، وعندما توفيت دفنها على ليلا ولم يخبر أبا بكر . (3)

* * *

بعد وفاة النبي اضطربت الأحوال فى الجزيرة العربية حيث امتنع عدد من القبائل عن دفع الزكاة ، إضافة إلى القبائل الأخرى التى التفت حول الثلاثة أدعياء النبوة ، وبهذا فقد كانت أوصاع خلافة أبى بكر تتسم بالمخطورة منذ بدايتها ، ولكن لحسن الطالع فقد ظلت أغلبية القبائل على إسلامها أو على الأقل فى حالة انتظار ، وبقيت المدينتان الرئيسيتان مكة والطائف على ولائهما على يد زعمائهما ، وظهر فى مكة حديث عن الارتداد لكن سهيل بن عمرو هدأ ثورة الناس بالوعيد ، وفى تلك الآونة كان الناس فيما عدا المسلمين الذين ثبتوا على إيمانهم ينقسمون إلى ثلاث مجموعات : مجموعة ارتدت تماما عن الإسلام ومجموعة أخرى اقتصرت على الامتناع عن أداء الزكاة ولكنهم قبلوا الصلاة (4) والمجموعة الثالثة الأغلبية التى بقيت فى حالة ترقب .

(1) الطبرى، ح 3 ، ص 202 ، الصواعق المحرقة ص ، حتى لو صحت الرواية فلم يكن تأخر على قائما على رفض منه لمايعة عمر ، (المترجم) .

(2) بكر متكلمو أهل السنة هذا الخبر رغم أنه ورد لدى الطبرى ، راجع الشافى ، طعة طهران ، ص 288

(3) كل غرض المؤلف من فكرة توريث فاطمة التأكيد على مبدأ الوراثية فى الخلافة لدى الشيعة (المترجم)

(4) يطلق المؤرخون المسلمون اسم « مرتد » على الجماعتين على السواء ، فورد بالطبرى : « حاءته وفود العرب مرتدين بقرون بالصلوة ويسعون الزكاة » (الطبرى ، ح 3 ، ص 220) .

كان أول شيء قام به أبو بكر هو تجهيز جيش أسامة رغم أن كلا من مستشاريه عمرو وأبى عبيدة اللذين كانا شركاءه في الحكم لم يكن لهما ميل إلى تجريد الجيش في تلك المرحلة الدقيقة ، أما أبو بكر فقد رأى ضرورة اتخاذ تلك الخطوة لإظهار اهتمام حكومته بتنفيذ أوامر النبي ، فأرسل أسامة إلى مؤتة في مركب مهيب ، واستأذنه في أن يبقى على عمر بالمدينة ، واستولى أسامة على قصبة أبنى في البلقاء وبعد إتمام المهام التي أسندت إليه عاد إلى المدينة ، واستغرقت تلك الحملة أربعين يوما .

وفي هذه الأثناء توالى الرسائل من عمال المناطق المحيطة مشتملة على أخبار مسيلمة وطلحة وتشتت عمال الإسلام واضطراب الأمور ، وأخذ أبو بكر يرد على كل رسالة ورسول يحثهم على الصمود والمقاومة وانتظار عودة جيش أسامة ، وتوافد النواب من قبل القبائل الشائرة معلنين قبولهم للصلاة ولكن مع الامتناع عن أداء الزكاة ، ورأى وجوه الصحابة وجوب المداراة مع هذه القبائل استنادا إلى قبولهم للقبلة وإلى عدم حواز مقاتلة أهل القبلة خاصة في تلك المرحلة الدقيقة ، لكن أبا بكر كان يقول . « لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه » .

على مقربة من المدينة أقدم خارحة بن حصص الفزاري على مهاجمة عامل الصدقات والاستيلاء على ما معه من أموال وردها إلى الفزاريين وساعدته على ذلك قبيلة غطفان ، فخرج أبو بكر في جيش من أهل المدينة ، ولقيت مقدمة الجيش الهزيمة على يد القبائل المغيرة ولكن عندما بلغتهم أنباء عن قرب وصول الامدادات لاذوا بالفرار ، وقعت هذه الغزوة في منطقة ذي القصة ، وأدت إلى رفع معنويات المسلمين إلى حد ما .

وعاد أسامة بجيشه من رحلة مؤتة ، كما عاد أيضا عدد من عمال الصدقة من المناطق المجاورة يحملون أموالا ضخمة ، فقوى موقف أبي بكر بالرجال والمال ففكر حديا في مقاتلة المرتدين ، وذات يوم حرد أحد عشر جيشا إلى أطراف الجزيرة العربية ، وكانت أوامره أن يقوم المسلمون بتعصبة القبائل التي يحدونها في طريقهم ، كما أرسل صكوكا بالعفو إلى طوائف العرب مع رسل من طرفه وقيل تحريك الجيوش ، استهل هذه الصكوك حديثه عن الإسلام والثناء عليه وعلى الرسول ﷺ ومسألة موت النبي مستشهدا بآيات من القرآن ، ثم ذكر أنه أمر هذه الجيوش بقتل كل من ارتد عن دينه بالسيف وحرقه بالبار

وأسر نسائه وعباله إلا من تاب وأعلن قبوله لدين الإسلام بعلامة بينة وهي الآذان ، وبعد الآذان أداء الزكاة وأنه أعطى لكل من قادة الجيوش أمرا كتابيا بمعاملة المرتدين على النحو المذكور ويتضمن نقاطا عن آداب الغزو وضرورة الحيلة والحذر من التسرع ووجوب الرفق والمداواة مع الجنود ⁽¹⁾ ، وتحركت الجيوش بناء على هذه الأوامر إلى أطراف الجزيرة المختلفة ، وكان جيش خالد بن الوليد مكلفا بقمع طليحة الكذاب .

كان طليحة هذا قد أعلن عصيانه في قبيلة بنى أسد بن خزيمه في نجد ، وانضمت إليه قبائل أخرى من حلفاء بنى أسد ومنها قبيلة طى ، إلا أن عدى بن حاتم زعيم قبيلة طى ظل على إسلامه وأمد أبا بكر وخالد في هذه الحملة بمساعدات قيمة للغاية وقام بتعبئة أفراد قبيلته ممن لم ينضموا إلى طليحة وأمد جيش خالد بألف فارس منهم ، لذا فإن مؤرخى الإسلام يقولون أن « عدى كان أفضل من ولد على أرض طى » .⁽²⁾

كان طليحة قد حشد قواته في مكان يقال له بزاخته ، فأرسل خالد اثنين من الأنصار إلى طليحة فخرج طليحة وأخوه وقتلوهما ، فوقع الخوف في قلوب المسلمين ، فذهب خالد ورفاقه إلى قبيلة طى يستمد العون ثم اتجه إلى طليحة ، وانهزم الجيش في القتال ولاذ الجند بالفرار لولا أن ثبت خالد والأنصار الذين كانوا معه ، فأعاد الفارين من الجند ، وجاء عبيدة بن حصص الفزاري وقبيلته لدعم طليحة وطلب منه أن يسند إليه مهمة وأن يجيئه بوحى ، فأجابه طليحة بأن الملك قال له : « إن لك رحي كرحاه وحديثا لا تنسأ » ، فلاذ عبيدة وقومه بالفرار مما أدى إلى هزيمة طليحة وفر النبی الكذاب وزوجه إلى الشام .

وفي نجد أعلن رجل من بنى سليم يسمى اياس بن عبد الله ويلقب بفجاعة عصيانه ، كان هذا الرجل قد حاء إلى أبى بكر قبل فترة وحصل منه على العتاد والمؤن بدعوى الجهاد ضد المرتدين ، ثم اتجه إلى قطع الطرق بهذه الأسلحة واعمال الغارات على المسلمين والمرتدين على السواء ، فأرسل أبو بكر طريفة بن حازم لردعه فأسره وأتى به إلى المدينة ، فأمر الخليفة بحرقه حيا في البقيع .

(1) ورد المتن في الطبرى ، ح 3 ، ص 226 و 227 .

(2) الطبرى ، ح 3 ، ص 288

وكانت فى بنى تغلب التى تسكن فى حى يسمى جزيرة ابن عمر (شمال موصل) امرأة تسمى سجاح بنت الحارث بن سويد أدعت النبوة وتحدثت بكلام مسجع على طريقة كاهنات العرب ، وكانت هذه المرأة أصلا من بنى يربوع (بطن من بطون بنى تميم) وكانت تنتمى إلى بنى تغلب من ناحية الأم ، وكانت بنو تميم وهى من القبائل العربية الكبرى والهامة تمر بمرحلة من الاضطراب فى تلك الأثناء ، فقد ارتدت طائفة منها وترددت طائفة أخرى ، وانضمت إلى سجاح جماعة من هذه القبائل ومنها بنو يربوع بزعامة مالك بن نيرة ، وأحجبت جماعات أخرى عن الانضمام إليها ، وقاتلت سجاح المخالفين لها إلا أنها لم تخرج بنتيجة ، فخرجت عازمة على الاستيلاء على اليمامة وقبائل بنى حنيفة رغم أن اليمامة كان بها مدع آخر يسمى مسيلمة سيأتى ذكره فيما بعد ، فاضطربت الأمور وتداخلت القوى ، أما مسيلمة فلم يأمن على ظهره بالاضافة إلى تهديد جيش أبى بكر والقبائل المجاورة له ، فلم يقاتل سجاح ، بل استرضاهما بقدر من الغلة ووعد بقدر آخر ، وعادت سجاح إلى دارها فى بنى تغلب بعد أن ظلت ثلاثة أيام فى اليمامة ، ومن المعروف أن سجاح ومسيلمة تزوجا فى هذه الأيام الثلاثة ، ولم تحقق سجاح تقدما كبيرا فى دعواها ، وقبلت الإسلام فيما بعد وظلت حية حتى زمن معاوية ، وتوفيت فى دارها فى الجزيرة وفى رواية أخرى فى الكوفة .

كان مسيلمة أو كذاب اليمامة ينتمى إلى قبيلة بنى حنيفة التى كانت فرعا من قبائل بكر بن وائل ، وكانوا يسكنون اليمامة ، كان بنو حنيفة يدينون بالمسيحية ويعملون بالزراعة فى معظمهم ، وكان مسيلمة يستمد جزءا من أفكاره من المسيحية ، وكان يطلق على الله اسم « الرحمان » وهو اسم معروف منذ القدم فى جنوب الجزيرة العربية ، وكان هو أيضا يطلق حديثا مسجعا على عادة الكهان ويسميه وحيا ، وكانت باليمامة قلاع قديمة من آثار الأمم الغابرة ومن بينها قلعة حجر التى اتخذ منها مركزا له .

بعد أن فرغ خالد من أمر طليحة اتجه إلى بنى تميم ومسيلمة ، إلا أن الأنصار فى جيشه رأوا ضرورة التريث وامتنعوا عن المضى معه استنادا إلى أن الأمر لم يصدر بعد من الخليفة فى هذا الشأن ، فمضى خالد مع المهاجرين ومن تبقى من الجيش فى طريقهم استنادا إلى عدم الحاجة إلى صدور أمر حين يتصل الأمر بعمل الخير، ففكر الأنصار فى أنه لو لحقت الهزيمة بخالد فإن اللوم سيقع عليهم لتخلفهم عنه وإذا ما تحقق له النصر

سيحرمون من الغنيمة ، فتحركوا فى أثره ولحقوا به فى الطريق .

وبلغ خالد البطاح التى كانت مركزا لبنى يربوع ، وكان الناس قد تفرقوا ، فأرسل خالد السرايا إلى المناطق المحيطة والطوائف التى تقطنها ، وكان الأمر قد صدر بقتل كل من لا يقيم الصلاة ويمتنع عن أداء الزكاة ، فتمكنت إحدى هذه السرايا من أسر مالك بن نيرة وحشد من رجال بنى يربوع وجاءوا بهم إلى خالد ، كان مالك هذا شيخ بنى يربوع وكان عامل صدقة بين قومه فى عهد النبى ، وشهد عدد من رجال السرية بأن هؤلاء الأسرى أقاموا الأذان وأدوا الصلاة أى أنهم كانوا مسلمين، فحبس خالد الأسرى، وفى المساء أشار بقتلهم وأخذ امرأة مالك لنفسه فى تلك الليلة ، فحدث الاضطراب ، فقد اعترض أبو قتادة الذى كان من قدامى الصحابة وكان من الشهود على إسلام مالك بن نيرة على خالد ، فقال خالد : « هذه إرادة الله » وأغلظ القول لأبى قتادة ، فمضى أبو قتادة إلى المدينة وقابل أبا بكر وشكى إليه ، فاحتد عليه أبو بكر وأمره بالعودة إلى خالد على الفور ، فعاد ، أما عمر فقد ثارت ثائرتة على فعلة خالد ، فمارس ضغوطه على أبى بكر وطالبه بأن يعاقبه ، إلا أن أبا بكر لم يرفع حمايته عن خالد وقال لعمر : « ليس لى أن أثلم السيف الذى أشهره الله فى وجوه الكفار » ، ثم قال فى شأن الذنب الذى ارتكبه خالد « أول فأخطأ » ، ويروى الطبرى أن أبا بكر لم يكن ينفذ عقوبات فى عماله وموظفيه (1) ، وجاء أخو مالك متمم بن نيرة إلى المدينة مطالبا بالقصاص ، فأمر أبو بكر بمنحه دية مالك وإطلاق سراح أسراه ، واستدعى خالددا ووجه إليه اللوم، ثم أعاده إلى القيادة على غير إرادة عمر، وبعد موضوع خالد ومالك من النقاط التى بحثها المتكلمون باستفاضة (2) .

بعد أن فرغ خالد من أمر البطاح اتجه إلى اليمامة لمحاربة مسيلمة بأمر من الخليفة ، وكان ذلك فى العام الثانى عشر بعد الهجرة والعام الثانى من خلافة أبى بكر ، وكان مسيلمة قويا نظرا لكثرة أعداد أنصاره من بنى حنيفة ، كما انضم إليه لاحقا جمع من بنى تميم ، لذا فقد لحقت الهزيمة بالجيش الذى كان أبو بكر قد أرسله بقيادة عكرمة بن أبى جهل قبل خالد ، وقام خالد فى البداية بتحبيد بنى تميم عن مسيلمة ، وفى ربيع الأول

(1) الطبرى ، ح 3 ، ص 242 .

(2) انظر الشامى وتلخيص الشافى ، طبعة طهران ، ص 423 .

هاجم خالد منطقة عقرباء التي كانت مقر مسيلمة وجيشه ، نشب قتال دام لم ير المسلمون مثيله حتى ذلك الوقت ، وتمكن بنو حنيفة في البداية من شق صفوف المسلمين ووصلوا إلى قرب خيمة خالد وأطلقوا سراح أسراهم الذين كانوا في يد المسلمين ، فولى جنود خالد الأدبار، إلا أن صمود خالد وثباته وشجاعة عدد من قادة جيشه أدى إلى إعادة تنظيم صفوف الجيش وتثبيتته ، وعلى أثر ذلك ضعفت صفوف بنى حنيفة ، واحتشدوا في مكان محوط ، فصعد براء بن مالك على أكتاف الناس إلى أعلى الجدار وشق طريقه نحو الباب بسيفه المشهور وفتحه ، قاندفع المسلمون إلى الداخل وأعملوا سيوفهم في قوات العدو، ولقى مسيلمة مصرعه على أثر طعنة حربة ، كان ذلك المكان قد أطلق عليه مسيلمة اسم « حديقة الرحمن »، فسماه المسلمون حديقة الموت، وانتهى الأمر باقرار الصلح على أن يقدم بنو حنيفة مقدارا من الذهب والفضة وكل ما لديهم من دروع ونصف ما لديهم من أسرى وشطرا من الأراضي المزروعة للمسلمين، وتزوج خالد ابنة مجاعة وهو أحد زعماء بنى حنيفة، وعندما بلغت أبا بكر أباء المصالحة قام بالتصديق عليها إلا أنه وجه اللوم إلى خالد على زيجته هذه مما اعتبره خالد من مساعى عمر فقال: « هذا عمل الأعيسر » (1)، ويروى أن السبب في موافقة خالد على إقرار الصلح هو أن نساء بنى حنيفة بعد هزيمة الرجال ارتدين لباس الحرب وتجهزن للمقاومة، وربما كان السبب خشية المسلمين من تحصن بنى حنيفة في الحصون وإطالة أمد الحرب فرأوا المصلحة في إقرار الصلح .

أدى فتح اليمامة إلى فتح الطريق إلى غزو البحرين ، ويروى المؤرخون أن حاكم البحرين المنذر بن ساوى العبد الذي اعتنق الإسلام في زمن النبي توفي في الشهر الذي توفي فيه النبي فارتد قومه وتحصن من بقى منهم على إسلامه في قلعة تسمى جواثا وضاعت بهم الأحوال ، فحرد أبو بكر جيشا إلى البحرين بقيادة علاء بن الحضرمي ، فتشجع المحاصرون وخرجوا من القلعة وانضموا إلى جيش علاء ، وامتدت الحرب بين المرتدين والمسلمين ، ولم يرد لدى المؤرخين شئ عن موقف دولة الفرس التي كانت تسيطر آنذاك على البحرين أو عما إذا كانت قد تدخلت في هذا الصراع .

(1) الطبرى ، ج 3 ، ص 253 .

وفى عمان امتنعت قبيلة أزد عن أداء الزكاة المقررة ، واحتشدوا فى دبا تحت قيادة شيخهم لقيط بن مالك ذى التاج الذى كان فى الجاهلية ينعم بأبهة الملوك ويروى أنه ادعى النبوة أيضا ، واقتربت جيوش أبى بكر بقيادة عكرمة بن أبى جهل ، وبعد قتال مرير انهزم المرتدون وآلت القلعة إلى المسلمين ومعها غنم وفير من مال وأسرى أرسل خمسة إلى أبى بكر ، بعد ذلك سار عكرمة بجيشه إلى مهرة ، وكان أهلها لا يزالون على غير دين الإسلام ، وكان لهم فى ذلك الوقت زعيمان متصارعان جمع كل منهما حوله فريقا منهم ، فاستفاد عكرمة من هذا الوضع ، فقد اغتتم زعيم الأقلية الأضعف فرصة دعوة عكرمة وانضم إليه واعتنق الإسلام وهكذا تم فتح مهرة بسهولة تامة .

وفى اليمن وبعد مصرع الأسود العنسى الذى مر ذكره فى أحداث العام الحادى عشر الهجرى فكر قيس بن عبد يغوث فى طرد « الأبناء » (ذوى الأصول الفارسية) من اليمن وإقامة حكم حميرى ، لذا فقد أراد حشد زعماء اليمن الحميريين حوله ، إلا أنهم امتنعوا ، فجمع قيس أنصار الأسود وشكل منهم فريقا وراحوا يقطعون الطرق ، واغتالوا دادويه أحد زعماء الأبناء ممن اعتنقوا الإسلام ، ففر فيروز وكشتسب اللذان كانا قد قدما خدمة كبيرة للإسلام بقتلهما للأسود ، واستولى قيس على صنعاء ، ولكن لم يلبث فيروز حتى عاد بمدد كبير من قبيلة عك ، ففر قيس إلى نجران ، وأرسل أبو بكر قائدا يسمى مهاجر بن أبى أمية إلى اليمن ، وتم اللقاء القبض على قيس فى بسر وأرسل إلى المدينة ، لكن أبا بكر أطلق سراحه استنادا إلى عدم ثبوت تهمة قتل دادويه عليه أو إلى عدم معرفة أن دادويه كان مسلما .

وفى حضرموت كانت الأوضاع هادئة وكان أهلها باقيز على الإسلام ، ولكن ثار شر كندة فيما بعد بسبب جمل حمله عامل الصدقات زياد بن لبيد على سبيل الخطأ ولم يردده بعد أن رسمه ، وأتى عكرمة ومهاجر بن أبى أمية لدعم زياد وأوقعوا الهزيمة بالشائرين فى محجر الزرقان ، ولاذ الفارون بقلعة لخير ، فتصالح شيخ كندة الأشعث بن قيس مع المسلمين على سلامته وسلامته أسرته ، وفتح باب القلعة فى وجه القوات المحاصرة فأعملوا سيوفهم فى المحاصرين وغنموا أموالهم .

كانت العرب فى أثناء هذه الفتوح على اتصال بدولة الفرس ، كانت ثمة قبيلة ضخمة

تسمى ب بكر بن وائل تقطن على ضفاف الفرات منذ أمد طويل قبل الإسلام وكانت تغير على المناطق العامرة التي كانت تحت سيطرة الفرس كلما وجدت إلى ذلك سبيلا ، وكانوا حين يتعرضون للمطاردة يتوغلون إلى داخل الجزيرة العربية ، وفي تلك الآونة وقعت دولة الفرس فريسة للضعف بسبب الاضطرابات الداخلية ، وعلى أثر ذلك كثرت الغارات من جانب اثنين من زعماء هذه القبيلة أحدهما المثنى بن حارثة الشيباني في منطقة الحيرة والآخر سويد بن قطبة العجلي في ابله ، فتشاور المثنى مع أبي بكر لعله يستفيد في عملياته من قوى الإسلام ، وأوضح له مدى ضعف الدولة الفارسية ومواتاة الفرصة لغزو تلك البلاد ، وطلب جيشا طامعا في أن يعطيه أبو بكر امارته ، لكن أبا بكر أمر خالد ابن الوليد بالتوجه إلى العراق ومحاربة الفرس بعد أن فرغ من أمر أهل الردة ، وجعل المثنى تحت أمرته ، واستولى خالد على الحيرة في غضون شهر وتصالح مع أهل الحيرة على أداء خراج سنوي ، وأرسل من هذا الخراج مائة ألف درهم إلى المدينة ثم ولى أبو بكر خالد القيادة العامة لجيوش الشام ، فترك خالد الحيرة للمثنى واتجه إلى الشام وفتح عدة مدن على ضفاف الفرات ومن بينها مدن الأنبار وعين التمر ودومة الجندل ، ثم اتخذ طريقا شديدا الوعورة والوحشة في السادية في سبيل سرعة الوصول إلى جيوش الشام ، فمر بجانب دمشق وأغار على القرى المحيطة وانضم إلى جيوش الإسلام في واقوصة باليرموك.

وفي أواخر العام الثاني عشر بعد الهجرة عندما خف أمر الحروب الداخلية إلى حد ما عزم أبو بكر على تجريد حملة إلى الشام ، وكان زعماء المدينة يأملون في اتخاذ تلك الخطوة ، إضافة إلى أن ذلك كان يمثل تهيئة عمل للعاطلين وباعثا للعرب على الكف عن ثوراتهم الداخلية ، لذا فبمجرد إعلان الجهاد انهال على المدينة سيل من المتطوعين من أرحاء الجزيرة العربية ، وأخذ أبو بكر في تنظيم صفوف الجيوش وتجهيزها كل تحت قيادة أمير من رجال قريش (ورحل قحطاني واحد) ، وأولى القيادة العامة أولا لخالد بن سعيد بن العاص ، إلا أن عمر اعترض على توليته هذا المنصب استنادا إلى أن خالد بن سعيد كان ممن تخلفوا عن بيعة أبي بكر ، فقام أبو بكر بتنصيب أبي عبيدة بن الجراح في المقام الأول ويزيد بن أسى سفيان الأموي في المقام الثاني من امارة الجيش ، وأرسل خالد بن سعيد إلى التيماء مع فرقة من الجيش كاحتياطى للقوات، وخرجت الجيوش كل في أثر

الآخر من طرق مختلفة وبأهداف واتجاهات متباينة .

خرجت قوات الروم لصد العرب فى مكان يسمى عربة (1) وانهزمت ، وانهارت قواته فى حرب أخرى فى دائنة ، فسارع امبراطور الروم هرقل الذى كان فى ذلك الوقت فى حمص إلى تعبئة جيش وجرده لصد العرب ، ووقعت المواجهة بين الطرفين فى اليرموك (مكان فى حوران ، بلاد الفساسنة) ، ونزلت قوات الروم فى جانب من واد يسمى وادى قوصة وحفروا خندقا ، وكانت جيوش العرب تهاجم وتقاتل فى مجموعات منفصلة ، واستمر هذا الوضع مدة ثلاثة أشهر من صفر إلى ربيع الثانى من العام الثالث عشر ، إلى أن أتى خالد بن الوليد من العراق لقيادة الجيش العامة ، فوجد الجيوش ، وعلى الجانب الآخر أيضا وصلت الامدادات إلى الروم وذات يوم التقى الجمعان واستمر القتال بينهما إلى جزء من الليل ، وفى النهاية لحقت الهزيمة بالروم ، وفى أثناء القتال وصل رسول من المدينة ومعه رسالة من عمر تنبئ بموت أبى بكر وتولى عمر للخلافة وعزل خالد عن إمارة الجيش وتنصيب أبى عبيدة بدلا منه ، وظل خالد يعمل بجيش الشام فترة من الزمن ولكن تحت قيادة أبى عبيدة .

توفى أبو بكر فى الحادى والعشرين من جمادى الأخرى من العام الثالث عشر بعد الهجرة عن ثلاثة وستين عاما وبعد خمسة عشر يوما من المرض والحمى ، وتم دفنه إلىسى جوار النبی ﷺ ، كان أبو بكر طويل القامة قمحى اللون نحيفا ، وكان محدب الجبهة ، وكانت عظام وجهه بارزة وعيونه غائرة عميقة ، وكانت له لحية خفيفة مخضبة بالحناء ، وكان أبو بكر يبدو فى ظاهره رجلا رقيق القلب إلا أنه كان ذا عزيمة ماضية ويتسم بقوة الانتكار الخلاق ، وقضى مدة خلافته كما كان قبلها على نفس تبسطه وكرهه للأبهة ، ويروى أنه فى الشهور الستة الأولى من خلافته ظل يعمل بالتجارة كسابق عهده ، وكان يخرج ليلا إلى السنح ويأتى إلى المدينة نهارا ، وبعد ستة أشهر زادت مشغوليته فأقام بالمدينة ، كان أبو بكر يسمى « خليفة رسول الله » ، وكان يتقاضى ستة آلاف درهم كراتب سنوى ، وأصبح لقب « أمير المؤمنين » متداولا منذ عهد عمر ، ويطلق المؤرخون اصطلاح « الخلفاء الراشدين » على أبى بكر والخلفاء الثلاثة اللاحقين له .

(1) عربة همتح الأول وسكون الشاسى (مشكوك فيه ، باقوت) مكان بعلسطين

خلافة عمر :

قرر أبو بكر في مرضه أن يخلفه عمر وتبادل الرأي سرا مع كل من عبد الرحمن بن عوف وعثمان ، فأعربا له عن موافقتهما ، فدون وصية بهذا الشأن للمسلمين بخط عثمان وأمر الناس بأن يحتضنوا وسلم وصيته لغلامه ليقرأها عليهم وذهب عمر برفقة الغلام إلى المسجد ، فجمع الناس وقال « اسمعوا كلام خليفة رسول الله ، فهو لم يأل جهدا في سبيل خيركم » ، فسكتوا وقرئت الوصية وسمع الناس وأطاعوا ، وفي ذلك الوقت أطل أبو بكر من داره وقال : « أَرْضَيْتُمْ بِمَنْ اخْتَرْتُمْ خَلِيفَةَ عَلَيْكُمْ ؟ إِنْ لَمْ اخْتَرْهُ مِنْ أَهْلِي ، خَلِيفَتُكُمْ عُمَرُ » ، فأعلن الناس رضاهم ، وبهذا أوفى أبو بكر لعمر ما عناه من أجله في السقيفة ، ⁽¹⁾ ولم يكن ثمة مجال للاعتراض نظرا للقوة التي كانت الخلافة قد اكتسبتها في ذلك الوقت ، وكان إجماع « أهل الحل والعقد » - على حد قول متكلمي السنة - كافيا .

وعندما توفي أبو بكر تلقى عمر البيعة من الناس ، ثم ارتقى المنبر وكان أول ما قاله : « مثل العرب كمثّل حمل عليه لحام ، يطيع قائده من ألم اللجام ، فينقاد له أنى ذهب ، أقسم برب الكعبة إني لقائده » ، وكان عمر في تحدّده هذا صادقا وعمل به كما يتضح في كتب التاريخ .

كانت الأوضاع في فارس في ذلك الوقت تتسم بالاضطراب الشديد ، وزاد من حدة الفوضى صراعات السلاطنة وتمرد الأمراء ، والخوارج المحليين ، وكان يزيد جرد الثالث ابن شهریار قد اعتلى عرش طيسفون على أثر حروب داخلية عديدة ، وكان العرب يتمركزون في الحيرة وكانت غاراتهم تمتد لتشمل المناطق القريبة من دجلة ، فاستدعى يزيد جرد رستم ابن فرخ هرمز الذي كان واليا وقائدا عسكريا لإقليم خراسان وكلفه بقتال العرب ، وذهب المثنى بن حارثة إلى عمر بالمدينة وطلب منه الإمدادات ، وكان مسلمو المدينة يخشون

(١) يحاول المؤلف أن يصح المسألة بصحة شخصية أو تصويرها كمعاملة من أبي بكر لعمر، إلا أن هذا أمر مدهوم نظرا لتشيع المؤلف ، ودليل ذلك ما أورده الطبري (ح 3 ، ص 430) عن أبي بكر في قوله (وددت لو أسي يوم سقفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرحلين - يريد عمر وأبا عبيدة - فكان أحدهما أميرا وكنت وريرا) ، المترجم .

الحرب ضد فارس ويتحاشونها ، لكن عمر حث الناس وشجعهم وسير جيشا بقيادة أبى عبيدة الثقفى الذى أنزل الهزيمة بقائدى رستم واحدا فى أثر الآخر ، وعبرت قوات المسلمين نهر الفرات فوق جسر صنع من قوارب لقتال القوات الفارسية واشتبكوا مع العدو على الضفة الأخرى من النهر ، وفى أثناء القتال أمسك أحد الفيلة الفارسية بأبى عبيدة ووطأه تحت قدميه ، فلاذ الجنود بالفرار بعد أن فقدوا قائدهم ، فقام أحد الجنود المسلمين بقطع الجسر أمامهم لكى يحثهم على الثبات ، ولكن كان الخوف أن يفرق الفارون فى مياه النهر ، وصمد المثنى وقبيلته بشحاعة فى مواجهة هجمات العدو إلى أن أعيد بناء الجسر فعاد المسلمون إلى مقرهم .

تأثر عمر تأثرا شديدا لهذه الهزيمة التى لحقت بقواته وقام بتجريد جيش جديد وأسند قيادته هذه المرة إلى المثنى ، وتمركز المثنى على ضفة النهر بالبويب فى انتظار هجوم العدو، فعبرت حيوش الفرس النهر بقيادة أحد النبلاء يسمى مهران وهاجم القوات العربية إلا أن تعداد القوات العربية كان كبيرا حيث حاء رجال بنى نمير من أطراف الشام لدعمها، فانهزم الفرس وأبدت قواتهم نتيجة لقيام العرب بقطع الجسر ، وعندما لم يجد المسلمون مقاومة فى مواحبتهم استولوا على العراق كلها وحتى دحلة واتخذوا قلعة البصرة مركزا لقيادتهم .

انشغل رستم بتكوين جيش فى المدائن (طيسفون) ، فأنشأ المثنى عمر ، فجهز الخليفة جيشا بقيادة سعد بن أبى وقاص⁽¹⁾، وشاركت فى هذا الجيش طوائف من الحزيرة العربية كلها تقريبا، وتوافد المتطوعون من كافة الأرجاء ، وحسب استقرت الأوضاع سببى فى الشام بعد فتح اليرموك تم إرسال قوات من الشام إلى العراق لقتال الفرس ، وجاء رستم إلى الحيرة فأخلى العرب مكابهم وتقهقروا، وتمركز رستم بدير الأعور قرب مدينة الحيرة ، وجاء سعد من الناحية الأخرى وتمركز بقواته فى المكان الذى يطلق عليه اسم القادسية ، وفى تلك الأثناء توفى المثنى بن حارثة على أثر جروحه التى أصيب بها فى حروبه ولم تعالج ، وكانت وصيته لسعد أن يترك الفرس يهاجموا أولا وألا يبادر بالهجوم .

(1) كان سعد من رجال قريش ومن المتقدمين فى الإسلام وكان من بين العشرة المشركين بالحلة ، انظر

أسد العانة ، ما ، ١٠٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠

ظلت قوات الفريقين فى المواجهة دون قتال مدة أربعة أشهر ، وروى أن مفاوضات حرت فى تلك المدة ، وفى النهاية بادر رستم بالقتال واشتبك الجيشان ، كان سعد مريضا ولا يشارك فى القتال على خلاف عادة البدو وميلهم ، فكان يرقب العمليات القتالية من فوق قلعة القديس ، واستمر القتال لمدة ثلاثة أو أربعة أيام ، وفى اليوم الثانى أو الثالث وصلت الامدادات من الشام ، وحمل القتال على أثر ذلك لدرجة استمراره حتى الليل ، وفى اليوم التالى لقي رستم مصرعه ولحقت الهزيمة بقواته ، وبهذه الهزيمة انكسرت فارس كلها فى الحقيقة ، وكانت هذه المعركة أكبر معركة نشبت بين العرب والفرس وسقطت فى أعقابها بلاد فارس بأسرها فى يد العرب .

عبرت قوات المسلمين الفرات واتجهت صوب طيسفون ، وأبدى الفرس مقاومة فى نقطتين ولكن دون نتيجة ، ودخلت القوات الفاتحة طيسفون ، تتكون طيسفون التى يطلق العرب عليها اسم المدائن من سبع مدن على ضفتى نهر دجلة ، فظل الجانب الغربى بما به من استحکامات يقاوم لفترة ، ودات يوم خرج يزدجرد ببلاطه من المدائن وفر إلى حلوان ، فعبرت قوات المسلمين نهر دجلة ساحة وراء عاصم ، وسقطت المدائن وقصر الملك وما به من ثروات جمعت فى مدة أربعمئة سنة فى يد العرب ، ومن المعروف أنهم أخذوا من القصر بساطا منسوحا بخيوط الذهب ومصورا وحملوه إلى المدينة، ولم يكن بالمدينة مكان متسع يصلح لفرشه ، لذا فقد تم تقطيعه إلى قطع أصغر ووزع على شيوخ القبائل ، وبيعت قطعة منه فيما بعد بعشرين ألف درهم .

قام يزدجرد بتعبئة جيش فى حلوان ، وأرسله إلى طيسفون بقيادة مهران الرازى ، ووجه سعد جيشا لملاقاته بقيادة ابن أخيه هاشم ، والتقى الجيشان فى جلولاء (مكان بالقرب من خاقين) ، ونشبت حرب دامية قتل فيها كما يروى ما يقرب من مائة ألف من الفرس ، وغنم العرب الكثير وأسروا أعدادا كبيرة منهم (16 هـ) ، وفى أعقاب هذه المعركة التى كانت ثمانية المعارك الكبرى بين العرب والفرس وثانية الهزائم الكبرى التى لحقت بالفرس لم يطق يزدجرد البقاء فى حلوان أيضا ، فاتجه إلى الرى عبر جبال كرمانشاه ، واستولى العرب على حلوان ، وكان عمر يرقب هذه الغزوات بدقة عن بعد وكان يدقق النظر فى أدق التفاصيل ، سمع قاداته من التغلغل فى حمال فارس ، فقد كان خوفه من الحمال يضارع خوفه من السحر ، وأمر قطاعا من الجيش بالتمركز على الحدود وتوجيه نية

الجيش لفتح ما تبقى من سواد بين النهرين ، وهكذا امتدت سيطرة جيوش المسلمين من تكريت إلى خوزستان . ورغم أن خوزستان واد مستو امتدت مقاومته مدة عام ، وفي النهاية سقطت بسقوط شوشتر ، وتم أسر هرمزان إلى خوزستان ، وعقد أبو موسى الأشعري صلحا معه مشروطا بموافقة الخليفة وتصديقه ، فتم نقل هرمزان إلى المدينة ، ويروى أن عمر أراد أن يقتله ، فطلب ماء وحصل على وعد من عمر ألا يقتله حتى ينتهي من شرب الماء ، فألقى وعاء من يده غفلة فانكسر ، فالتزم عمر بوعد فغفى عنه شريطة أن يعتنق الإسلام فأسلم ، ومنحه عمر دارا بالمدينة وقرر له راتبا ، وظل على هذا الحال إلى أن قتله عبيد الله بن عمر على أثر مقتل والده كما سيرد الذكر تفصيلا (1) .

وبعد موقعة شوشتر صدر الأمر إلى أحد الجيوش المتمركزة بالكوفة التي كانت مركز الجيوش العربية بدخول إيران ، فاحتل الجيش معابر زاجروس بسهولة وتقدم إلى كرمانشاه ، والتقى الجيش في نهاوند بجيش فارس بقيادة قائد متقدم في السن يسمى فيروزان ، وامتد القتال طوال النهار ، وقتل القائد العربي نعمان بن مقرن وخلفه في القيادة حذيفة بن اليمان الذي كان قد تقرر من جانب الخليفة أن يحل محل نعمان مسبقا ، وفي هذه الأثناء وصلت الامدادات إلى القوات العربية ويروى أن هذه القوات استخدمت خدع الحرب في تقدمها ، على أي الأحوال تم فتح بلاد فارس على يد العرب عام 21 هـ .

فتح انتصار نهاوند الطريق أمام المسلمين لمد سيطرتهم على آسيا الوسطى ، وكانت آخر حملة منظمة تشنها الدولة الساسانية في مواجهة الغزاة ، ومنذ ذلك الحين انهارت فارس كدولة ، صحيح أن المدن الحصينة أبدت المقاومة حينما إلا أن الري وقزوین وزنجان وأذربيجان سقطت جميعا في يد العرب في عام 22 هـ ، وفي العام التالي تم فتح همدان وكاشان واصفهان واصطخر ، وبعد فتح اصطخر التي كانت مأوى يزدجرد فر منها إلى سيستان ، وفي النهاية حط رحاله في مرو ، فتقدمت جيوش العرب وراءه وفتحت كرمان وسيستان ووصلت إلى مكران ، واتجهت إلى خراسان كما سيرد الذكر في خلافة عثمان .

(1) الخبر الذي ورد لدى الطبري هو أن عمر تشاور مع هرمزان بشأن الحرب مع فارس (الطبري ،

ج 4 ، ص 248 ، وقد يكون اهتمام عمر بهرمزان مرجعه الاستفادة من المعلومات المتوافرة لديه .

بعد هزيمة جيش الروم في اليرموك كما سبق أن ذكرنا اتخذ من مدينة دمشق ملاذاً وحصناً كما ذهب الامبراطور هرقل من حمص إلى أنطاكية بهدف تعبئة جيش جديد ، فاتجه أبو عبيدة إلى دمشق لفتحها بأمر من عمر ، وفي الطريق حدثت بعض المناوشات القصيرة مع الروم من بينها مواجهات وقعت في مرج الصفر حيث قامت فرقة من الروم بهاجمة فرقة من جيش المسلمين كانت تضرب خيامها في ذلك المكان بقيادة خالد بن سعيد ولم يبق في ميدان القتال منهم سوى خالد .

في محرم من العام الرابع عشر بعد الهجرة قام العرب بمحاصرة دمشق ، وفي رجب حين قامت القوات العربية بأحداث فجوة في حدران القلعة أعلن الأهالي استسلامهم ، ويعتقد بعض المؤرخين بوجود علاقة بين الشقاق المذهبي بين زعماء دمشق الدينيين والامبراطور وبين هذا الاستسلام ⁽¹⁾ ، على أية حال تحول فتح دمشق بهذه الصورة إلى مسألة خلافية فقهية فيما إذا كانت قد فتحت عنوة أم لا .

بعد فتح دمشق اتجه المسلمون ⁽²⁾ إلى فتح بقية مدن فلسطين والشام ، فترك أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان لحماية دمشق ومضى إلى حمص ، وأرسل خالد بن الوليد إلى قنسرين وعمرو بن العاص مع شرحبيل بن حسنة إلى بيسان وأطراف الأردن ، وتوالى فتح المدن تترى سواء بالحرب أو بالتصالح ، أما هرقل فلم يعد آمناً في الشام فرحل إلى عاصمة بلاده القسطنطينية ، وفي أجادين بالقرب من بيت المقدس نشب قتال مرير بين القوات المسلمة بقيادة عمرو بن العاص وبين قوات الروم بقيادة أرطوبون ⁽³⁾ (في عام 12 هـ) ، وانتهى بانتصار المسلمين ، واتجه المسلمون بعد ذلك إلى محاصرة بيت المقدس ، وفي ذلك الوقت جاء الخليفة من المدينة إلى فلسطين ، ويمقتضى الأمر الذي كان قد

(1) هوار ، تاريخ العرب ، ج 1 ، ص 234 .

(2) يلاحظ أن الكاتب يستخدم لفظي « عرب » و « مسلمين » تبادلياً مع ملاحظة استخدامه للفظ « عرب » فقط في حديثه عن فتح فارس ، ويرى من حاسا أن القوات المسلمة دخلت إيران بصفتها الديسية لا العرقية ، المترجم

(3) يرى البعض أن موقعة أجادين سقت اليرموك ، في حين يرى البعض أن اليرموك وقعت عام 15 هـ ، وهناك خلاف كبير بين الرواة حول فتوح الشام وتواريخها مما يوقع المؤرخين بدرهم في بعض الاشتباه

أصدره من قبل اجتمع قادة الجيوش فى جابية معه ، ثم سلم أهالى بيت المقدس مدينتهم مؤثرين التصالح ، فدخل الخليفة بجيوشه إلى بيت المقدس (عام 15 هـ) ، وبعد أن ألف الناس أبهة موكب الامبراطور البيزنطى إذا بأعرابى يقد إليهم راكبا ناقة ويرتدى رداء من صوف الإبل ، ثم عاد عمر إلى المدينة فى حين استأنفت الجيوش فتوحاتها وتقدمت حتى سواحل البحر المتوسط .

فى تلك الآونة ظهرت مجاعة بالمدينة وطاعون فتاك بالشام يطلق عليه طاعون عمواس⁽¹⁾ ، وتوفى عدد كبير من قادة المسلمين والصحابة متأثرين بهذا الوباء ومن بينهم أبو عبيدة وزيد بن أبى سفيان (عام 18 هـ) ، وترك قادة الجيوش إرثا ضخما واضطربت عملية تقسيمه بسبب وفاة وارثيه مما اضطر عمر إلى الذهاب مرة أخرى إلى الشام لتقسيمه وللأشراف على تحركات الجيوش تاركا عليا مكانه فى المدينة ، وفى الشام قام معاوية بن أنى سفيان قائدا عاما لجيوش الشام وكان فى ذلك الوقت يعمل بجيوش الشام تحت قيادة أخيه يزيد ، ومن هنا نشأت سيطرة معاوية على الشام التى أصبحت فيما بعد عاصمة الدولة الأموية ، وتمت السيطرة على الشام بفتح قيسرية (عام 19 هـ) ، وهى المدينة التى يطلق الأوربيون عليها اسم « سيزاريه »⁽²⁾ وورد ذكرها فى أحداث حياة المسيح ، وكانت مقر حكم الروم ، وفى أطراف العراق فتح الطريق نحو أرمينيا بالسيطرة على الموصل .

فى فترة محاصرة قيسرية قرر عمرو بن العاص فتح مصر بقرار شخصى منه ، وفى رواية بأمر من الخليفة، كانت مصر فى ذلك الوقت جزءا من الامبراطورية الرومانية وكانت تعج بالخلافات المذهبية البيزنطية وكان أهلها يعانون الفوضى واضطراب الأحوال، فحاصر عمرو مدينة باب اليون⁽³⁾ فقام المسئولون الرومان بتعبئة الجيش، فطلب عمرو امدادات

(1) « عمواس » وردت فى الرمحشرى : قرية بفلسطين قرب بيت المقدس خرج منها الطاعون(م) المرصد) .

(2) Cesoree فى جنوب حل الكرمل .

(3) يدون العرب هذا الاسم بهذه الصورة ويدونه الأوربيون Babylone ، وللتعبير بيه وبين بابل يرفق دائما بكلمة « مصر » .

من الخليفة ، فأرسل عمر الزبير بن العوام لمساعدته ، وفتح جزء من مدينة باب اليون وبدأ العرب فتوحاتهم فى أرض مصر ، وعقد والى مصر الذي يطلق عليه المقوقس (1) معاهدة سلام مع عمرو دون الرجوع إلى الأباطور أو عماله ويمقتضى هذه المعاهدة دخل المسلمون الاسكندرية دون حرب أو مقاومة (عام 20 هـ) ، وبعد فتح مصر اتجهوا إلى النوبة ، إلا أنهم ارتدوا عنها بعد أن أثخهم أهل النوبة بالجراح على أثر ضربات السهام ، أما بالنسبة لموضوع مكتبة الاسكندرية وما إذا كان عمرو بن العاص قد أحرقها بأمر الخليفة فلا يرد له ذكر لدى الطبرى أوغيره من الكتب التى تتناول الفتوحات، ولكن ابن العبرى وبعض المؤرخين من معاصريه كتبوا عن هذا الموضوع (2).

كان عمر بن الخطاب يؤمن بأنه لا يحب أن يفصله بحر عن قاداته أينما وجدوا ،لذا فقد بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط ك مقر له يتصل بالبادية وفى المكان الذى نزل فيه بجيشه ، وكان ذلك المكان هو القاهرة القديمة .

قام عمر بوضع دعائم مؤسسات ادارية وتنظيمية لهذه الامبراطورية الضخمة التى فتحت له فى هذه المدة الوحيدة والتى كانت تزداد اتساعا يوما بعد يوم ، وهى الدعائم التى تعد أساسا لنظام الدولة الإسلامية ، وكان المصدر الذى استمد منه عمر تنظيماته على حد قوله هو كتاب الله وسنة الرسول ، وكان أحيانا يعتمد على رأيه واجتهاده الشخصى أو على فتاوى مستشاريه من الصحابة .

وتقرر ترك الأراضى المفتوحة لأهلها وأصحابها الأصليين على أن يتم تحصيل الخراج

(1) ظل موضوع المقوقس وهويته ومصدر تسميته عامصا لمدة طويلة ، وأخيرا توصل العالم الانجليزى بتلر من بحوثه فى الوثائق الإسلامية الحديثة والمسيحية إلى أنه كان يسمى « قيرس » وكان من كبار رجال الكنيسة القوقازية نقله هرقل منها إلى مصر ونصبه فى الرعامسة المادية والرومانية لمصر ، ولعظ « مقوقس » الذى اشتهر به مأخوذ من اللفظ اليونانى « قوقا سيوس » بمعنى « قوقارى » ، ويسطق العرب اسمه بكسر القاف الثابتة وفى الحاشية بفتحها ، انظر : فتح العرب لمصر (الترجمة العربية لكتاب بتلر ، طعة القاهرة)

(2) انظر تاريخ التمدن الاسلامى ، ح 3 ، ص 40 وفتح العرب لمصر

منها، وهو الأمر الذى قرره النبي (ﷺ) من قبل بشأن أراضى خيبر، وبالإضافة إلى الخراج كان على الرعايا من غير المسلمين أن يدفعوا ضريبة أخرى هي الجزية، أما ضرائب الرعايا المسلمين فكانت الزكاة والصدقات، وكانت سارية منذ عهد النبي (ﷺ)، كما تقرر ألا يتخذ المسلمون فى خارج الجزيرة العربية ملكا لأنفسهم وألا ينشغلوا بالزراعة عن الحرب.

كان الدخل هائلا، فكانت العراق وحدها تؤدى لبيت المال بالمدينة مئة مليون درهم سنويا، وكانت هذه الأموال تنفق كأعطيات وهبات للمسلمين، ولتنظيم هذه العملية تم تشكيل ديوان لإمساك الدفاتر الحكومية على غرار النظام الرومى الذى كان معمولا به فى الشام⁽¹⁾، وتم تدوين أسماء المسلمين حسب ترتيب القبائل، وفى تسجيل أسماء الأشخاص كان يعتد بأسبقيتهم إلى الإسلام، وبدأت بأهل بيت النبي، وقام عمر بتقسيم الأعطيات إلى درجات ومراتب وكانت فى زمن أبى بكر موحدة للجميع، فكان يقرر المزيد لقدامى المسلمين والمجاهدين فى الغزوات وأقرباء النبي، وقرر لعائشة خمسة عشر ألف درهم ولسائر أمهات المؤمنين اثنى عشر ألف درهم لكل منهن.

وتم رسم حدود لأهل الذمة لا يتجاوزونها، فلا ينبغى لهم أن يحرقوا القرآن ولا أن يسبوا النبی أو يتعرضوا لنساء المسلمين ولا يفعلوا ما يؤدى إلى تضليل مسلم أو تبديد ماله وروحه، وألا يساعدوا أعداء الإسلام أو عيونهم، وكان على الذميين أن يرتدوا ملابس قبيحة عن المسلمين، ولم يكن من المسموح به أن يطل بيت ذمى على بيت مسلم، وحرم عليهم ضرب النواقيس فى الكنائس وتلاوة كتبهم بصوت عال أو فى حضور المسلمين وشرب الخمر علانية، وحظر عليهم الخروج بخنازيرهم على الملأ، أو ركوب الجياد أو حمل السلاح وما إلى ذلك من أحكام لا يزال بعضها ساريا فى الجزيرة العربية، وكانت هذه الأحكام المشددة سببا فى تحول الذميين غالبا إلى دين الإسلام، ولم يتواحد اليهود والنصارى والمجوس إلا فى المدن، أما الرعايا الذين يسكنون الصحارى والمناطق الزراعية عامة والنصارى والمجوس إلا فى المدن، أما الرعايا الذين يسكنون الصحارى والمناطق الزراعية عامة فقد اعتنقوا الإسلام، وبقي سكان الجبال على دين آبائهم كما هو الحال بالنسبة للمسيحيين من سكان جبال سوريا ممن لا يزالون على دينهم.

كان عمر يفرض رقابة مشددة على تنفيذ أحكامه، وكان يخرج بنفسه ممسكا بعصا فى

(1) البلاذرى، ص 454.

يده ويجول فى الأزقة والأماكن العامة ويقوم بدور المحتسب ، وكان أحيانا يعاقب عماله ، ومن بينهم خالد بن الوليد الذى غضب عليه عمر بسبب واقعة قتل متمم بن نيرة ، فعزله وصادر أمواله مع أول فرصة سنحت له ، ولكن بدأ عهد الثراء والتجمل منذ ذلك الوقت أيضا .

أصبحت للجيش أيضا تنظيمات بحكم الحاجة فى عهد عمر ، وتم اقتباسها من تنظيمات الروم ، فتم تأسيس معسكرات ثابتة لتمرکز الجيوش فى نقاط بعيدة عن المدن حتى لا تكون هناك حاجة للتردد على المدينة جيئة وذهابا عبر الصحارى ، فأصبحت دمشق مركزا للشام ، والكوفة للعراق وفارس ، والفسطاط لمصر ، وفى هذه النقاط كان هناك دائما عدد من الجنود ومعهم قائد له صلاحيات حكومية وعسكرية ، وإضافة إلى هذه المراكز الثلاثة كانت ثمة مناطق أخرى أيضا تأتى فى الدرجة الثانية من الأهمية كالرملة بالشام والبصرة بالعراق، وتحولت هذه المناطق العسكرية فيما بعد إلى مدن هامة .

ولكن لم يتم تطبيق التنظيمات الإدارية الجديدة فى البلدان المفتوحة ، بل اكتفى القادة والفاتحون بالإشراف على تحصيل الضرائب واضطروا إلى تنفيذ هذه العملية من خلال الدفاتر المحاسبية القديمة ، وكانت العملة المتداولة أيضا هى العملة المحلية ، وكان يتم اختيار المحاسبين من الفرس والروم ، وكانت الدفاتر فى فارس مدونة باللغة البهلوية وفى الشام باللغة الرومية (اليونانية) ، وكان القائمون على حسابات الضرائب فى الشام هم القساوسة وفى إيران الدهاقين الذين كانوا يتولون عملية جمع الضرائب وتحصيلاتها ، وفى المناطق التى يقطنها مسلمون كان يتم تعيين قاض من قبل الخليفة لتولى الشئون القضائية للمسلمين ، وغنى عن القول أن غير المسلمين فى الدولة لم يكونوا يفيدون من هذه الأجهزة القضائية ولم تكن شهادة غير المسلم على المسلم معترفا بها .

بدأ التاريخ الإسلامى وحساب السنين فى عهد عمر ⁽¹⁾ ، وكان ثمة خلاف حول ما إذا كان ينغى اتحاد بعثة النبى أم مولده بداية للتقويم ، ثم استقر الأمر على إقرار عام الهجرة كداية له (عام 16 هـ) بناء على توصية من على .

(1) كان هناك تقويم وحساب للسنين فى الحرية العربية قبل الإسلام وبراء فى النقوش القديمة ، إلا أنه كان يتحد مبدأه من حسابات شعوب موعلة فى القدم .

قام عمر فى زمن خلافته بإخراج كل النصارى واليهود من جزيرة العرب استنادا إلى وصية من النبى بألا يكون بالجزيرة دينان ، وقيل فيما يتعلق بالمعاهدات التى أبرمها يهود خيبر ونصارى نجران مع النبى إنها كانت موقوتة بمشيئة الله .

كان عمر يولى اهتماما خاصا إلى العنصر العربى ، فأمر الناس فى خلافته بإطلاق سراح أسراهم من العرب سواء من أسر منهم فى الجاهلية أو فى الإسلام فى مقابل فدية ، وقال « إنه ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا وقد وسع الله عليهم وفتح الأعاجم »⁽¹⁾ ، وكان بهتم بصورة خاصة بالحج وبالكعبة ، وقام بتوسعة المسجد الحرام بأزالة البيوت المحيطة به ، وقام بإنشاء سد فى مكة لمنع السيول ، وقد ذهب إلى مكة مرتين للحج والعمرة .

ذهب عمر للحج عام 23 وكان بصحبته كل أمهات المؤمنين ، وعند عودته كان قد وفد إلى المدينة عدد من أمراء المناطق المحيطة للقائه والتشاور معه ، وكان من بينهم المغيرة بن شعبة أمير الكوفة ، وأتاه غلام فارسى من غلمان ذلك الأمير ويسمى فيروز ويكنى بأبى لؤلؤ ليشكو إليه سيده الذى يحصل منه على عشرة دراهم يوميا كضريبة ، فسأله عمر عن حرفته ، فقال : « أعمل بالتجارة والرسم والحدادة » ، فقال له عمر : « هذه الضريبة ليست كبيرة على كل هذه الصنع ، سمعت إنك تستطيع أن تصنع طاحونة تعمل بالريح » ، فقال « نعم » ، فأمره عمر بأن يصنع له واحدة ، فأحس أبو لؤلؤ بالغضب لإهمال شكواه ، وربما كان لمشاعره القومية دخل فى ذلك⁽²⁾ ، ثم قال : « أن ظلمت سالما سأصنع لك طاحونة تكون حديث الشرق والعرب » ، ومضى ، فأحس عمر بالتهديد من حديث الغلام ، وفى صباح اليوم التالى وبينما كان عمر يقف فى المسجد لأداء صلاة الجماعة اتجه إليه أبو لؤلؤ وطعنه بخنجر ذى حدين ، كما قتل شخصا آخر يسمى كليب كان يقف وراء الخليفة ولاذ بالفرار ، وفى أثناء احتضار عمر نادى عبد الرحمن بن عوف وأمره بإقامة الناس فى الصلاة ، ونقل إلى داره بجروحه ، وبعد عدة أيام أمسك عبيد الله بن عمر بأبى لؤلؤ وقتله هو وابنته ومعهما شخصين آخرين أحدهما هرمزان الفارسى الذى سبق ذكره والآخر يسمى جفينة من أهل الحيرة وكان يعمل بتدريس الخط فى المدينة ، وقد

(1) الطبرى ، ح 3 ، ص 276 .

(2) بكاء أبى لؤلؤ على أسرى نهاوند ، الطبرى ، ح 4 ، ص 344 .

قتل هذان الشخصان بتهمة التواطؤ مع أبي لؤلؤ دون أن يكون ثمة دليل على ذلك ، وتم حبس عبيد الله عدة ساعات لقتلهما ، وأطلق عثمان سراحه فى أول أيام توليته الخلافة ، وكان هذا من الأمور التى أخذت على عثمان ونوقشت تفصيلا فى كتب المتكلمة .

انشغل عمر وهو على فراش الموت بمسألة تعيين خليفة له ، وبدلا من أن يصرح باختيار شخص محدد لهذا المنصب شكل مجلسا للشورى يتكون من عبد الرحمن وعلى وعثمان والزبير وسعد بن أبى وقاص وطلحة إن عاد من سفره ، وحدد مهلة ثلاثة أيام يتم فيها اختيار خليفة بالأغلبية ، وإذا تساوت الأصوات ترجح أصوات الجماعة التى يكون فيها عبد الرحمن بن عوف وعلى الجماعة الأخرى أن تذعن وإلا تعرض أفرادها للقتل ، وتوفى عمر فى سن الستين أو ما يقرب من ذلك (فى عام 23 أو فى رواية عام 24 هجرية) ودفن بحواد أبى بكر والنسب ، كان عمر طويل القامة أسمر البشرة مسترسل الشعر وكانت له لحية كبيرة يكسوها الحضاب .

كان كل أعضاء هذا المجلس يرغبون الخلافة سوى عبد الرحمن ، واستمر التفاوض مدة يومين دون التوصل إلى نتيجة وفى اليوم الثالث استقر رأى على أن يتخير عبد الرحمن إما عثمان أو على بالتعاون مع سعد ، وكان عبد الرحمن يميل إلى عثمان بحكم القرابة ، واقترح البعض عثمان فى حين أيد البعض الآخر اختيار على ، فاتجه عبد الرحمن إلى على وقال: «أتعاهدنى على أن تعمل بكتاب الله وسنة النبى وتحدوحدو أبى بكر وعمر؟» ، قال على: « قدر جهدى وطاقتى » وفى رواية أخرى أنه قال : « بكتاب الله وسنة الرسول » فقط ، فتوجه عبد الرحمن إلى عثمان بنفس السؤال ، فأجابه عثمان « نعم » ، فبايع عبد الرحمن عثمان وأخذه إلى المنبر حتى يبايعه الآخرون ، وفى الخطبة الشنشقية ثمة إشارة إلى كل من سعد وعبد الرحمن فى عبارة « فصعى رجل منهم لضغنه ومال الآخر لصهره » (1) .

(1) وردت هذه الفقرة فى « تاريخ ابن خلدون (الجزء لثانى و ص 365) كما يلى : (قال . " أرحو أن أحتهد بل أن أعمل بمبلغ على و طاقتى » ، وقال لعثمان مثل ذلك فقال . « نعم » ، ورفع رأسه إلى سقب المسجد ويده فى يد عثمان وقال . « اللهم اشهد أبى قد جعلت ما فى عنتى من ذلك فى عنتك عثمان » ، فبايعه الناس) ، المترجم .

خلافة عثمان :

فى عهد عثمان استمرت الغزوات والفتوحات الإسلامية على نفس الأساس الذى سارت عليه فى عهد الخليفتين السابقين ، وتمت فتوحات عديدة فى فارس وأرمينيا وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا ، ووضع فاتحو الإسلام أقدامهم لأول مرة على أرض أوربا .

قام والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سراح بالسيطرة على شمال أفريقيا ، ودخل أحد قادته ويسمى عبد الله بن نافع الأندلس بالتعاون مع البربر عن طريق البحر (27 هـ) ، وثارت مدينة اصطخر التى تم فتحها فى عهد عمر ، فقام جيش الإسلام بفتحها مرة أخرى (29 هـ) ، وتمرد الروم المقيمون بالإسكندرية بالتعاون مع الجيش الذى كان قد أرسله امبراطور الروم لنصرتهم ، وتم إخماد التمرد على يد عمرو بن العاص ، وتعرضت مدينة الاسكندرية للدمار نتيجة لذلك (عام 25 هـ) ، وهاجم سعيد بن العاص كلا من جرجان ومازندران وعاد بالأسرى والغنائم الوفيرة إلى الكوفة (عام 30 هـ) ، وقام حبيب ابن مسلمة بفتح أرمينيا وتقدم حتى وصل إلى بحيرة وان (30 هـ) ولكن فى القوقاز تعرض الفاتحون المسلمون للهزيمة بعد حروب عديدة مع الخزر ، وأبىد سلمان بن ربيعة وجيشه عن آخره بالقرب من دربند .

عندما يأس يزدجرد الملك الساسانى تماما من جنوب فارس ورفض اقتراح أمير طبرستان الذى أراد أن يحمي الملك فى جبال مازندران ارتد إلى مرو على أمل أن يحصل على العون من الصين أو تركستان ، وكان هذا هو نفس الطريق الذى سلكه دارا الثالث فى فراره من الاسكندر ، ولكن فى مرو اعترض والى خراسان على عودة يزدجرد وأثار ضده أحد أمراء الترك على الحدود ، وفى رواية أخرى خرج بنفسه لقتاله ، على أية حال فقد هرم يزدجرد وأغلقت بوابات مرو فى وجهه ، فدخل طاحونة على نهر مرغاب حيث وجده حراس الوالى وقتلوه ، وفى رواية أخرى قتله صاحب الطاحونة (31 هـ) ، وفى تلك الأثناء جاء القائد العربى عبد الله بن عامر لمطاردة يزدجرد ومد سيطرته على كرمان ومن بعدها خراسان ووصل حتى ضفاف نهر جيحون ، وتقدم عن طريق سيستان حتى بلغ كابل .

وفى الشام وصل جيش الفتح الإسلامى فى أواخر عهد عمر إلى ساحل المتوسط ، وفكر معاوية بن أبى سفيان الذى كان والى الشام وقائد قواته فى ذلك الوقت فى أن

ينشئ قوة بحرية توفر اللازم لها من مواد ومكونات على سواحل سوريا ، إلا أن عمر لم يأذن له لخوفه من البحر والسفن ، وفى عهد عثمان حصل معاوية على إذن الخليفة وبنى عددا من السفن وذهب إلى قبرص بمساعدة السفن المصرية وهاجم الجزيرة فى عام 28 أو 29 هـ ، وكانت الشام من الثغور الهامة ، وفى كل عام كانت بعض الفرق الحربية تعبر آسيا الصغرى وتهدد عاصمة ملك الامبراطور، بل وفى إحدى المرات تقدم معاوية حتى وصل إلى «مضيق القسطنطينية» أى الدردنيل حيث دخل فى حرب ضد الأغريق (32 هـ) .

كان الجيش يقوم بغزوتين كل عام ، غزوة فى الصيف وأخرى فى الشتاء ، وكان الناس يفتدون من داخل الجزيرة العربية ومن مختلف بقاع الدولة الإسلامية بهدف العبادة أو طمعا فى الغنائم ويتمركزون فى معسكرات الحدود التى كانت تسمى « رباط » ، وكان مركز القوات البرية فى ذلك الوقت فى أنطاكية بالشام ، وكانت مصر مركز القوات البحرية ، وكانت حدود المناطق غير المسلمة المجاورة تسمى « ثغور » ، ومن المدن ما كان يتم غزوه بالحرب (مفتوح العنوة) وكانت تؤول إلى الفاتحين بما يتم جمعه من أسرى وغنائم أقليمية ، وفى المدن التى يتم فتحها بالتصالح كان الفاتح يكتفى بتحصيل الضريبة النقدية وتعهد بتسليم الخراج السنوى ، وفى الأوقات التى تكثرت فيها الغزوات وضرورة انتقال الفاتحين من جبهة إلى جبهة أخرى كان يتم قبول عروض الصلح بصورة فورية ، ولكن غالبا ما كان أهالى المناطق المفتوحة يشعرون فى أعقاب عودة الفاتحين وفى هذه الحالة كان لابد من تجريد حملة جديدة إليها ، فمن المدن ما تم فتحه مرتين وثلاث مرات .

وفى عهد عثمان ، لاحظ بعض الصحابة أن الناس لا يقرأون القرآن بصورة واحدة فى كل مكان فشاعت قراءات مختلفة له ، فراجعوا الخليفة فى هذا الشأن ، فقرر نسخة واحدة وأمر بتوحيد القراءات ، وأخذ من حفصة بن عمر الأوراق التى كان زيد بن ثابت كاتب النبى قد جمعها فى عهد أبى بكر وبأمر منه ، وكانت هذه المجموعة لدى حفصة ، وأمر زيدا نفسه ومعه جماعة أخرى بتدوينها فى مصحف ، وفيما يتعلق باختلاف القراءات أقر لهجة قريش التى نزل القرآن بها ، وأرسلت إلى كل المناطق الإسلامية نسخ من هذه النسخة التى أطلق عليها اسم « مصحف الإمام » وتم إحراق بقية المصاحف ، وفى الكوفة اعترض عبد الله بن مسعود الذى كان من كبار الصحابة ومن القراء المشاهير على ذلك الاجراء إلا أن اعتراضه لم يكن ذا بال نظرا لموافقة الأغلبية ، وحرى بنا أن

. نذكر أن عليا بن أبي طالب اتجه إلى جمع القرآن بعد وفاة النبي أيضا .

كان عثمان يخرج لآداء فريضة الحج فى كل سنة (عدا آخر سنوات خلافته) وكان يتولى إمارة الحاج بنفسه ، وكان يصطحب نساء النبي ﷺ معه اتباعا لسنة استنها عمر ، وفى السنة الثانية من توليه الخلافة (26 هـ) قام بتوسعة ساحة المسجد الحرام ، فاشترى بعض الديار وأزال ديارا أخرى امتنع أصحابها عن بيعها وحول أثمانها إلى بيت المال ، كما قام بتوسعة مسجد النبي مستخدما فى ذلك حجارة منقوشة ودعم أعمدته الحجرية بالرصاص (29 هـ) ، وفى إحدى السنوات وفى موسم الحج أتم الصلاة فى منى فى حين كان النبي ﷺ وخليفته من بعده وحتى عثمان نفسه يؤدون الصلاة حتى ذلك الوقت قصرا ، ولقى هذا الاجراء اعتراضا شديدا من الصحابة فقال « هذا رأى رأيتك » ، فسكت الصحابة تفاديا للخلاف .

فى ذلك العهد كانت الغنائم وفيرة على حد قول عثمان « زمن كمال النعم وفيض الدنيا » فزادت الهوة بين الغنى والفقير اتساعا ، وكان أمراء الحيوث وعمال الولايات وكل من أطلقوا على أنفسهم لقب « أهل الشرف والبيوتات والسابقة والمقدمة » وكل من كان يتصل للخلافة بشأن قد أصبحوا أصحاب ثروات طائلة وزاد اهتمامهم بزية الدنيا مما جنوه من الأقاليم المفتوحة ، وصار لهم ملك وخدم وأبهة ، وتنامت الملكيات الضخمة فى الأراضى المفتوحة .

كانت حكومة عثمان فى الحقيقة حكومة أشرف قريش ، وكان عثمان فى الجاهلية من أكبر تجار مكة ومن أشد أهلها ثراء ، وحتى فى زمن خلافته ظل يعمل بالتجارة والمعاملات الخاصة وكان يتنعم بالحياة ، وكان يقول فى رده على من يذكرونه بزهد عمر « رحم الله عمر » ، وفى عهده تولى زعماء بنى أمية من أقاربه أزمة الأمور وخصوا أنفسهم بالمناصب الحساسة والأعمال المربحة ، وكان عثمان يبدو تجاه أقاربه فى حالة استسلام تام ، وكان يمنحهم أنصبة كبيرة من الأموال العامة ، وعندما كان الناس يعترضون على ذلك كان يجيبهم « إنهم قوم فقراء ، وأنا أصل الرحم مما تحت يدي من أموال ، وكان النبي نفسه سخيا مع أهله » ، وكان الاحراء الجريئ الذى أقدم عليه عثمان تجاه الحكم بن أبى العاص الأموى وولده مروان بمثابة نموذج على اهتمامه ببنى أمية، كان

الحكم هذا عم عثمان ، وفى الجاهلية كان يعادى الإسلام والرسول ﷺ عداً سافراً ولا يرمى حرمة فى خصومته ، ويقبى ابنه مروان مدة فى المدينة يتظاهر بالإسلام لدى النبى ويقوم بالتجسس على الكفار والمنافقين من قريش ، ثم نفاه النبى ﷺ مع أبيه الحكم من المدينة ، ولم ينقض كل من أبى بكر وعمر هذا الأمر رغم كل ما عرفنا به من اجتهاد ، أما عثمان فما أن تولى الخلافة أطلقهما بل وجعل من مروان كاتباً للخلافة ومستشاراً لها وأميناً لسره وأغناه من أموال الغنائم كما منحه خمس غنائم مصر .

كان تسلط بنى أمية يخالف التتيحة المنطقية التى أقرت للخلافة فى السقيفة ، فقد قيل فيها إن الخلافة لقريش حيث أن قريشاً أشرف العرب ، من ثم حق لبنى أمية أن تكون أشرف قريش ، وكما رأينا فى الفصول السابقة استقرت السيادة فى قريش فى الأسرة الأموية بعد بنى هاشم ، إلى جانب أن رجال السقيفة كانوا يضعون فى اعتبارهم ألا يدعوا الخلافة لبنى هاشم ، ولا شك أن ساحة بنى أمية لم تكن مهياة بعد فى انتخابات الخلافة الأولية ، فقد كانوا قرماً حديثى الإسلام ولا تتوفر فيهم أسبقية الإيمان ، وكانوا فى الجاهلية يبادرون الإسلام عداً صريحاً لا تزال ذكرياته واضحة فى أذهان الناس حينئذ ، وظل شيخ بنى أمية أبو سفيان على عداوته للإسلام حتى آخر لحظة ممكنة ولم يدخل الإسلام إلا مضطراً ، لذا فقد استقرت الخلافة الأولى والثانية فى أسرتين صغيرتين من قريش هما تيم وعدى ، ومع ذلك كان لأبى سفيان نفوذ كبير فى عهدى الخلافة الأولين ، وتولى ولداه يزيد ومعاوية أكبر أمارتين فى عهدى أبى بكر وعمر .

وعندما تولى بنو أمية الخلافة فى عهد عثمان اختالوا كثيراً وحدث ما كان عمر قد استبعد بنى هاشم من الخلافة خوفاً من حدوثه ، فكان معاوية يقول : « إن قريش أسمى العرب حسبا ونسبا وجاهاً ورجالا ، وكانوا أحباء الله فى الجاهلية ، فلم تمتد إليهم يد ملك من ملوك الأرض ، وهم أولى بذلك فى الإسلام » ، وكان يقول أيضاً : « إن قريشاً كلها تعرف أن أبا سفيان أكرم قريش وابن أكرم قريش ، ولو كان الناس جميعاً من نسل أسى سفيان لكانوا جميعاً ذوى عقول راححة » ، وحين فتح سعيد بن العاص بلاد العراق كان يعتبر نفسه ملك قريش وكان يقول . « إنما هذا السواد بستان لقريش » ، وكان مروان كاتب عثمان يقول لمن يهاجمون سياسات عثمان : « أتريدون أن تنازعونا فى ملكنا ، اذهبوا فما نحن بمغلوبين » .

ورغم أن عثمان كان يتبع سبيل عمر في النهي عن المنكر والضرب بشدة على أيدي مرتكبيه وعدم التهاون في أتفه المنكرات والمعاقبة بالجلد والسجن على مقترفيها إلا أنه كان يفض الطرف عن هذه المفاصد الجوهرية (1) ، وكان ينحاز إلى أهله وأقاربه في مواجهة المعارضين ، وكان أحيانا يعاقب معارضيهِ بالنفي الجماعي أو السجن ، وكان النفي من العقوبات المألوفة لعثمان حتى اعترضه الناس بدعة ابتدعها عثمان .

لم تكن هذه الأوضاع سائغة بالنسبة للمسلمين الذين رأوا النبي في حياته وعاصروا سيرة خليفته ، فعلت أصوات الاعتراض في كل مكان ، ومن بينهم أبو ذر الغفاري أحد أكبر صحابة النبي والذي كان بالشام مشاركا في غزوة (وفي رواية أنه كان منفيًا هناك) ، كان أبو ذر يرى تجمل معاوية وكان يعترض عليه لزعمه أن أموال المسلمين هي مال الله حتى يستطيع أن يخصص نفسه بها ، وكان يقول أن أداء الزكاة لا يسقط التكليف عن الأغنياء ، بل عليهم أن يسهموا بمالهم في التخفيف عن جيرانهم وذويهم وأخوانهم في الدين حتى لا يحبسوا المال عليهم مستشهدا بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة التوبة آية: 34) ،

فقبض معاوية على أبي ذر بأمر من الخليفة وأرسله تحت الحراسة إلى المدينة ، وعندما كرر ما قاله في المدينة نفى إلى ريدة (2) وظل بها إلى أن توفي عام 32 هـ .

واتسعت دائرة الاحتجاج في البصرة والكوفة ومصر حيث أخذ الناس يشكون في المحاليس العامة من حور عمال الدولة وأقرباء الخليفة وتصرفاتهم غير المقبولة في المال العام ، ودار الحديث عن تعدى قريش على المسلمين وشكوى الناس منهم (3) ، وفي ثورة

(1) يحاول الكاتب أن يسقط كل مساوئ بني أمية على عثمان ، وكان الأحرى به أن بنأى بنفسه عن التحيز في بحثه خاصة وأنه تحرى الدقة في مواضع كثيرة أخرى من كتابه ، (المترجم) .
(2) هذه الرواية للواقدي ، ويروي الطبري أخبارا أخرى مفادها أن أبا ذر ذهب إلى ريدة برضاه لا نفيا حتى لا يرى فساد أهل المدينة ، وتحطى أحوار الطبري بالشيع كما يقول ابن أبي الحديد ، وقد أحجم الطبري بصورة عامة عن إيراد الأخبار التي تشتم فيها الاسماء إلى عثمان كما يعترف هو نفسه ، ويكتفى ابن الأثير بالقتل عن الطبري .
(3) وردت الشكوى من قريش أي من المؤسسة الحاكمة في ذلك الوقت في نهج البلاغة أيضا ، انظر شرح نهج البلاغة ، ج 3 ، ص 36

هذه الحركة المعارضة كان رجل من أهل اليمن يقيم بالبصرة ويسمى عبد الله بن سباكة ويطلق عليه رواية الأخبار اسم « ابن السوداء » نسبة إلى أمه ، ويقال إنه كان يهوديا وأسلم ، وكان لهذا الرجل نشاط فعال في إثارة الناس على الأوضاع في الدولة لدرجة أن اعتبره كثرة من المؤرخين العنصر الأصلي في هذه الحركة ، وتم نفيه من البصرة إلى الكوفة ومنها إلى الشام وفي النهاية إلى مصر ، وكان يتابع نشاطه الثوري في كل من هذه البلاد ، وإلى جانب التحامل على عثمان كان ابن سبا يدعو إلى أصل الوصاية في الإمامة بمعنى أن لكل نبي وصيا وأن وصي نبي الإسلام هو علي وأن الخلافة حق له دون غيره ، وجمع ابن سبا الثائرين على الأوضاع حوله وربط بين المدن عن طريق المراسلة بحيث أوجد جماعة تشبه الأحزاب السياسية . لذا ، فإن أهل الأخبار يطلقون على معارضى عثمان على إطلاقهم اسم « السبائية » .

كانت المدينة، مقر الخلافة والحكومة، لا تزال هادئة، فأمر عثمان وإلى البصرة وإلى الكوفة بنفى المعارضين في إمارتيهما بصورة جماعية إلى الشام لدى معاوية، وأبقاهم معاوية لبعض الوقت. وبعد عدة جلسات للتفاوض معهم كتب إلى الخليفة بأنهم يمكن أن يتسبوا في إفساد عقيدة أهل الشام وأنه ينبغي إعادتهم إلى بلادهم لكي يخف نشاطهم، فأعيدوا إلى ديارهم حيث أستاذفوا نشاطهم، فعاد وإلى الكوفة إلى الشكوى منهم ، فأمر الخليفة بنفيهم هذه المرة إلى حمص لكي يقوم واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بتأديتهم، فعاقبهم عبد الرحمن عقابا هينا ثم أطلقهم ليعودوا إلى الكوفة، وبعد فترة أرسلوا إلى الخليفة ثابا عنهم يطالبونه بالتوبة عما بدر منه من أخطاء، فرد الخليفة بتحقيق رسولهم.

في النهاية خرجت المدينة عن صمتها ⁽¹⁾ وظهر فيها المعارضون أيضا (34 هـ) ، فكتب عدد من الصحابة بها إلى أصحابهم على حدود الدولة قائلين « إن شئتم الجهاد والجهاد ها هنا ، تعالوا ، فدين الله في معرض الخطر » ، وكان من بين المعارضين في المدينة عمرو بن العاص الذي كان عثمان قد عزله عن ولاية مصر مما أوغر صدره على الخليفة فأخذ يحرض الناس عليه، واتع الإدارة في بداية الأمر إلا أنه أسفر عن حنقه على

(1) كان قيام المدينة في عام 34 هـ حسب رواية الواقدي الذي نقل عنه الطبري ، في حين أن بعض القرائن ترجح حدوث ذلك في العام اللاحق أي 35 هـ

عثمان حين أخذ موقف الخليفة يزداد صعوبة ، وكان أيضا من بين المعارضين جماعة ساورتهم المطامع فى الخلافة بعد عثمان وما كانوا ليستمعوا لو سقط عن الخلافة ومنهم طلحة والزبير ومعاوية .

كان عثمان يدافع عن نفسه من هذه الانتقادات من فوق المنبر وكان يرى أن « عمر كان يفعل نفس هذه الأشياء لكن الناس كانوا يخافون بطشه فلا يعترضون » وأنهم الآن « يستغلون لينه » ، وكان يقول « إذا لم يكن للإمام سيطرة على فائض المال العام إذن ما معنى الإمامة ؟ » ، وفى النهاية يتوعد الناس قائلا « أنا أكثر قوما من عمر ، ولدى من يستطيعون إخضاعكم بطريقة أخرى ولكنى أحول بينهم وبينكم » ، وكان يرمى فى اشارته هذه إلى بنى أمية ، وكان مروان يهب للدفاع عن الخليفة قائلا « إن شئتم كان السيف حكما بيننا وبينكم » .

رغم هذا الوعيد إلا أن عثمان كان قلقا على ما آلت إليه الأوضاع ، لذا ، وفى أواخر عام 34 هـ عندما تولى إمارة الحاح إلى مكة لآخر مرة أمر بجمع أمرائه فى مكة للتشاور معهم فى مجريات الأمور واستقر رأى على مقاومة ثورة الناس ، ثم أمر أمراءه بالعودة إلى ولاياتهم واتباع الشدة مع المعارضين وارسالهم إلى المعسكرات، بل وقطع الصلات عنهم إن لزم الأمر حتى يحتاحوا إلى الخليفة ، وعندما اجتمع هذا الجمع بمكة حدث اتصال بين ثلاث ولايات معارضة ، وقرر أمراؤها ألا يدعوا الولاة يعودون إلى ولاياتهم ، إلا أن هذه الخطة لم تنفذ إلا فى الكوفة ، فأعاد أهل الكوفة واليهيم سعيد بن العاص من مشارف الكوفة وكتبوا إلى الخليفة أن يرسل إليهم أبا موسى الأشعرى وهو ما قل به الخليفة ، عندئذ قامت الولايات الثلاث بإيفاد جماعات ممثلة لها إلى المدينة تجدد مطالبها القائمة على عزل العمال الذين كانوا فى ماصب هامة فى ذلك الوقت ، ووقف تجاوزات الأقارب واصلاح أخطاء الماضى وتوبة الخليفة وتحديد تعهداته ، إلا أن الخليفة نى فى المسجد من جديد أدلة براءته ولم يعترف بهذه المطالب فى محلها ، ولم يقل سوى رد خمس غنائم مصر إلى بيت المال بعد أن كان قد وهب لابن أبى السرح واليه على مصر ، وأكد على أن كلا من أبى بكر وعمر كانوا يهبون مثل هذه الهبات من أموال المسلمين .

وعاد ممثلو هذه الولايات ، وتأكد أن الخليفة غير مستعد للتوبة ، وفى شوال عام 35 هـ

قامت المدن الثلاث بالتعاون فيما بينها وطبقا لخطّة مرسومة بحشد ستمائة رجل من كل منها وفى رواية ألف رجل والتحرك صوب مكة بقصد أداء العمرة ، ونزل هذا الجمع فى مكان بالقرب من المدينة وكان هدفهم إنهاء أمر عثمان إما بالإقالة أو بالقتل ، حينئذ أوفدوا ممثلين عنهم إلى المدينة ، فاتجه ممثلوا المصريين إلى على والبصريين إلى طلحة والكوفيين إلى الزبير يطالبون هؤلاء الزعماء بالتدخل ، وقام معارضو المدينة أيضا، واحتدم الأمر بينهم وبين الخليفة فى المسجد ، فأغلظوا له القول بل وذات يوم أخذوا عصا الخلافة من يده وكسروها ، فخاف الخليفة وتوسل بعلى ومحمد بن مسلمة الذى كان أيضا من الزعماء المقبولين فى المدينة ، فتباحث على ومحمد مع المعارضين واستقر الأمر على أن يعلن الخليفة توبته ويصلح ما وقع من أخطاء فى الماضى ، على أن يتم ما تيسر من ذلك بالمدينة فى غضون ثلاثة أيام والبقية فى مدة زمنية مناسبة ، وعقدت معاهدة بذلك وتحرك المعارضون للعودة إلى ولاياتهم ، ولكن ما أن غادروا المدينة ارتقى عثمان المنبر بتحريض من مروان وأعلن نكوصه عما تعهد به ، وقال إن المصريين عادوا بعد أن أدركوا أنهم كانوا مخطئين . ومن ناحية أخرى، قابلت جماعة المصريين رسولا موفدا من قبل عثمان إلى مصر برسالة من الخليفة إلى واليه عليها مفادها أن يلقى الوالى القبض على زعيم جماعة المصريين حال وصوله إلى مصر وأن يجلدّه ويحلق رأسه ولحيته وأن يلقى به فى السجن ، فعادت جماعة المصريين فى الترو إلى المدينة ومعهم أهالى البصرة والكوفة ، فدخلوا المدينة دون تردد وطالبوا بإعفاء الخليفة من منصبه جديا ، ولكنه امتنع قائلا « إن قطعتم رأسى لن أتنازل عن هذا القميص الذى ألبسنيه الله ولن أدع أمة محمد صلى الله عليه وسلم بلا صاحب » ، ودامت المفاوضات مدة ثلاثة أيام كان عثمان يأتى خلالها كل يوم إلى المسجد لإمامة الناس، وكان المعارضون يتصايحون ويعترضون، فتوسل عثمان مرة أخرى بعلى ومحمد بن مسلمة وطلب منهما إقناع الناس مرة أخرى بالاكْتفاء بتوبته، إلا أن عليا ومحمدا أحجما عن التدخل بعد أن لم يبق مجال للصّلىح نتيحة لنكوصه عن تعهده. فى تلك الأثناء، كان عثمان قد كتب إلى الولايات وطلب تعبئة الجيوش من كل مكان وإعدادها لمقاومة شديدة ، وذات يوم هاجم الناس الخليفة بالحصى والحجارة فى المسجد، فسقط على الأرض وحملوه إلى داره، فحاصر الثائرون الدار وحبسوا عنها الماء، فتدخل على حتى يسمحوا بمرور الماء، واستمر الحصار اثنين وعشرين يوما، وعندما سمع

الثوار بأن الخليفة استدعى الجيوش من الولايات وأن هذه القوات سرعان ما تصل أصرروا على اقتحام الدار، وحدث أن رمى أحد غلمان عثمان رجلا من الصحابة كان عثمان يتحدث إليه من أعلى البيت بسهم فقتله ، فثار الثوار واقتحموا البيت وطالبوه بالتنازل عن الخلافة لآخر مرة إلا أنه أصر على امتناعه ، ولم يبد قبوله إلا للتوبة ، فقتله الثوار بينما كان ممسكا بالمصحف في يده (في ذي الحجة عام 35 هـ) .

كان عثمان حين توفي شيخا يزيد عمره عن الثمانين ، وكان متوسط القامة غزير الشعر ، وفي وجهه ندوب ، وكانت له لحية عريضة كثة ومخضبة ، حمل جثمان عثمان بسرعة وفي وجل ليلا إلى البقيع حيث دفن في ركن بعيدا عن سائر القبور .

خلافة علي :

تعطلت عملية تعيين خليفة بعد عثمان لعدة أيام، فكان المصريون يريدون عليا بن أبي طالب في حين كان البصريون يريدون طلحة، وكان أهالي الكوفة يشايعون الزبير، وفي النهاية اجتمعوا جميعا على نصرة علي، ووافقهم جمهور أهل المدينة على هذا الرأي، لكن عليا كان يمتنع طوال هذه المدة عن قبول اقتراح الناس وكان يختبئ عن عيونهم، وفي أحد الأيام التف الناس حوله فقال «دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول وإن الآفاق قد غامت والمحجة قد تنكرت، واعلموا أنني إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا»⁽¹⁾، يتضح من ذلك أن عليا كان يدرك تماما تعقد الأوضاع في المجتمع الاسلامي، فقد خرج أشراف قريش الذين كانت لهم الخلافة في هذه السنوات الأخيرة عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وأوشكوا على الانتكاس إلى عصر الجاهلية، فلم يكن لهم هدف سوى تأمين مصالحهم المادية واستعادة مكائهم القديمة، ولا شك أن أي خليفة يحاول أن يغير هذا الوضع كان سيلقى معارضة ومقاومة شديدة من جانب قريش خاصة في ذلك الوقت حيث تورط بنو أمية في خلافة عثمان بصورة كاملة

(1) بهج البلاغة والطري ، ح 5 ، ص 126 .

وكانوا يمثلون مراكز وقوة كبيرة بالشام وما وراءها، لكن الناس لم يتركوا عليا حتى خرج إلى المسجد وبايعه الناس في حين تخلف عن البيعة عدد كبير من الناس في مقدمتهم طلحة والزبير ومن بينهم أيضا سعد بن أبي وقاص، وخرج من المدينة كل من تمكن من ذلك من بنى أمية في خلال هذه الأيام، أما طلحة والزبير فقد أقاما بعض الوقت بالمدينة، ولما كانت لهما مطالب في الإمارة والمزايا الأخرى التي رفض على منحها لهما يأسا، وفي الوقت نفسه وصلت لهما رسالة سرية من معاوية، فخرجا إلى مكة بعد أن استأذنا عليا في أداء العمرة، وفي مكة ثارت عائشة ثورة شديدة وطالبت بالثأر لعثمان رغم أنها كانت بالأمس من معارضييه أو على الأقل من الصامتين عنه، وجمعت الناس حولها ضد على بسبب سابق عداوة مع على، وامتنع معاوية في الشام أيضا عن بيعة على وأعلن تمرده بدعوى الثأر لعثمان، وهي الدعوى التي اتخذت لتشويش أفكار الناس وخداع العامة وتحولت فيما بعد إلى شعار التف حول كل المعارضين لعلي، واضطرم الصراع بين بنى أمية وآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصبح سافرا، وانشغل الحزب الأموي بالدعاية لأفكاره، وفر نعمان بن البشير الأنصاري من المدينة إلى الشام بقميص عثمان وعليه دمه، واستقبله معاوية فاتحا ذراعيه وعرض قميص الخليفة المقتول بمسجد دمشق أمام أعين الناس .

سارع على بتغيير عمال الولايات وعين بدلا منهم عددا من ثقاته ، ولكن كان قد أضحى واضحا أن الأمور لن تستقيم مع وجود معاوية ، ولم يكن ثمة سبيل إلا الحرب ، وكان ذلك اختيارا صعبا للغاية لأن والى الشام كان يسيطر على منطقته بصورة تامة وكان يخضع الجميع سواء طوعا أو كرها ، وكان أكثر الأهالي من أعراب البادية لا يعرفون من الإسلام سوى قشور ولا يفهمون إلا الحرب والغنم فيها ، واتخذت دعاية المعارضين نغمة أخرى أثرت أيما تأثير في تشويش أفكار العوام وركزت على أن « قتال أهل القبلة له حرمة قتل الأخ لأخيه » .

أما حزب المعارضة الذي شكلته عائشة في مكة فقد ازداد قوة بانضمام أتباع عثمان إليه من المناطق المجاورة ، فقد انضم إليه عبد الله بن عامر وتبعه طلحة والزبير ، وقد نقض الأخيران بيعة على بدعوى أنها كانت إجبارية ، وقد أعلن ثلاثتهم « التوبة عما بدر منهم بحق عثمان » طبقا لقول أهل السنة ، وبدأوا في تعبئة جيش « للثأر لعثمان » ، وأرسل عمال عثمان امدادات من اليمن والعراق للمساعدة على تشكيل هذا الجيش ،

وخرج الشائرون من مكة متجهين صوب العراق بقصد حشد أنصار لهم هناك ، فانضم إليهم عدد من الناس فى الكوفة ، وعندما بلغوا البصرة كان تعداد الجيش قد بلغ ثلاثة آلاف رجل ، وفى البصرة خرج عثمان بن حنيف الوالى من قبل على للدفاع ، فقبضوا عليه غفلة واستولوا على المدينة وقتلوا عددا كبيرا من أنصار على بدعوى « دم عثمان » ، أما ابن حنيف الذى كان من أنصار المدينة فأبقوا على حياته خوفا من أن يقوم الأنصار فى المدينة بالمعاملة بالمثل ، إلا أنهم أوسعوه ضربا وانتزعوا شعر لحيته عنوة وطردوه ، وكانت هذه الأعمال تخالف حسن التدبير والسياسة ، فقد استاء أهالى القتل من الجيش المغير ، وظل الجيش بالبصرة ولم يكن لهم حديث إلا عن طلب دم عثمان ولا شئ عن الخلافة التالية ، وكانت إمامة المصلين من المسائل الهامة للغاية وتم توزيعها بين طلحة والزبير يتولاها أحدهما يوما ويقوم بها الآخر يوما .

وخرج على من المدينة ورفقته جيش عدده سبعمئة رجل، وقصد فى البداية أن يصد الجيش لو وجده فى الطريق بين مكة والكوفة، ولكنه حين وجد أن الجيش قد تقدم اتجه إلى العراق ونزل فى ذى قار (قرب البصرة) وأوفد رسلا من قبله إلى الكوفة لتعبئة جيش، إلا أن والى الكوفة أبى موسى الأشعرى، الذى كان من أتباع عثمان، كان منشغلا بأمره فلم يخرج الرسل منه بنتيجة، ثم أرسل ابنه الحسن مع عمار بن ياسر ليجمع قوات ويعود إلى ذى قار، وخرج أتباع عثمان أيضا من البصرة ونزلوا فى مواجهة جيش على، فأوفد أمير المؤمنين سفيرا يحمل رسالة منه إلى المعارضين، واستمر التفاوض بضعة أيام أملا فى الوصول إلى السلام، وقرر على ألا يكون البادئ بإعلان الحرب، وفى النهاية نشبت الحرب (حمادى الأخرى عام 36 هـ)، وأراد على أن يتحدث إلى الزبير ويذكره بعهد النبى صلى الله عليه وسلم، وقرر الزبير ألا يكون له يد فى القتال إلا أن ابنه عبد الله الذى كان شديد الحماس لخلافة أبيه وحده اللوم للزبير ودعاء للمشاركة فى القتال، لكن الزبير انسحب من الميدان وانتحى حائبا، والتقى به رجل يسمى عمرو بن جرموز فى الصحراء وقتله، أما طلحة فقد أصيب بجرح نافذ يقال إنه تلقاه من مروان بن الحكم الذى كان يعتقد أن طلحة هو قاتل عثمان، وتوفى طلحة متأثرا بجرحه قبل بلوغه المدينة، وموت هذين القائدين كان يفترض أن يتفرق الجيش، إلا أن عائشة ظلت تحرض المحاربين على مواصلة القتال من هودجها، فتعرض الهودج لوابل من السهام إلا أنه كان مكسوا

بغطاء متين صان صاحبه من الأذى ، وكان أعراب بنى ضية يحرسون الناقة ، وفى النهاية أتى مالك الأشتر وأمسك بلجامها وأنزل اليهودج ، فأرسل على محمدا بن أبى بكر الذى كان أخا عائشة ومحرمها فاصطحبها إلى دار بالبصرة بكل احترام ، فذهبت إلى مكة بارادتها ثم عادت إلى دارها بالمدينة .

بانتصار قوات على دخلت العراق والمناطق التابعة لها تحت سيطرة على ، أما الشام فكانت لا تزال تحت سيطرة معاوية ، وكان شن الحرب عليه يتطلب تعبئة جيش من العراق وحده ، لكن عمال على حشدوا جيشا من آذربيجان وأماكن أخرى ، وكان من صحابة النبى ما يقرب من ألف رجل بصحبة على وكان سبعون منهم ممن شاركوا فى غزوة بدر ، وتحرك أمير المؤمنين بجيشه بدفع من معاوية واتجه إلى الشام على امتداد نهر الفرات .

استقرت مقدمة جيش معاوية بقيادة أبى الأعور السلمى فى صفين وهى صحراء شاسعة بجنوب الرقة ، واستولت على معبر الفرات الذى كان النقطة الوحيدة للوصول إلى الماء ، فبذل مالك الأشتر جهودا خارقة حتى فتح طريقا لجيش أمير المؤمنين (فى ذى الحجة عام 36 هـ) ، وظل على يؤخر التقدم أملا فى التفاوض من أجل الصلح إلا أن أهل الشام لم يكن لهم حديث إلا عن « دم عثمان » ، وألقى سلاحه أيضا احتراما لشهر المحرم ، وفى صفر من عام 37 هـ نشب القتال ، وكان جيش على يضم عددا كبيرا من مرتلى القرآن وكانوا يعارضون كلا من عثمان ومعاوية وكانوا يقاتلون بكل قوة ، وفى بداية الهجوم قامت ميمنة جيش على بشق صفوف العدو ⁽¹⁾ وتقدمت حتى قارت خيمة معاوية إلا أن الميسرة لم تتحمل مواجهة العدو وحدها ، فدخل على بنفسه ساحة القتال وأعاد الفارين صفوف الجيش ، ثم دعا معاوية للقتال وجها لوجه استنادا إلى احتمال أن يضع القتال بين القائدين حدا للحرب والخلاف بين فريقين من المسلمين ، إلا أن معاوية رفض هذه المواجهة خوفا ، واستمر القتال إلى الليل ، وعندما لاح الفجر بدت علامات الهزيمة على جيش معاوية ، فاتجه مالك الأشتر من الميمنة وعلى من القلب بجمعيهما إلى العدو ، وأوشكا على إيقاع الهزيمة بمعاوية ، لكن عمرو بن العاص فكر فى حيلة ، رفع جيش الشام المصاحف على أسنة الرماح وقالوا « نرضى بحكم القرآن » ، وكان لهذه الخطورة أثر فاق التوقعات ، فلانت إرادة السذج ووضعوا السلاح ، وبذل على ومن معه

(1) يتصح تحيز الكاتب بالطبع فى وصفه لمعارضى على بلمط (العدو) ، وفى وصفه لعلى دون سائر الخلفاء الراشدين بلقب (أمير المؤمنين) ، (المترحم) .

من قادة الجيش كل جهد لإيقاف الناس على الخدعة دون جدوى ، وكان للخيانة دور أيضا حيث اتجه مأجورو معاوية في جيش على بإضعاف معنويات القوات ، وانتهاز الأشعث بن قيس شيخ قبائل كندة الذي كان يكن العداوة والحقد للإسلام والمسلمين ويتظاهر بنصرة على ودعم قواته الفرصة واستصدر أمرا من على مستنلا إلى العدد الهائل الذي يتزعمه بأن يعيد مالك الأشتر الذي كان لا يزال متحمسا للقتال واستأذن في لقاء معاوية وتحديد الشكل الذي يتم به تحكيم القرآن .

وعاد الأشعث من عند معاوية باقتراح منه مفاده أن يقوم كل طرف بتحديد حكم له ، ويحتكم الحكمان إلى القرآن في تحديد من تكون له أحقية الخلافة ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص حكما عنهم واقترح أهل العراق والأشعث أن يكون أبو موسى الأشعري حكما بجانب على ، وكان اختيار العراقيين لأبي موسى يرجع إلى أنه كان واليا عليهم لمدة من الوقت وكان يحذر الناس في تلك الأيام من الفتنة ، أما الأشعث فكان يستند في اختياره إلى أن أبا موسى كان يمانيا من عرب قحطان وبالتالي ينتمى إلى جلده ، ولم يقبل على تحكيم أبي موسى ويبن للناس سوابق عداوتهما ، واقترح على الناس تحكيم عبد الله بن عباس ومالك الأشتر ، لكن لا الناس ولا الأشعث اقتنعوا بذلك وطالبوا بتحكيم أبي موسى دون غيره ، واضطر أمير المؤمنين إلى التصديق على القرار وفحواه أن يتراجع الجيشان ، وأن يلتقى الحكمان في شهر رمضان بدومة الجندل ليدليا برأيهما .

وعاد على من صفين إلى الكوفة ، وأوفد جعدة بن هبيرة المخزومي واليا على خراسان ، فذهب جعدة إلى مدينة أبر (نيسابور القديمة) وكان أهلها قد ارتدوا عن الإسلام فرفضوا ولايته وعاد ، فأرسل على خليدا بن قره اليربوعي بجيش إلى خراسان لمحاصرة نيسابور ، فقبل الأهالي الصلح وكذلك فعل أهالي مرو ، وفي ذلك الوقت طلبت أميرتان فارسيتان الأمان من قائد الجيش وجاءتا إليه فأرسلهما إلى أمير المؤمنين ، فعرض عليهما الإسلام وأن يزوحهما بزوحين من المسلمين فقالتا « بل زوحنا ولديك » ، فرفض على ، فطلب أحد الدهاقين من أمير المؤمنين أن يسلم له هاتين الفتاتين وقال : « هذه مكرمة منك لى » ، فسلمهما على له ، وظل الرجل يرعاهما ويرعى حرمتهما⁽¹⁾ ، وعادت الفتاتان بعد فترة إلى ديارهما بخراسان .

(1) كانتا عنده يبرش لهما الديباج ويطعمهما في آية الذهب ، الطبرى ، ح 6 ، ص 36 .

وفى طريق العودة من صفين ما كاد الجيش يبلغ الكوفة حتى وقعت الفتنة فى صفوفه، فثار عدد كبير من جنوده عل الصلح واتفاقية التحكيم ، واعتبروا ذلك كفرا وقالوا إن الخلافة ليست بالأمر الذى يتقرر بتحكيم أشخاص وإنه « لا حكم إلا الله » وأغاروا على الآخرين بدعوى أنهم « أعداء الله الذين يداهنون فى أمر الدين ويكفرون » ، وما يدعوا للدهشة أن دعاة هذا الاتجاه كانوا هم أنفسهم الذين اضطروا عليا بالأمس إلى وضع السلاح والتوقيع على اتفاقية التحكيم وتحديد أبى موسى حكما له ، وفى مقابل هذه الفئة ظهرت فئة أخرى ثبت على مشايعة على واتهموا هؤلاء بنقض بيعة الإمام وإشاعة الفرقة فى صفوف الجماعة ، وسميت هذه الفئة منذ ذلك الحين باسم « الشيعة » ، وطوال الطريق إلى الكوفة ظل هذا الجدل محتدما بين الفئتين ، بل وكان الفريقان يلتقيان أحيانا⁽¹⁾ ، وعند مشارف الكوفة رفضت الفئة المعارضة للتحكيم والتي سمي أفرادها بالخوارج دخول المدينة مع بقية الجيش ونزلوا فى حروراء خارج الكوفة .

خرج على إلى حروراء للتفاوض مع الثوا بناء على طلب منهم ، وأحبروا عليا على لقائهم وفى النهاية صدق على الرضا بحكم القرآن لا بحكم الأفراد ، أى إبداء الرفض إذا ما جاء حكم الأفراد على خلاف حكم القرآن ، واقتنع الثوار بهذا الإقرار ، وعادوا إلى الكوفة مع أمير المؤمنين ، ثم جاء إلى الكوفة رسول من قبل معاوية مبلغا أن « معاوية أرسل حكمه وأن عليكم أيضا أن ترسلوا بحكمكم ولا تصفوا إلى ما يقوله أعراب بكر وقيم » ، فتم استدعاء أبى موسى من اعتكافه وأرسل إلى دومة الجندل ويرفقه أربعمئة فارس بقيادة عبد الله بن عباس بمقتضى شرط الاتفاقية ، فرفع الخوارج شعار « لا حكم إلا لله » من جديد ، وخرجوا محتشدين من الكوفة إلى نهروان وهو مكان يقع فى سفح جبل زاجروس ، فسموا بالخوارج منذ ذلك الوقت باعتبار خروجهم من الكوفة أو خروجهم على الإمام ، وفى نهروان اختاروا عبد الله بن وهب أميراً عليهم (فى العاشر من شوال عام 37 هـ) .

فى الوقت نفسه التقى الحكمان فى دومة الجندل وبدأ التفاوض⁽²⁾ ، فى البداية

(1) الطبرى ، عن أبى محب ، ص 35

(2) يرى الواقدي أن الحكمان اجتماعا فى شعبان من عام 38 هـ .

تبادلا الآراء حول من هم أحق بالخلافة ، واقترح عمرو بن العاص معاوية فلم يقبل به أبو موسى ، فذكر له ابن معاوية فلم يقبل ، لم يكن أبو موسى على وفاق مع علي لأنه نزع في عهده عن ولاية العراق ، لكن معاوية أيضا كان يعد في نظره رجلا ذا هوى ولا يبدى اهتماما كبيرا بالدين ، وربما كان يرى أن هناك ممن نقي من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم من هم أولى بالخلافة ومن بينهم أبو موسى نفسه ، لذا فقد اقترح عبد الله بن عمر على عمرو بن العاص لكن عمرو لم يقبل به ، ثم طلب رأى أبي موسى فقال « إنى أرى أن نخلع كلا منهما وندع أمر الخلافة شورى بين المسلمين يختارون من يشاؤون » ، فصدق عمرو على رأيه وقررا أن يعلننا رأيهما على الملأ .

يروى عن أنى مخنف أن عمرو بن العاص طوال مدة التفاوض كان يقدم أبا موسى دوما في الحديث باعتباره من قدامى صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ولتقدمه عليه في السن ، واعتاد أبو موسى على ذلك ، وكان لعمرو هدف من ذلك ، وعندما بدأ إعلان الرأى تقدم أبو موسى أولا ، وكان أبو موسى رجلا يسهل خداعه ، فرغم أن ابن عباس حذره من مكر عمرو فقد نهض وقال في حضور جمع من الناس بعد الحمد والثناء : « اتفقت أنا وعمرو على خلع كل من علي ومعاوية من الخلافة وعلى ترك الاختيار للناس يولون من يشاؤون عليهم ، وها أنذا أعلن خلعهما جميعا ، ادهوا وتخيروا من هو أهل لها » ، وما أن أنهى حديثه نهض عمرو وقال : « أسمعتم ، لقد خلع الرجل صاحبه ، أم أنا فقد صدقت على تثبيت معاوية فهو ولي عثمان والمطالب بدمه وهو أحق الناس لخلافته » ، ويروى أن أبا موسى ثار لهذا التصرف غير المتوقع واحتد على عمرو ، وأخذ الرحلان يتبادلان السباب⁽¹⁾ ، فمضى عمرو إلى معاوية وهناك بإمارة المؤمنين ، وعاد عبد الله بن عباس إلى علي ، أما أبو موسى فعاد إلى مكة مباشرة خوفا من غضب الناس .

لا شك أن حكما بهذه الحديعة لم يكن قاطعا أو مقنعا ، فاستعد علي لحشد الجيش لإعلان الحرب ، وحاول أن يضم الخوارج إليه ، وبين لهم أن هذا الحكم لم يكن قائما على القرآن وأنه صدر على خلاف ما تم الاتفاق عليه في المعاهدة ، إلا أن الخوارج كانوا قد

(1) يرى هوار أن احتمال وجود اتفاق سرى بين الرحلين قائم إلا أن الأحداث التالية تسمى ذلك ،

(تاريخ العرب ، ج 1 ، ص 254)

اختاروا إمامهم ولم يصغوا لعلی ، ورأت فئة أخرى من الجيش تتبع الأشعث بن قيس ضرورة قتال الخوارج أولا ، واتخذ الخوارج من نهروان مركزا لهم وأخذوا يغيرون على المناطق المحيطة ويجبرون الناس بالوعيد بالقتل على لعن كل من عثمان وعلی ، وسارع على لمواجهةهم ، ففر عدد منهم وتفرقوا في مناطق من إيران والعراق ، وصمد منهم ألف وثمانمائة رجل منهم حتى قتلوا عن آخرهم (في التاسع من صفر عام 38 هـ) ، إلا أن هذا الاتجاه الخارجی لم يتم القضاء عليه ، فقد قام من تفرق منهم بمرور الوقت ببث عقائدهم بين العناصر والفئات الساخطة على الحكومة وضرائب الدولة ، وظلوا يبشون الفرقة في إقليم خوزستان لمدة طويلة ، وشيئا فشيئا تحولت هذه العقيدة إلى مذهب ، ولا يزال ثمة خوارج في عمان وزنجبار وتونس والجزائر ولا يزالون يتبرأون من علی .

بعد أن فرغ علی من أمر الخوارج استعد لحرب معاوية ، لكن أهل الكوفة كانوا قد انهكوا من الحرب لمدة سنة فافضوا من حوله ، وفي مصر تمرد عدد من الناس بتحريض من معاوية وعمرو بن العاص وتعرض محمد بن أبي بكر عامل علی هناك للخطر ، فأرسل علی مالك الأشتر من الكوفة إلى مصر ، فقام معاوية من خلال أتباعه في مصر بتحريض عامل الخراج في العريش علی دس السم في العسل لمالك قبل بلوغ مصر ، وقال معاوية « إن لله جنودا منها العسل » ، وفي نفس الوقت خرج عمرو بن العاص من الشام واستولى علی مصر ، أما محمد بن أبي بكر فقد تفرق جنوده من حوله وألقى معاوية بن حديج قائد عمرو بن العاص القبض عليه وقتله ، فعزن علی حزنا شديدا علی الرجلين ، وقام معاوية بتعبئة قواته من كل مكان ووجهها إلى علی ، فاستولى علی مكة والمدينة وأعملت قواته القتل في أهل العراق ، وظل علی يقاوم هذه المصاعب مدة عامين وكان يدفع بفرق جيشه واحدة تلو الأخرى لصده جنود الشام ، وفي ذلك الوقت حلت واقعة مفاجئة غيرت محرى الأحداث تغييرا تاما ، فقد أقسم ثلاثة من الخوارج علی قتل علی ومعاوية وعمرو بن العاص في ليلة واحدة ، فذهب إثنان منهم إلى معاوية وعمرو بن العاص إلا أنهما لم يتمكنوا من تنفيذ خطتهما ، أما الثالث وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي فقد أعد كمينًا لعلی علی الطريق إلى المسجد بمعاونة عدد آخر معه ، وهوى علی رأسه بالسيف ، وبعد يومين لقی علی وجهه ربه متأثرا بجرحه (في الحادي والعشرين وفي رواية في السابع عشر من رمضان عام 40 هـ) في سن الخامسة والستين أو الثالثة

والستين من عمره باختلاف الروايات ، وقام ولداه بدفنه وأخفيا مكان قبره خوفا من الخوارج وغيرهم من الأعداء ، وكما يروى رواية الشيعة قام الإمام جعفر الصادق بهداية الشيعة إليه فيما بعد (1) .

يروى (2) أن عليا كان متوسط القامة عريض المنكبين قوى الساعدين نحيف الساقين قمحى البشرة وله لحية بيضاء ووجه شوش دوما ، وكان على مسلما ديننا بمعنى الكلمة ، فلم يجد الفساد أو التفرقة فى الدين طريقا إلى جهاز حكمه . لذا ، فقد أبغضه المتكالبون على الدنيا ، أما المسلمون الحقيقيون الذين كانوا يعترفون فضائله ومكارم أخلاقه فقد أحبه حبا شديدا ، ولا غرو فى أن اسم على يعد من أقدس الأسماء فى تاريخ الإسلام .

* * *

(1) فما يتصل بقر على فإن أهل السنة لديهم روايات مختلفة ، لكن ابن الأثير يقول إن أصح الأقوال هو أن قبره يقع فى نفس المكان الذى يعد مرارا للناس حتى اليوم .

(2) البحار ، ج 9 ، ص 2 .

الفصل الخامس الأمويون

معاوية و آل سفيان

بعد وفاة علي أعلن معاوية نفسه أميراً للمؤمنين وكان قبل ذلك ينادى بلقب " أمير" ⁽¹⁾ أما في الكوفة فقد بايع الشيعة الحسن بن علي ، فخرج بالجيش الذي كان والده قد قام بحشده في أواخر أيام عمره بقصد الحرب ، فأرسل قيس بن سعيد عبادة على رأس اثني عشر ألف رجل في البداية كمقدمة للجيش ، أما هو فقد دخل المدائن ، وعلى الجانب الآخر نزل معاوية بجيشه في مسكن ⁽²⁾ بالقرب من الموصل ، وذات يوم نودي في جيش الحسن بن علي بأن قيس بن سعد قتل وأن الخير في الفرار ، ولدى سماع هذا النداء وقع الإضراب بين الناس بينما أغار عدد منهم على مقر الحسن ، وحتى البساط الذي كان تحت قدميه سحقوه ، وقام أحد الثوار بطعن الحسن في فخذه بخنجر ، وبهذا تأكد أنه لا سبيل إلى مواجهة معاوية وقواته المنظمة المطيعة بمثل هذا الجيش ، ونتيجة لذلك اتجه الحسن إلى مراسلة معاوية والتفاوض معه على إحلال السلام ، واستقر الأمر على أن يحصل الحسن على موارد بيت المال بالكوفة وأن يكف عن نشاطه وألا يذكر اسم علي بسوء أمامه ، فمضى الحسن مع سائر أهل البيت إلى المدينة ودخل معاوية الكوفة (عام 41 هـ) .

أما قيس بن سعد فلم يستسلم رغم إقرار الصلح وصعد مع عدد آخر للمقاومة ، كان قيس من دهاة العرب وكان معاوية يرهبه ، فعقد معه معاهدة صلح منفصلة تقضى بتأمين الشيعة وعدم التعرض لهم بسوء .

في ذلك الوقت ثارت جماعة من الخوارج الذين كانوا قد تفرقوا على أثر هزيمتهم في نهروان أو انتحوا حانيا مترددين بعد أن رأوا أنه قد أصبح : المؤكد أن الوضع قد استقر على خلافة معاوية، فأرسل معاوية فرقة من الشام لقتالهم ، فانهزمت، فتحول إلى أهل الكوفة وطالبهم بصد الخوارج، وبعد عودة معاوية إلى الشام قام واليه في الكوفة المغيرة

(1) ورد في الطبري أن هناك قولاً آخر بأن معاوية كان ينادى بأمير المؤمنين منذ وقت التحكيم ، وأورد ابن كثير كلتا الروايتين وأحجم عن ترجيح إحداها على الأخرى .

(2) مفتح الأول وكسر الثالث .

بن شعبة بمواصلة مابداه معاوية وسحق الخوارج فى نطاقه بمساعدة شيعة على الذين كانوا يعادون الخوارج أيضا ، أما خوارج البصرة فقد ولى قتالهم بسر بن أبى أرطاة (1) ، إلا أن مسألة الخوارج كانت لا تزال فى بدايتها لا نهايتها . وكما سترى فيما بعد كانت سببا فى قلق الخلفاء الأمويين طوال عهدهم بل وفى العصر العباسى أيضا ، وكانت قدرة الحكومة المركزية منذ معاوية وما بعده على مواجهة هذه الجماعات المتفرقة فى تصاعد دائم .

كان من أهم مايشغل معاوية هو أن يجد من بين أنصار عثمان والحزب الموالى لقريش من يتمتع بقدرة على إدارة شئون الدولة ورعاية مصالحه ، فأرسل عمرو بن العاص واليا على مصر بعد أن قضى فترة فى بلاط معاوية ، وأرسل المغيرة بن شعبة إلى الكوفة ، وولى على البصرة عبد الله بن عامر الذى كان من أشرف بنى أمية لكنه كان رجلا لينا سهل القياد ولا طاقة له على مواجهة الخوارج ، لذا فقد عزله وولى بدلا منه الحارث بن عبد الله الأزدي وبعد أربعة أشهر عزله وولى بدلا منه زياد بن أبيه على البصرة وما ورائها أى بلاد فارس .

كان زياد بن أبيه الذى كان يدعى أيضا باسم أمه - زياد بن سمية - من أهل الطائف وكان أبوه يدعى عبيدا وكان من قبيلة ثقيف ، وكانت سمية أمة الحارث بن كلدة وتزوجها عبيد فى الجاهلية ، وكان زياد يعرف فى الطائف باسم زياد بن عبيد ، وكان أول من استعمل زياد هو المغيرة بن شعبة حين كان واليا على البصرة ، إذ كان ملما بالقراءة والكتابة وكان شابا نابها ذا كفاءة ، ثم أرسله على بن أبى طالب واليا على فارس وكان بها حين قتل على وتولى معاوية الخلافة ، الا أنه ثار على معاوية واختبأ بقلعة فى اصطخر بما لديه من أموال ، فأمر معاوية بحبس أولاد زياد ومصادرة أمواله ، الا أن هذا التهديد لم يجد شيئا ، وفى النهاية أوفد المغيرة بن شعبة اليه ، وكانت تربطهما صلة وثيقة لكى يقتنعه بأن المصلحة فى نصرة معاوية ويحذره من " الإبصاة إلى مايرده الناس " (2) ، فجاء زياد إلى معاوية وانصم إلى حزيه ، ومن فرط اهتمام معاوية باستقطابه اليه أعلن

(1) أرطاة (بدون أبى) وردت فى بعض الكتابات " بسر " بضم الأول وسكون الثانى .

(2) مروج الذهب ، ج 2 ، ص 40

مؤاخاته رسميا بحيث أجبر شيخا يبيع الخمر من أهل الطائف ويسمى أبا مريم على أن يدلى بشهادة في مجلس عام بأن " أبا سفيان أبا معاوية زنى بأم زياد في الجاهلية " وأن هذا الشيخ نفسه كان وسيطا في هذه الصلة ، فكان لابد بالتالي أن يدعى زياد باسم بن أبي سفيان بحكم من معاوية ، وكان ارتكاب معاوية لهذه المخالفة الشرعية بهذه الصورة البغيضة مدعاة لاستياء الناس منه ، فعبر الشعراء عن استيائهم بهجانه شعرا ، إلا أن معاوية أخذ يعلى من مكانة زياد يوما بعد يوم إلى أن منحه ولاية البصرة وتوابع بلاد فارس وملحقاتها، وضم إليه أيضا ولاية الكوفة بعد المغيرة بن شعبه (عام 45 أو 50 هـ)، واتبع زياد في حكمه سياسة البطش التي حبذا معاوية ، فكان يبطش بطشا شديدا بالمتمردين ومعارضى الحكومة في البصرة والكوفة ، وقام بتصنيف أهل الكوفة إلى أربع جماعات واختار لكل جماعة رئيسا من أتباعه ومنحه صلاحيات فض الخلافات في جماعته ، فكان " يأخذ البريء بجرم المجرم " على حد قوله ، وفي عهد زياد تم الحكم بالقتل على عدة آلاف من أهالي البصرة والكوفة ، ونتيجة لهذه السياسة القاسية سادت حالة من الأمن والهدوء تدعو للدهشة حتى أن أحدا لم يجرؤ على قطع الطريق في مسالك الصحراء .

لم يكن معاوية ينسى مسألة " ثار عثمان " وكان يدعم المطالبة به لأنه كان يعتبر هذه السياسة أساس خلافته ، وكان يطبق هذه السياسة بسهولة في الشام ، فأصبح الناس هناك أشد ميلا إلى عثمان نتيجة لدعاية معاوية ، أما في العراق التي كانت مهد التشيع فلم يكن الأمر بهذه السهولة ، فأخذ عمال معاوية يسيرون " أبا تراب " من فوق المنابر بأمر من الخليفة ، فكان الشيعة يشيرون عليهم ويقتلونهم ، وكانت من هذه الأحداث الدامية الحزينة حادثة حجر بن عدي ⁽¹⁾ ، كان حجر من قبيلة كندة ومن كبار زعماء الكوفة ، وكان رجلا زاهدا ويحظى باحترام الناس ، بينما كان يصلى بالمسجد أخذ الخطيب يشن على عثمان ويهجو عليا ، فثار حجر واعترض على الخطيب وانتقده ، فألقى زياد القبض عليه بأمر من معاوية وقبده مع جماعة من رفاقه في السلاسل وأرسلهم إلى الشام ، فقام معاوية بقتلهم جميعا (عام 35 هـ) ، وكان لهذه الواقعة رد فعل شديد في العالم الاسلامي في ذلك الوقت ، ويقال أن قتل هذا الرجل الزاهد ترك أثرا حتى في

(1) حجر بصم الحاء وسكون الحيم .

قلوب أعداء الشيعة ، حتى أن عائشة قالت لمعاوية « أين كان حلمك عن حجر ؟ ١ » ومن المعروف أن معاوية حين كانت منيته قال فى سكرات الموت « يومى منك يا حجر يوم طويل » .

بعد أن استقر حكم معاوية استأنف الفتوحات الشرقية والغربية التى كانت قد ضعفت فى فترة الإضطرابات والحروب الداخلية ، فبدأ تجريد الجيوش فى ثغر الروم بصورة منتظمة صيفا وشتاء (المشتى والصائفة) ، وتم شن الهجوم برا وبحرا على القسطنطينية عاصمة الروم الشرقية سنويا ، إذ كان معاوية يطمح إلى فتحها دوما ولكن دون جدوى ، بل وعاد الجيش ذات مرة مهروما ولحقت به خسائر فادحة (فى عام 49 أو 50 هـ) إلا أنه تم فتح جزيرة أرواد وجزيرة رودس فى طريق هذه الحملات ، وتمركزت حامية بها لمهاجمة السفن الرومية . وظل الأمر على هذا الحال حتى عهد يزيد حيث تم إخلاء الجزيرتين ، وفى شمال أفريقيا اتسعت الفتوحات السابقة ودخل البربر فى الإسلام وفى حوزة الدولة الإسلامية وتأسست مدينة القيروان، وبلغ نطاق الفتوحات جزيرة صقلية (1) .

فى خراسان تولى عبيد الله بن زياد الحكم بعد وفاة والده وانهلك فى ردع الخوارج ، وعبرت الجيوش الإسلامية نهر جيحون وتقدمت حتى الصفد وسمرقند ودخلت الهند من ناحية سيستان ، كان ديوان خراج معاوية فى يد رجل من نصارى الشام يسمى سرجون وكان يتولى نفس المكانة فى عهد الروم ، وكان هناك نصرانى آخر يسمى ابن اثال كان طبيب معاوية ، وعن طريق هذا الطبيب دس معاوية السم لقائده عبد الرحمن بن خالد بن الوليد (46 هـ) إذ كان معاوية يخشى تعاظم مكانة قائده المرموقة ، كان معاوية يحابى أمراءه فى كل شىء إلا فى أمر الخلافة أو ما يعرضها للخطر ، فكان باب الاستفادة الشخصية مفتوحا لعمال الدولة فكانوا يجمعون ثروات هائلة ، إذ كان الخليفة نفسه من أهل الاستفادة الشخصية (2) .

(1) فتوح البلدان ، ص 244 .

(2) فى رسالة زياد إلى والى خراسان كتب يقول « أن أمير المؤمنين كتب إلى أن اصطفى له كل

صدراء وبيضاء والروائع فلا تحركن شيئا حتى يخرج ذلك » ، الطبرى وآخرون

كان معاوية قد قرر قبل وفاته بسنوات عديدة أن يورث الخلافة ليزيد ، الا أن ذلك الأمر لم يخل من مصاعب ، أولا كانت الخلافة حتى ذلك العهد تقوم على الشورى والانتخاب العام وليس على التوارث ، ثانيا كان يزيد على أخلاقيات وسلوكيات لا تعجب المسلمين ، ثالثا كان من بين بنى أمية رجال يطمعون فى الخلافة بعد معاوية ومن بينهم مروان بن الحكم وسعيد بن عثمان وربما زياد بن أبيه ، إذا فقد انشغل معاوية لفترة من الوقت فى تمهيد الساحة واستقطاب أهل الثقل إلى أن توفى زياد بن أبيه فى عام 53هـ على أثر طاعون أصاب يديه ، وعلى أثر ذلك أعلن معاوية يزيد خليفة له وأخذ بيعة الناس له ، وصارت الخلافة منذ ذلك الحين وراثية ، وظل معاوية يسكت معارضيه بالوعد تارة وبالوعيد تارة أخرى ، ورغم ذلك ظل هناك خمسة أشخاص لا يذعنون لهذه البيعة وهم الحسين بن على الذى كان إمام الشيعة بعد رحيل الإمام الحسن (50 هـ) وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر ، فذهب معاوية إلى المدينة بنفسه وتفاوض مع كل منهم دون التوصل إلى نتيجة ، فقد ثبتوا جميعا على رفضهم ، وتوفى معاوية فى رجب عام 60 هـ بعد أن أصابته الشبخوخة والعحر ومرض فى الصدر ، وكان عمره آنذاك 57 عاما (1) .

كان معاوية طويل القامة ممتلئا أبيض الشرة له وجه عبوس وعينان حاحطتان ولحية مسترسلة مخصبة بالحناء ، وكان أكرولا يحب التحمل ، وكان يتخذ سمات الملوك كحشد الحجاب والحراس فى بلاطه ، ويروى عنه قوله « كم نعمنا بنعيم الدنيا » ، وكان معاوية فى بداية عهد خلافته قد فكر لبعض الوقت فى نقل منبر النبى (ص) من المدينة إلى دمشق الا أنه انصرف عن هذه الفكرة رعاية للرأى العام .

وعندما تولى يزيد الخلافة كان أول أمر أصدره تعقب الحسنة الراضين للبيعة ، فأمر والى المدينة بالتفاوض معهم ومطالبتهم بالمبايعة وخاصة عبد الله بن الزبير والحسين بن على ، فقد كانا مصدر خوف شديد من جانب يزيد نظرا لمكانتهما الشخصية ، ونتيجة لصفوط والى لجأ إلى مكة

(1) وثمة روايات بأنه كان فى سن 73 ، 78 ، 82 ، ابن الأثير ، ح 4 ، ص 3

كتب شيعة الكوفة رسائل إلى الحسين وأوفدوا إليه الرسل وطلبوا منه الذهاب إلى الكوفة على وعد بنصرته وفدائه ، فأوفد الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفة لتقصي الأمر ، فالتف الشيعة حوله وبايعوه على نصرة الحسين ، وكان أمير الكوفة نعمان بن بشير يتحاشى سفك الدماء وكان يريد أن يهدى ثورة الناس بالحسن ، فعزله يزيد وولى إمارة الكوفة لعبيد الله بن زياد والى البصرة بنصيحة من سرجون المسيحي على الرغم من الضغينة التي كان يكنها لعبيد الله ، فجاء عبيد الله إلى الكوفة وفرق الناس من حول مسلم عن طريق زعماء الكوفة ، ثم قتل مسلم ومعه عدد من الشيعة . من ناحية أخرى ، خرج الحسين ومعه أهله وعدد من آل بيت على من مكة على أثر رسالة تلقاها من مسلم بموافقة أهل الكوفة ، وعندما اقترب من الكوفة أرسل عبيد الله حر بن يزيد الرياحي التيمى مع عدد آخر لمنعه من دخولها ، وأرسل وراءهم عمر بن سعد بن أبي وقاص على رأس جيش من أهل الكوفة للقتال ، والحقيقة كما قال الفرزدق للحسين : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية » ، وحين رأى الحسين نفاق أهل الكوفة اقترح عليهم أن يدعو ليعود من حيث أتى ، إلا أن ابن زياد رفض هذا الاقتراح وأصر على القبض على الحسين ، وأرسل شمر بن ذى الجوشن الذى أوصى إليه بهذا رأى على رأس جيش ، وأمر عمر بن سعد فألقى القبض عليه وحبس عنه الماء واستل السيف لقتاله ، ففضل الحسين الموت كريما على الحياة فى السجن ذليلا ، ووقعت هذه الواقعة الحزينة فى كربلاء فى العاشر من محرم عام 61 هجرية ، الموافق العاشر من أكتوبر عام 680 ميلادية .

كان عبد الله بن الزبير قد لاذ بالحرم فى مكة وأخذ يمهّد الطريق لتولى الخلافة ، فأفاد من حادثة كربلاء والاضطراب الذى تفشى بين المسلمين على عدوه يزيد ، وكان فى الوقت نفسه من ألد أعداء آل على ، فأقسم أن يكبل ابن الزبير فى القيود ، فقام والى المدينة عمرو بن سعيد بإرسال جيش بقيادة عمرو بن الزبير أخى عبد الله الذى كان يكن عداوة شديدة لأخيه إلى مكة للإيقاع بعبد الله ، فدخل عمرو مكة وعرض على أخيه الاستسلام فيتم بذلك الوفاء بقسم الخليفة ، وأبدى استعدادا لتقييده بسلاسل من فضة تعلق فى جيده تحت ملابسه وأخذه إلى الخليفة ، إلا أن عبد الله رفض العرض وألقى القبض على أخيه وزج به فى السجن .

وفى المدينة بدأت القلاقل والاضطرابات ، فقد أرغم واليها الجديد عتبة بن الوليد

الذى عاد إلى منصبه مرة أخرى المهاجرين والأتصار على أن يرسلوا وفدا منهم إلى الشام
لعلهم يحظون بقرب الخليفة وانعامه ، ولقى الوفد كل ترحيب فى الشام ، ولكن فى طريق
العودة إلى المدينة ظل الوفد يبين للناس الحياة الرغدة التى يحيها الخليفة وأنه بعشق
تربية الكلاب ويسىء إلى الناس ويشرب الخمر ويلهو ، فثار أهل المدينة حين سمعوا هذه
الأنباء ، وكان فى مقدمة المعارضين عبد الله بن حنظلة الأتصارى (حنظلة غسيل
الملائكة الصحابى المعروف) ، فتعرض بنو أمية فى المدينة للمطاردة فلاذوا بحى مروان
بن الحكم شيخ قبيلتهم ، وأرسل يزيد جيشا من الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرمى الذى
ضرب حصارا حول أهل المدينة وتم حفر الخندق الذى أنشئ فى عهد النبى من جديد ، إلا
أن جنود الشام التفوا حول الخندق ودخلوا المدينة من الخلف بمساعدة طائفة بنى حارثة
وخيانتهم ، وأحاطوا بالمدافعين عنها ، وقتل عبد الله بن حنظلة فى السادس والعشرين
من ذى الحجة عام 63 هـ وأعمل حند الشام القتل والدمار فى المدينة .

وفتح الطريق لفتح مكة ، لكن مسلم بن عقبة توفى قبل بلوغها ، وتولى حصين بن نمير
قيادة الجيش من بعده ، فحاصر الجيش مكة ، وكان الحصار فى البداية فى صالح
المحاصرين ، ففى هذه الآونة شب حريق فى الكعبة ، كان الحريق ، طبقا لرواية الواقدي ،
يرجع إلى أن واحدا من أصحاب ابن الزبير كان يحمل شعلة على طرف رمحه ، فطارت
شرارة منها وأمسكت بالبيت ، وكانت هذه الحادثة ، حسب رواية المدائنى ، قد تمت بيد
ابن الزبير وعن عمد . على أية حال ، فقد بلغ جبروت يزيد فى أثناء الحصار (ربيع الأول
من عام 64 هـ) ، فترك جنود الشام مكة وعادوا إلى الشام ، ويروى أن القائد الشامى
حصين كان مستعدا فى ذلك الوقت لتقبل خلافة ابن الزبير بشرط أن يذهب ابن الزبير معه
إلى الشام ، لكن ابن الزبير رفض هذا الشرط ، وذهب أمير المدينة أيضا بصحبة هذا
الجيش إلى الشام .

بعد موت يزيد تولى الخلافة ولده معاوية الثانى ، الا أنه لم يكد يمضى أربعين يوما
حتى توفى ، واصطربت الأوضاع بعد ذلك ، فقد أعلنت العصيان قبيلة قيس التى كانت
تحقد على قسائل بنى كلب وعلو مكاتها فى دولة يزيد (كانت أم يزيد من بنى كلب)
وأعلنت الثورة فى بين النهرين تأييدا لابن الزبير ، وأعلن الضحاك بن قيس الفهرى (من
بنى قيس) تولى ابن الزبير الخلافة من فوق المنبر ، وكان الضحاك حينئذ أميرا على

دمشق ، وسرعان ما استقر الرأي على ولاية ابن الزبير فى سائر الولايات من مصر إلى الحجاز والعراق وخراسان ، أما فى الأردن (الجزء الشمالى من الشام) فقد قام حسان بن بحدل الكلبي خال يزيد مع قومه برفض خلافة ابن الزبير ، وكان يريد لخالد بن يزيد الذى كان لا يزال طفلاً أن يتولى الخلافة ، الا أن بنى أمية وأنصارهم اجتمعوا فى جانبه (بين دمشق وطبرية) للتشاور فى الأمر ، واستقروا على خلافة مروان بن الحكم الذى كان شيخاً هرمًا ، واختاروا خالد بن يزيد ولياً للعهد ، بهذا تمت مبايعة مروان الذى تحرك بجيشه من بنى كلب بقصد السيطرة على دمشق ، ومن ناحية أخرى خرج الضحاك بن قيس من دمشق فى جيش كبير لمواجهة ، ونشبت الحرب فى مرج راهط ، وقتل الضحاك ولاذ جنوده بالفرار ، كانت هذه الحرب فى الحقيقة حرباً عرقية واجه فيها الكلبيون القحطانيون القيسيين العدنانيين فى تعصب عرقى ، ويذكر الشعراء القحطانيون هذا الفتح فى أشعارهم ضمن مفاخر قومهم ، وسرى فى التاريخ أيضاً وقائع عديدة وقف فيها هذان العنصران فى المواجهة ، وكان الخلفاء الأمويون يزيدون هذا التعصب العرقى اضطراراً لصالحهم ، ورموا العرب مرة أخرى فى أتون الجاهلية من حديد بعد إسلامهم .

آل مروان :

بعد أن أخذ مروان البيعة فى دمشق مرة أخرى شعر عن ساعديه لاستعادة السيطرة على الدولة التى انفرط عقدها ، فأحكم سيطرته على بقية الشام ومصر ، وفى طريق عودته من مصر عزل خالد بن يزيد عن ولاية العهد خلافاً للعهد الذى أبرمه مع بنى أمية وأعلن تصيب ولديه عبد الملك وعبد العزيز مكانه بالترتيب ، فقامت فاختة أم خالد التى كانت امرأة مروان بدس السم لزوجها وفى رواية ضغطت على حلقة بوسادة وخنقته (عام 65 هـ) وخلفه عبد الملك فى الخلافة .

فى الكوفة وفى أعقاب موت يزيد ثارت جماعة من الشيعة وعلى رأسهم سليمان بن صرد الخزاعى مطالبين بالثأر للحسين بن على ، وكانوا يريدون التكفير عن ذنوبهم فى التقصير فى نصرة الإمام ، وقتلهم عبيد الله بن زياد فى عهد مروان (وفى رواية فى خلافة عبد الملك) ، وقتل سليمان وفر أصحابه ، فقام المختار بن أبى عبيدة الثقفى بجمع صفوفهم وثار فى الكوفة بدعوى الثأر للحسين والدعوة إلى إمامة محمد بن حنيفة (عام

66 هـ) ، فطرد عامل ابن الزبير وقتل كل من وقع فى يده من قتلة الحسين واستولى على المنطقة من الكوفة وحتى الموصل ، فخرج عبيد الله بن زياد من الشام مكلفا بصد المختار واستعادة الكوفة ، فنزل الموصل بجيشه فانهمز بها وقتل هو نفسه ، وحملت رأسه إلى الكوفة ، وأرسلت من هناك إلى المدينة لدى بنى هاشم .

ولكن فى تلك الآونة كان أمر عبد الله بن الزبير قد أشد فى مكة فأرسل أخاه مصعب لحرب المختار والسيطرة على الكوفة ، فخرج مصعب من مكة قاصدا الموصل حيث بدأ فى حشد الجيش واستدعى المهلب بن أبى صفرة عامل ابن الزبير فى فارس لمعاونته فى مهمته ، وكان زعماء الكوفة وأشرفها على عدا مع المختار وكانوا يقولون « غلماننا صارت لهم السيادة علينا » ، فانضسوا إلى مصعب فأتى إلى الكوفة بقوات هائلة ، صمد جيش المختار فى المعركة الا أنه لاد بالفرار فى النهاية ولقى المختار حتفه ودانت البصرة لابن الزبير ، وبهذا صارت مشكلة عبد الملك فى كل مكان هى مسألة ابن الزبير ، كان الملك يود فى البداية أن يفرغ من أمر الشام ، فحمل على قرقيسيا وفلسطين اللتين كانتا تحت سيطرة عمال ابن الزبير ، وفى ذلك الوقت دخل الشام جيش من الروم ، فاضطر عبد الملك محبرا أن يهادن امبراطور الروم ، فقبل بتقديم خراج باهظ (ألف دينار أسبوعيا) ، فعاد جنود الروم ، لكن مشكلة أخرى طفت على السطح وهى أن عمرو بن سعيد بن العاص استولى على دمشق فى غيبة عبد الملك عنها ، فترك عبد الملك مشكلة قرقيسيا واتجه صوب دمشق ، وحوصر عمر بن سعيد ، وفى النهاية أبرمت اتفاقية صلح على أن يتولى عمرو ولاية عهد عبد الملك ، وعقدت معاهدة وأقسم عبد الملك على الوفاء بما حاء بها ، وبعد فترة أمر بالقبض على عمرو وقتله ، كان عبد الملك فى تلك الأوقات قد حظر الحج على أهل الشام ، لأن ابن الزبير كان يرغم كل شامى بلقاءه على مبايعته ، فضج الناس بهذا الأمر من جانب عبد الملك وثار ثورتهم ، فروى عبد الملك حديثا عن النبى ﷺ فحواه أن مسح بيت المقدس مثل المسحد الحرام وقال أن المحر الذى وطأه النبى فى ليلة معراجہ يماثل الحجر الأسود ، ثم شيد قبة فوق هذه الصخرة وأسدل عليها أستارا كأستار الكعبة وعين لها الخدام وأحبر الناس على الطواف حولها ، يقول اليعقوبى أن هذا أصبح تقليداً مرعبا طوال عهد بنى أمية (1)

(1) تاريخ اليعقوبى ، ح 3 ، ص 8

بعد أن فرغ عبد الملك من أمر الشام شن حرباً على ابن الزبير ، وفى عام 71 هـ جرد جيشاً إلى العراق ، فخرج ابن الزبير لصدّه ، وكتب عبد الملك رسائل إلى زعماء العراق يطالبهم فيها بالتخلى عن مصعب ، إلا أن مصعب كان رجلاً شجاعاً صمد بالعدد القليل الذى كان معه فى باجميرا وأخذ يقاوم إلى أن أهلكته السهام التى انهمرت عليه .

ومن العراق قام عبد الملك بتوجيه الحجاج بن يوسف الثقفى إلى مكة لحرب عبد الله بن الزبير ، فحاصر الحجاج مكة (أول ذى القعدة عام 72 هـ) وانهاه على المدينة والكعبة بالحجارة والمجانيق ، فانفض الناس من حول ابن الزبير واحداً تلو الآخر وأدرك عبد الله أنه ملاق حتفه ، وذات يوم ودع أمه الشيماء ذات النطاقين وخرج إلى ميدان القتال مع صحبه فقتل ، وكان فى سن الثالثة والسبعين (عام 73 هـ) ، وعلق جثمانه فوق مشنقة ، وأعاد الحجاج بناء الكعبة وأمر بمحو كل تغيير قام به ابن الزبير فى بنائها .

كانت أحداث مكة سبباً فى إعلاء مكانة الحجاج لدى عبد الملك ، فمنحه الكوفة فانهمك فى ردع الخوارج الذين كانوا يطلون برؤوسهم من حين إلى حين ، ومن ناحية أخرى اتجه إلى تعقب شيعة على و « قتلة عثمان » وغيرهم من الفئات المعارضة للدولة ، وكان بطشه فى ذلك شديداً ، فكان بصورة عامة بمثابة كارثة كبرى وقلما يتكرر مثله فى التاريخ ، وكان من مشاهير رجال الشيعة الذين قتلوا على يديه كميل بن زياد وميثم التمار ورشيد الهجرى وقنبر غلام على ، ثم أعطى عبد الملك كلا من البصرة وبلاد فارس للحجاج ، فسيطر على ذلك الإقليم الشاسع من خلال قادة معظمهم من ربابه ومن هم على شاكلته (الملهب بن أبى صفرة ، قتيبة بن مسلم ، عبد الرحمن بن محمد ، محمد بن الأشعث وغيرهم) ، فبدأ بتعقب قلول أنصار ابن الزبير وشتت شمل الخوارج الذين انتشروا فى أطراف بلاد فارس ، فى حين اتجهت الجيوش للفتوحات خارج الحدود .

كان الناس ينفضون الحجاج نعصاً شديداً ولم يكن يحبه سوى عبد الملك الذى كان يعتبر مكانه « بين عينيه » ، وفيما عداه كان كل الناس متعطشين لدمه ، كان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من أشراط قحطان وورث الزعامة عن أبيه ، وكان منهمكاً فى القتال فى زابلستان لحساب الحجاج ، فكتب إليه الحجاج رسالة شديدة اللهجة واتهمه باللين والتهاون ، فثار عبد الرحمن واتفق مع جيشه من أهل العراق أعداء الحجاج على

الانتقال ضد الحجاج ، واتجه بقواته صوب العراق (عام 81 هـ) قاصدا الحجاج ، فأسرع الحجاج لملاقاته فى جمع من أهل الشام ، ونشبت الحرب قرب شوشتر ، فانهزم الحجاج وفر إلى البصرة فطارده الجيش إلى البصرة ، ووقف الحجاج فى قلب المدينة مدافعا ، فنزل عبد الرحمن البصرة واتجه إلى الكوفة ، فهرع الحجاج إلى الكوفة بإمدادات القوات التى تلقاها من الشام ، والتقى الخصمان فى مكان قرب دير جماجم ودام القتال بينهما مئة يوم ، وكان عدد كبير من حند ابن الأشعث ينفذون من حول قائدهم على أثر الرسائل والوعود التى كان الحجاج يرسلها إليهم ، فذهب ابن الأشعث مرة أخرى إلى البصرة ، وهناك لم يكن آمنا فذهب إلى مسكن ، فذهب الحجاج إلى مسكن فى أعقابهم ، وفى الليل عبرت جماعة من أهل الشام هورا لم يكن العدو يظن أن الخطر يمكن أن يأتيه منه وأغاروا على جيش ابن الأشعث فلاذ الجند العراقيون بالفرار وغرقوا جميعا تقريبا فى نهر دجيل (عام 82 هـ) ، وذهب ابن الأشعث بهزيمته إلى خراسان ولاذ بحمى رتبيل ملك زابلستان بناء على سابق معرفة به ، فراسل الحجاج رتبيل ومناه بالوعود لكى يرسل ابن الأشعث مكبلا بالقيود إلى العراق ، وفى الطريق ألقى ابن الأشعث بنفسه من فوق تل فسقط قتيلًا وحملت رأسه إلى الحجاج .

ما أن فرع عبد الملك من حروبه الداخلية شن هجوما على الروم تأخر عن مواعده خمسة عشر عاما ، فأنزل محمد أخو الخليفة هزيمة بالإمبراطور البيزنطى حوستينيان الثالث فى كليكية عام 83 هـ ، وتمت فتوحات أيضا على أطراف أرمينيا ، وفى عهد عبد الملك تم تقريب العملات النقدية التى كانت يونانية حتى ذلك الوقت وضربت أول عملة إسلامية فى دمشق عام 74 هـ ، كما تم تعريب الدواوين التى كانت تدون بالخطوط الأعجمية (باليونانية فى الشام ، وبالقبطية فى مصر ، وبالبهلوية فى العراق وفارس) .

ذهب عبد الملك للحج فى عام 85 هـ فى موكب مهيب ، وألقى عدة خطب فى مكة وتحدث فيها عن مساوىء عبد الله بن الزبير وعن محاسنه ، وفى المدينة لقي الناس بوجه عيوس وأمر خطباءه بأن يسبوا أهلها من فوق المنابر .

كان عبد الملك يتطلع إلى تنصيب ابنه الوليد وليا للعهد ، الا أنه طبقا لوصية مروان كان عبد العزيز هو ولى عهد عبد الملك ، فاسترضى عبد الملك عبد العزيز وأتبعه عن

طريق الشعبى (1) بأن يتنازل عن ولاية العهد وأن يتولى ملك مصر ، وفى رواية أنه دس السم لعبد العزيز . على أية حال ، توفى عبد العزيز قبل عبد الملك ، ولهذا فقد تولى الخلافة من بعده ولده الوليد دون منافس .

كان عبد الملك ربعة تمحى اللون ذا لحية طويلة ، وكان بخيلا ولكنه كان فى الوقت نفسه يعمل بجد ومثابرة وكان يشرف على كل الأمور فى الدولة بنفسه ، وكان يعارض آل على معارضة شديدة ، وكان عامله على المدينة هشام بن اسماعيل يسىء معاملتهم إساءة شديدة ، وكان عبد الملك حين وفاته فى الستين من عمره تقريبا .

اتسع نطاق الفتوحات فى عهد الوليد بن عبد الملك (الوليد الأول) ، فأخذ أخو الخليفة مسلمة بن عبد الملك وكان قائدا نابها أعمالا كبرى من بينها السيطرة على مدينة طوانة ، ودخل أوروبا من شمال أفريقيا بعون من البربر المسلمين واستولى على الأندلس (عام 84 هـ) ، ونفذ الوليد ما خطط له والده فيما يتعلق بكنيسة يوحنا بدمشق ، فاستولى على الكنيسة وبنى مسجدا وهو المسجد الذى يعرف فى الوقت الحاضر بالمسجد الأموى الشهير ، وفى عهد الوليد أيضا ظل الحجاج على نفس قوته ، فظل يعمل القتل فى الناس من ناحية ويطم شئون البلاد من ناحية أخرى ، وبنى مدينة واسط ويطم أوضاع الزى فى العراق ووضع الأحكام ، وكان فى كل أعماله هذه يستعين بمهندس أرامى يسمى حسان النبطى ، وعلى أطراف حراسان قام قتيبة بن مسلم الباهلى بفتح ما وراء النهر لحساب الحجاج واصطدم بالترك بل وبالصبيين ، وكان محمد بن قاسم منشغلا فى وادى السد ، وتوفى الحجاج عام 95 هـ فى سن الثالثة والخمسين ، وفى العام التالى توفى الوليد أيضا فى سن الأربعين تقريبا ولحق بالحجاج ، أمر الوليد بتوسعة مسجد الرسول فى المدينة وضم إليه الديار المحيطة به ، وكان الوليد يولى اهتماما ملحوظا بالتشييد والتعمير (2) .

(1) أبو عمرو عامر بن شراحيل الشمى (يفتح الأول وسكون الثانى) من طبقة العلماء وكتاب الأخبار ومن مقربى ديوان عبد الملك ، انظر ابن حلكان

(2) الضرى ، ح 8 ، ص 98

تولى الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان كما أوصى عبد الملك ، وكان الوليد فى عهده يفكر فى إزاحة سليمان عن ولاية العهد وأن يستبدل به ولده ، وأبدى الحجاج موافقته على ذلك ، إلا أن هذه الفكرة لم تدخل مرحلة التنفيذ ، ولهذا فعندما تولى سليمان الخلافة كان أول ما فعله هو أن عزل كل من قام الحجاج بتعيينهم فى مناصب الدولة انتقاما منه ، ومنح مكان الحجاج ليزيد بن المهلب الذى كان قد فر من سجن الحجاج ، واتبع يزيد نفس سياسة الحجاج واتخذ من واسط مستقرا له كما اتخذ سليمان من مدينة الرملة بفلسطين مقرا لخلافته وعاش فى رغد من العيش يعب من متاع الدنيا ، فقد كان يحب رغد الحياة، إلا أنه سرعان ما توفى (عام 99 هـ) ، وكان خيرا ما فعله سليمان أنه لم يختار أحداً من بنيه لخلافته عملا بنصيحة رجاء بن حيوة واتخذ من عمر بن عبد العزيز الذى كان أكثر رجال بنى أمية صلاحا ولبا للعهد .

كان عمر بن عبد العزيز (عمر الثانى) ينتمى إلى عمر بن الخطاب من ناحية أمه ، وكان واليا على المدينة لمدة طويلة قبل توليه الخلافة ، وكان يعرف بحسن المسلك وبالصلاح التام ، ونظرا لأنه كان يأوى العراقيين الذين كانوا يلوذون بالمدينة فرارا من بطش الحجاج ، فقد أوغر الحجاج إلى الوليد فعزله عن ولاية المدينة حتى آخر حياته ، وكان لإقامته الطويلة بالمدينة واطلاعه على سيرة النبی ﷺ ونهج مسلمى الصدر الأول للإسلام أثر شديد عليه خاصة وأنه كان تقيا صالحا بطعه ، وعندما تولى مقاليد الخلافة كان كل همه الإصلاح (عام 99 هـ) ، لاشك أن الساحة لم تكن مهيأة لذلك فقد كان الفساد مستشرياً بين الناس أو أغلبهم ، فأصدر عمر أمره بوقف الغزوات لأنه كان يعلم أن هذا الأمر لم يكن يقوم به القادة ومن ولاهم إلا بهدف الفائدة الشخصية والإغارة ، لا بقصد إعلاء دين الله ، وأمر بسحب الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية، كما أمر فاتحى خراسان ألا يتجاوزوا نهر جيحون ، وبهذا جمع الجيوش جميعا داخل حدود الدولة، وأنصف جنود الجيش الذين أصابهم الفقر نتيجة لجشع قادتهم وعاقب هؤلاء القادة الجشعين وطالبهم برد الأموال التى نهبوها ، وحكم على يزيد بن المهلب الذى كان جبار العراق خلفا للحجاج بالسجن وأرسل إلى أركان الدولة عمالا جددا بتعليمات جديدة يهتدون بها ومن بينها ما يتصل بالخراج فى بداية الفتوحات الإسلامية كان من المقرر أن يتم تحصيل ضريبة رؤوس تسمى حزية من أهل الذمة ، فكان كل منهم يدفع ضريبة

أراض تسمى الخراج عن أية أرض مزروعة يملكها ، وإذا دخل الذمي الإسلام ترفع عنه الجزية والخراج جميعا ويبدأ دفع زكاة المال كغيره من المسلمين ، ورفع الأمويون الضرائب وأضيفت إليها تجاوزات عمال الدولة حتى ضج الناس بالشكوى ورفعوا راية الثورة عدة مرات دون نتيجة ⁽¹⁾ ، فكان الذميون يعتنقون الإسلام فرارا من الجزية والخراج ، وكانوا يتنازلون عن ملكية أراضيهم ويهجرونها وينتجون إلى المدن ، فأمر الحجاج بمنع أى شخص من النزوح من القرية إلى المدينة ، وفرض الخراج حتى على الذمي الذى يتحول إلى الإسلام ، وكان خلفاء بنى أمية يجمعون الجزية حتى من الرهبان النساك الذين كان قد تقرر إعفائهم بموجب أحكام الصدر الأول للإسلام . ومن ناحية أخرى ، كان يتم تجنيد الذميين الذين يتحولون إلى الإسلام والموالى أى الغلمان المحررون وأبناءؤهم ويرسلون إلى الميدان دون أن يكون لهم نصيب من الرواتب والغنائم التى كان الجيش كله يحصل على أنصبة منها ، فألقى عمر بن عبد العزيز كل هذه المظالم وأصدر حكما بعدم تحصيل الخراج من ذمى يتحول إلى الإسلام ، ويمنح الموالى فى الحرب رواتب وغنائم . ونتيجة لهذا الحكم المنصف أخذ الذميون فى بلاد فارس فى دخول الإسلام جماعات رغم أنف عمال الضرائب ، فكتب العمال تقريرا عن انخفاض الدخل للخليفة وطالبوا بإعادة الأمور إلى ماكانت عليه ، إلا أن عمر رد عليهم بالرفض بلهجة حادة ، إضافة إلى ذلك أعلن إدخال الأراضى المفتوحة ضمن الأموال العامة أى من متعلقات بيت المال وعدم أحقية أى فرد فى بيعها أو شرائها وأن يكون القائمون على هذه الأراضى فى حكم المزارعين وحسب .

أمر عمر فى عهده بترك فذك لبنى فاطمة اكراما لهم ، ومنع الاساءة إلى على من فوق المنابر ومنح الخمس لبنى هاشم ، وأمر برفع كثير من المظالم وحد من سيطرة عمال الدولة وتصرفهم فى الأموال والأرواح ، وأمر بعدم أحقية أى عامل فى قتل أو شنق أى فرد من الرعية دون مراجعة الخليفة نفسه ، وكان الخلفاء السابقون يحصلون أموالا من الناس تحت اسم « هدية النوروز » أو « صريبة القلم والدواة » وما إلى ذلك مما كان يتم تحصيله بالقوة وكان يصل إلى مبالغ ضخمة ، وأوقف عمر العمل بكل ذلك .

(1) انظر : تاريخ التمدن الإسلامى ، ج 2 ، ص 85

الا أن عهد خلافة عمر لم يدم طويلا ، فقد توفى بعد عامين وخمسة أشهر على أثر مرض دام عشرين يوما ، وكان آنذاك فى سن التاسعة والثلاثين (رجب عام 151 هـ)، ويروى أن بنى مروان دسوا له السم لخوفهم من زوال ملكهم ، وخلف عمر يزيد بن عبد الملك بناء على وصية سليمان بن عبد الملك، ويقال أن عمر كان يود أن يغيره فى آخر أيام حياته بعد أن عرف من مفاوضاته مع زعماء الخوارج ونتيجة لاستدلالاتهم أن تعيين الخليفة بهذا الشكل كان مجافيا للشريعة ، مما أدى إلى خوف بنى مروان فدسوا له السم⁽¹⁾ .

كان يزيد بن عبد الملك (يزيد الثانى) صهر أخى الحجاج . لذا ، فعين تولى مقاليد الخلافة جاءته أسرة الحجاج تشكو من بطش يزيد بن المهلب على آل الحجاج فى ولايته بالعراق ، فأمر الخليفة بتعقب ابن المهلب ، ففر ابن المهلب إلى البصرة حيث اتخذ منها ملاذا بحكم أنه كان من أهلها وكان أهله واتباعه بها ، فاستولى على المدينة إلا أن واليها عدى بن أرطاة تحصن بالقلعة ، فاستدعى ابن المهلب قبائل أزد وربيعة اليمنية وبذل العطاء لهم وفتح القلعة بمساعدتهم ، ثم استولى على الولايات التابعة للبصرة كالأنبار وفارس وكرمان ، ولم يبق خارج سيطرته سوى خراسان ، إذ كان بنو قيس يحكمون سيطرتهم عليها ، فتحرك ابن المهلب صوب الكوفة لفتحها ، وفى عقر⁽²⁾ على ضفة الفرات قابل جيش الشام وعلى رأسه مسلمة بن عبد الملك ونشبت الحرب ، وتم إحراق الجسر من وراء جيش يزيد بأمر من مسلمة ، فخاف جنود يزيد ولاذوا بالفرار ، إلا أن يزيد صمد أمامهم وأخذ يقاوم فى بسالة حتى قتل ، وفر من تبقى من أسرة المهلب من البصرة إلى كerman ومنها إلى سمرقند ، وفى النهاية ألقوا القبض عليهم جميعا وقتلوا بأمر من الخليفة .

لم يكن يزيد أهلا للإدارة والسياسة ، فكان رجلا ضعيفا لا يستند إلى فكر ثابت ، وكان شغله الشاغل فى بدء توليه الخلافة هو تغيير عماله ورجال دولته ، فألغى الأحكام

(1) الطبرى ، ج 8 ، ص 142 .

(2) بفتح الأول وسكون الثانى ، اسم مشترك بين عدة مناطق منها عقر باهل وهو مكان بالكوفة

قرب كربلاء ، انظر : معجم البلدان .

التي وضعها عمر بن عبد العزيز فيما يتصل بالضرائب وفرض الجزية والخراج من حديد على مسلمى الصغد ، وترك الحبل على الغارب لعمال الدولة يفرضون ما يشاؤون ، في حين انشغل هو تماما في المباحج واللذات ، وأمضى حياته في صحبة مطربيه سلامة وحبابة وكان يهتم بهما اهتماما يصل إلى حد الهوس ، وتدخلت المطربتان في شئون الدولة وتشبث بهما موظفو الدولة ، وعندما توفيت حبابة حزن الخليفة حزنا شديدا عليها حتى توفي بعدها بسبعة أيام في أريد (بشرق الأردن) في شعبان من عام 102 هـ ، وكان عمره بين الثالثة والثلاثين والأربعين ، وقد حدد أمر خلافته بأن يخلفه أولا أخوه هشام ثم ولده الوليد من بعده .

كان هشام بن عبد الملك - على خلاف أخيه وسلفه - رجلا يحب الإصلاح ولا ميل لديه للهزل والملذات ، فولى خالد بن عبد الله القعري على ولايات المشرق أى العراق وملحقاتها ، وكان خالد هذا من تلاميذ الحجاج ويشبهه في مسلكه ، إلا أنه لم تكن له نفس الشهرة الدموية ولو أنه كان أحيانا يحرق المعارضين بالنار طاعة منه لساتته ، كان الناس ينفرون منه على أية حال ، وقام الخوارج والشيعة بثورات في أواخر ولايته ، وكان خالد يعد من أصل قحطاني وكانت أمه نصرانية ، وبنى خالد كنيسة لها ، وكان يهادن النصارى واليهود ، وكانت إدارته تضم عددا من المجوس ، وكان يولى اهتمام للعقيدة المانوية ، ورغم كل هذا فقد أدار دقة الحكم بالعراق بكفاءة تامة لمدة خمسة عشر عاما ، وجمع ثروة وأملاكا شاسعة ، ومن انجازاته تخفيف أهوار واسط على يد حسان النبطي وأقام مزرعة مكانها ، وبى النهاية لفتت ثروة خالد الفاحشة انتباه الخليفة الذي كان هو نفسه رجلا محبا للمال ، فأتى يوسف بن عمر الثقفي قريب الحجاج بأمر من الخليفة من اليمن إلى العراق وألقى القبض على خالد ، وأطلق سراحه بعد ثمانية عشر شهرا من السجن والتعذيب .

وفي ولاية يوسف أتى زيد بن علي بن الحسين إلى الكوفة وأعلن ثورته بها ، ودامت حركة زيد مدة عشرة أشهر ، وكان يوسف في البداية لا يعلم بأمره إلى أن أطلعه هشام من الشام ، وفي يوم الخروج والحرب لاد زيد بالفرار في حين صعد هو وقلته معه إلى أن قتل في صفر عام 122 هـ ، وعلق جثمانه بالكوفة وأخذت رأسه إلى دمشق أولا ثم إلى المدينة ، وكان زيد من علماء آل البيت وقام أتباعه من بعده بتكوين فرقة هامة تسمى

الزبدية ولا تزال قائمة إلى الآن .

واستأنف هشام الحرب ضد الروم ، وكان ولداه معاوية وسليمان قائدى هذه الحملات ، ومعاوية هذا كان جد الخلفاء الأمويين بالأندلس ، وقد سقط يوما من فوق جواده فى رحلة صيد ولقى حتفه ، وقبره بالقرب من مدينة بروسه ⁽¹⁾ بمكان يقال له سيدى غازى فى آسيا الصغرى ، وكانت لهم حروب مع الترك على سواحل بحر الخزر وكانت تنتهى دائما بالهزيمة ، وفى الأندلس وبعد عبور بيرينيه والتمركز فى نارين وهو ما تم فى عهد عمر بن عبد العزيز اشتبك العرب مع الفرنج وهاجموا مدينة تولوز الا أن " ايود " أمير الفرنج قام بصددهم ، وفى عهد هشام تولى عيد الرحمن بن عبد الله ولاية الأندلس ، وقد هزم مونوزة البربرى الذى ثار فى شمال الأندلس واتحد مع ايود ، ومن هناك اتجه إلى ايود لقتاله وألحق به الهزيمة بين نهري غارون ودوردن ⁽²⁾ (بفرنسا) ، الا أن ايود حصل على إمدادات من شارل مارتية والتقى بجيش العرب قرب بواتيه ، واستمر القتال لعدة أيام ، وذات يوم نظم العرب صفوفهم وهاجموا بصورة مكشفة الا أن الفرنج صمدوا أمامهم وتراجع العرب فى اليوم التالى (رمضان 114 هـ) ، وكانت هذه الحرب تعرف باسم حرب بواتيه ، وبعد عشر سنوات قام العرب بالتوغل مرة أخرى داخل الأراضى الفرنسية عبر نهر غارون إلا أنهم لم يسيطروا على أراض فيها ، بل كان مجرد هجوم مركزه قلعة نارين (Narbonne) التى تتصل بولاية بروفانس بخط من القلاع الحصينة (الرباطات) ، وبعد أن استعاد شارل بواتيه حاصر قلعة نارين إلا أنه لم يتمكن من فتحها ، وبعد اثنين وعشرين عاما فتحها " بيى " ملك الفرنج المعروف بالقصير ، وكان ذلك فى عام 759 ميلادية ولم تدخل تحت سيطرة العرب مرة أخرى رغم ما بذلوه من جهد فى هذا الصدد .

بعد حرب بواتيه استبدل هشام والى الأندلس عدة مرات ولكن دون نتيجة ولم يحق

(1) ورد فى كتاب هوار كعاشية لمبوى . وهى ناحية فرينجية الرومية وتسمى المدينة التى توفى فيها معاوية أكرويس

(2) نهر غارون Garonne يقع بفرنس ، ويسع من حال بيرينيه وبعد التقائه بنهر دوردن

Dordonne يسمى " غارون الأكبر " ويصب بالمحيط الأطلسى .

الانتصار على الفرنج ، من ناحية أخرى ثار البربر شمال أفريقيا على تعسف عمال الدولة ومن ثقل الجزية والخراج ، فأرسل هشام جيشا بقيادة كلثوم بن عياض القشيري من الشام لقمع الثوار ، فانهزم الجيش وقتل ابن عياض .

وعلى الطرف الآخر من الدولة وفي بلاد الصفد اتحد الأهالي مع الترك أعدائهم القدامى بسبب الضرائب الباهظة التي فرضت عليهم دون وجه حق ، وساء موقف العرب نتيجة لذلك ، فأرسل الخليفة نصر بن سيار إلى هناك وكانت له تجارب سابقة في هذه المنطقة ، فسيطر على الأوضاع ولو بشكل مؤقت .

توفي هشام في ربيع الثاني من عام 125 هـ في سن الخامسة والخمسين تقريبا في الرصافة ، وكان ربعة أصفر البشرة وذا لحية مصبوغة بالسواد ، وكان هشام مسرفا ويحب جمع المال ولهذا كان يولى اهتماما شخصيا خاصا ودقيقا إلى الشئون المالية ، وجمع نتيجة لذلك أمرا لا وأملكا ، وكان يطالب عماله بجباية الضرائب من كل سبيل يمكن جبايتها منه ، لكنه كان في الوقت نفسه شديدا في أمور العقائد الدينية ويجالس علماء الحديث ويطارد القدرية (1) .

توفي الإمام محمد الباقر في عهد هشام في عام 117 هـ في سن الثامنة والخمسين ودفن بالبقيع ، وفي العام التالي لحق به علي بن عبد الله بن العباس في داره بالحبيمة بالقرب من دمشق .

تولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثاني) الخلافة طبقا لوصية أبيه خلفا لهشام ، ولما كان شابا ميالا للهو والمجون فقد فكر هشام في عزله من ولاية العهد وأن يعين بدلا منه ولده مسلمة ، فلم يوافق الوليد على الاستقالة ووقعت الجفوة بين عمه وابن أخيه ، وعاش الوليد في أواخر عهد هشام بعيدا عنه في قصر بالبادية يسمى البخراء مع ندمائه ، وذهب إلى دمشق بعد وفاة هشام وتولى مقاليد الخلافة وبدأت الخلافات بينه وبين عمال هشام وأهله .

(1) ورد ذكر معاملته لغيلان القدرى في العقد الفريد ، ح 1 ، ص 332 .

ذهب يحيى بن زيد إلى خراسان بعد مقتل أبيه وأعلن تمرده هناك ، فطارده عمال نصر بن سيار والتقى به فى جوزجان وقتل يحيى ، فى تلك الآونة أمر الوليد يوسف بن عمر الوالى بحرق حشمان زيد فى الكوفة ونشر رماده فى الفرات .

كان الوليد ينتسب إلى أسرة الحجاج من ناحية الأم ، وكان يوالى آل نزار فى العصبية العرقية ، وكان يتعقب القحطانيين بالأذى ، لذا فقد سلم خالد القشيري الذى كان أكبر زعماء القحطانيين فى ذلك الوقت ليوسف بن عمر الثقفى لكى يعذبه ويقتله ويشتت شمل أسرته ، واشتد أمر العصبية بين الطائفتين فى أطراف البلاد وخاصة فى خراسان ، واختلت الأوضاع. ومن ناحية أخرى، كان الوليد ، كما سبق أن ذكرنا، رجلا يميل إلى اللهو والشراب وكان يفضل مجالس المجون ورحلات الصيد وصحبة المطربات والندماء وكلاب الصيد على إدارة شئون الدولة ، وكان بالإضافة إلى ذلك رجلا ظالما يسفك الدماء حتى بين أقاربه من بنى أمية ، فقد عذب ولدى هشام ابراهيم ومحمد حتى الموت ونصب ولديه الحكم وعثمان وليين للعهد ، فهيات الساحة لسقوطه من كل ناحية ، فقام ابن عمه اليزيد ابن الوليد بن عبد الملك (يزيد الثالث) ، وكان رجلا يتظاهر بالصلاح بإقناع جماعة من بنى أمية واستدعى القسريين وسائر القحطانيين واستولى على دمشق بدعوى الخلافة، فبلغ الخبير الوليد وكان يقيم بقصر الحراء ، فأمر الوليد بضرب الرسول مئة عصا واتجه إلى تعبئة الجيش ، الا أنه لم يتمكن من حشد أكثر من مئتى فرد ، فاستولى المهاجرون على القلعة وعثروا عليه فى حجرة خلفية من القصر وقتلوه والمصحف بيده كما حدث لعشمان (فى جمادى الثانية 126 هـ) ، والنقطة الهامة فى تلك الحادثة هى انفصام عرى الوحدة التى كانت تربط بين أفراد بنى أمية وكانت تعد من الأسباب الرئيسية لجحاحهم حتى ذلك الوقت ، وانتهت الأحداث لمصلحة بنى العباس ودعوتهم ، كما سرى .

تولى يريد الثالث الخلافة استنادا إلى القبائل اليمينية (القحطانية) وبدأ فى إصلاح ما خربته يدا الوليد وأسلافه ، فألقى بيوسف بن عمر الثقفى فى السجن عقابا له كما حكم بالسجن أيضا على ابنى الوليد اللذين كان يلتزمان بولوى العهد ، وبصب أخاه إبراهيم ابن الوليد ولوا للعهد ⁽¹⁾ ، وأعلن التمرد مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار ⁽²⁾

(1) ثمة خلاف حول هذا الموضوع ، انظر ، العقد العريد ، ج 2 ، ص 178

(2) من الـ سررات التى قد ات فى سب هذه التسمية أنه كان يعشق رهرة تسمى « ورد الحمار »

والذى كان ينتسب إلى شعبة أخرى من بنى مروان وكان يتولى ولاية أرمينيا ، ورفع راية الثار للوليد ، فاسترضاه يزيد بمنحه الولاية وحصل على البيعة منه ، إلا أن الشرارة كانت قد اندلعت وعمت الفتنة كل مكان ، فتحرك الخوارج فى العراق ونشط الدعاة العباسيون بخراسان واشتعل صراع التعصبات القبلية بين العرب فى خراسان ، ولم يطل عهد يزيد ، فقد وافته المنية بعد خمسة أو ستة أشهر (فى ذى الحجة عام 126 هـ) ، وكانت أمه فارسية ، وفى رواية كانت أميرة وكانت تسمى " شاه أفريد " ، ويطلق على يزيد الثالث لقب " يزيد الناقص " بسبب أنه أمر بتخفيض قدر من رواتب الجند يوازي ماكان الوليد قد أمر بإضافته ، أو ربما لأن مروان الحمار كان يناديه بـ " بنقص " من باب الذم . ولم يغير إبراهيم بن الوليد خليفة يزيد من الأمور شيئا ، فظلت البلاد فى حالة فوضى والناس ينتظرون مايستجد من أحداث ، وكان الوردون على الخليفة ينسون أحيانا تحيته بالخلافة أو حتى بالأمانة ، وما أن علم مروان الحمار بالجزيرة ⁽¹⁾ بموت يزيد الثالث حتى جمع عرب قيس وربيعة الذين كانوا العنصر العالب فى المنطقة وكانوا على خلاف مع كلبى الشام وصنائعهم من الحلفاء ، واتجه بهم صوب دمشق بقصد خلع إبراهيم وتولية ولدى الوليد الثالث الذين كانا بالسجن فى دمشق عاصمة الخلافة .

كان مروان هذا قويا معنويا وجسمانيا ولما كان قد أمضى جزءا كبيرا من عمره فى أرمينيا وأذربيجان فى حروب على الحدود فقد كان قائدا مجريا ومطلعا إضافة إلى قدرته على البيان والإتشاء، لكنه وصل بعد أن بلغ الأمر ببنى أمية نقطة يصعب علاجها، فعندما اتجه إلى دمشق ومعه عرب قيس من كل مكان خرج لصدده سليمان بن هشام من قبل إبراهيم بن الوليد فى عين الجر(بلبنان) فهزمه، ودخل مروان دمشق ورحل إبراهيم عنها وفر إلى تدمر، وكان أقرباء إبراهيم قد قتلوا قبل فرارهم ولدى الوليد السجينين فى السجن ، وروى أحد الشعراء المرائين أن ولى العهد المقتول نظم شعرا قبل مصرعه مفاده أن مروان سيصبح أميرا للمؤمنين من بعده ، فأخذ مروان البيعة على الخلافة من الناس فى السادس والعشرين من صفر عام 127 هـ وأعطى الأمان لسليمان وإبراهيم واستقبلهما وأكرم وفادتهما ، إلا أن أتباعه أخرجوا جثة يزيد الثالث من القبر وعلقوها على مشنقة ،

(1) جزيرة ابن عمر كانت مدينة تقع إلى الشمال من الموصل .

ثم عاد مروان إلى مستقره القديم في حران واتخذ منها عاصمة له ، حيث كانت مستقر أتباعه من بني قيس ، وتم نقل خزانة دمشق إلى هناك ، وحينئذ ثارت بعض مدن الشام ، فأتى مروان وأحمد ثورتها ، ثم أرسل جيشا بهدف الاستيلاء على العراق ، وثار ذلك الجيش في الرصافة وطالب بتولي سليمان بن هشام مقاليد الخلافة ، وكان سليمان يعيش منذ فترة في تلك المدينة فخرج مروان وأحمد ثورة الجيش وأقام مذبحة بشعة وظل سليمان يقاوم مدة في مدينة حمص (1) ، وفي النهاية فر إلى الكوفة ، وسقوط حمص دانت الشام خالصة لمروان .

كانت العراق في حالة غليان منذ عهد يزيد الثالث ، وثار بها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار والتف الزيديون حوله ، وهب لقتالهم والى يزيد على العراق وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وبعد مقاومة يأسلة استسلم الزيديون في محرم عام 127 هـ ، إلا أن عبد الله بن معاوية ذهب إلى بلاد فارس وبنى لنفسه تكية بمساعدة أهل فارس ، وبعد فترة وجيزة قام أحد الخوارج يدعى الضحاک بن قيس الشيباني بمحاصرة الكوفة والاستيلاء عليها ، ثم استولى على واسط في شوال عام 127 هـ ، واتخذ الضحاک من الكوفة عاصمة له ، وكانت هذه أول مرة يستولى الخوارج على هذه المدينة ، وفي ذلك الوقت تولى مروان مقاليد الأمور ، فخرج الضحاک بجيشه قاصدا مروان بالموصل، وحاصر عبد الله بن مروان الذي كان قد خرج لصدده في نصيبين، وبعد أن فرغ مروان من أمر حمص كما سبق الذكر اتجه لقتال الضحاک فهزمه في كفر توثا (2) في أواخر عام 128 هـ ، وظل يتعقب الضحاک حتى العام التالي إلى خارج العراق ، وأعلن الثورة خارجي آخر يدعى أنا حمرة في حضرموت وأعمل القتل والخراب بمكة والمدينة ، وانتهى أمره بدوره في عام 130 هـ ، وتمكن مروان من أن يستقر لفترة في الخلافة في حران (3)

(1) حمص مدينة بين دمشق وحلب .

(2) قرية من توابع جزيرة ابن عمر .

(3) بتشديد الراء ، كانت مدينة قرب الديار المصرية

إلا أن أحداثا رهيبة كانت في طور البداية بخراسان ، وهي حركة أبي مسلم ودعوة بني العباس التي هي موضوع الفصل التالي .

الدعوة العباسية وأبو مسلم :

انتشرت دعوة الشيعة في خراسان ، وكلما زاد ضعف السيطرة الأموية بسبب ضعف الخلفاء أو ضعف العرب المساندين للخلافة ازداد نفوذ الشيعة وهي الدعوة التي بدأت في زمن محمد بن الحنفية وربما على يديه ، وكان موضوعها آل علي وخلافتهم ، إلا أن بني العباس تمكنوا في النهاية من تحويلها إلى صالحهم بمهارة مشهودة .

كانت خراسان آنذاك تابعة للبصرة وتخضع لحكم واليها ، وكان يقطنها قبائل عربية كانت قد شاركت في فتح فارس ، وكانت كل عشيرة تتخذ لنفسها نطاقا تسيطر فيه على القرى والمزارع والمراعى ، وكان الخلفاء يحتاجون إلى هذه المستوطنات في حروبهم الحدودية وتوسيع نطاق فتوحاتهم ، وكانت هذه العشائر تعاني الفرقة والخلافات فيما بينها من ميراث الحقبة الجاهلية ، وكانت الدولة الأموية التي قامت أسسها على هذه الخلافات تزكى نار الفرقة بين القبائل ، وفي خراسان كانت قبيلة بني قميم أهم القبائل العربية وأشدّها نفوذا وأكثرها عددا ، وكانت هناك منذ بداية فتح بلاد فارس ، وكانت تعد من أصل عدنانى ، وفي مقابل بني قميم كانت قبيلة أزد التي كانت من أصل قحطاني ، وكانت قد انضمت إلى الجيوش الإسلامية والفتوحات في عهد أقدم من انضمام بني قميم ، إلا أنها ازدادت نفوذا بسبب علو شأن أسرة المهلب وانضمت إليها أيضا قبائل ربيعة ، وكانت هناك صراعات بين هذين الفريقين على الزعامة في خراسان ، ففي عام 96 هـ ثار بنو قميم على قتيبة بن مسلم الباهلي⁽¹⁾ الذي كان والى خراسان وقائد حروب تركستان ، وقتلوه في الحرب ، وبهذا أثبتوا تفوقهم على اليمانيين ، ولكن بعد فترة أعلى يزيد بن المهلب من شأن قبيلة أزد في خراسان وبالتالي ضعف شأن بني قميم* ، وعلى أثر سقوط أسرة المهلب انعكست الصورة ، وفي خلال هذه الصراعات انتشرت سرا دعوة الشيعة التي وجد بنو العباس لأنفسهم مكانا فيها .

(1) كانت باهلة طائفة صغيرة من القحطانيين .

كان الإمام العباسي يقيم في حميمة بمنطقة شرات قرب دمشق ، وكانت مقاما للأسرة العباسية منذ عهد عبد الملك بن مروان ، وكان الدعاة والمريدون يفتدون إليه بالأموال والهدايا قاطعين هذا الطريق الطويل من خراسان ويتلقون تعاليمه ويعودون ، وكان لهم مركز للدعوة في الكوفة أيضا ، وكان الإمام أحيانا يزور دعاته بمكة في موسم الحج محتشيا من سوء ظن الحكومة بالزحام ، كانت تعاليم الامام لدعاته أن يركزوا على الفرس ويعتمدوا على العرب من قبائل اليمن (القحطانيين) وأن يظهروا الود للمضريين (النزاريين) في حين يبطنوا لهم العداوة ويبيدوهم إبادة إن استطاعوا ، وكان منهج الدعوة أن يتحدثوا في البداية عن محاسن الإسلام ثم يذكروا مساوي بني أمية وفسادهم وانحرافهم عن جادة الإسلام ، ثم يبدأون في الحديث عن مناقب أهل البيت وآل محمد (ويقصدون بالتسميتين بني العباس) والمظالم التي تعرضوا لها وأن الإسلام الحقيقي لديهم ، وفي النهاية تبدى ضعف بني أمية ، وكان الإمام مطلعا تماما على الأوضاع في خراسان وظل ينتظر الفرصة .

في تلك الأونة ظهر زعيم من بني تميم يسمى الحارث بن سرج ، وكان خارجيا لبعض الوقت إلا أنه كان يؤمن بعقيدة المرجئة ⁽¹⁾ ، فادعى أحقيته في الخلافة في طخارستان ، فدانت له مدن ماوراء النهر ، إلا أنها سرعان ماثارت عليه بمجرد أن جاء جيش والي خراسان لمحاربتة ، واتفق الحارث مع الترك ، إلا أن سيار طرده من تشاج فأخذ يهيم مدة على حدود سيردرية ⁽²⁾ ، ثم هاجم مرو إلا أنه انهزم وقتل في رحب من عام 128 هـ ، كان نصر بن سيار رجلا ذا بصيرة نافذة ، واستطاع في عهد حكمه أن يرفع الجزية عن الذميين الذين دخلوا الإسلام وأن ينجز أعمالا طيبة من هذا القبيل ، إلا أن الإضطرابات في خراسان كانت أعمق من أن يتم إصلاحها بهذه السهولة ، وبعد مقتل الحارث بن سريج ظهر معارض آخر لنصر بن سيار وهو الكرمانى (وكان عربيا يكنى بهذه الكنية) وكان من زعماء اليمانيين ، وكان مقتل الحارث في الحقيقة قد تم على يديه ويد قبيلته وكذلك تحرير مرو ، ونشبت الحرب بين نصر والكرمانى في مرو ، وبينما كان الفريقان كامنين في

(1) المرجئة إحدى الفرق الإسلامية التي تحتل عن الشيعة وعن الخوارج في بعض مبادئها .

(2) وتسمى أيضا سيحون .

الخنادق إيذانا بالقتال ظهرت طلائع جيش الشيعة وعلى رأسه أبو مسلم ، ففي هذه الآونة أرسل الإمام العباسي لواء الظل وراية السحاب وأصدر أوامره بالخروج على القور ، فأصيب القائدان النزارى واليماني نصر والكرماني بالرعب عند رؤية حشود أبي مسلم ، فعرض نصر على غريمه الصلح فوافق ، ولكن نصر أمر أتباعه باغتيال الكرماني في أثناء التفاوض ، وتحصن في مرو ، وأطلع خليفته مروان على الأمر وطلب العون ، إلا أن مروان أجابه قائلا : « احسم الثؤلول من قبلك » ، وبات واضحا أنه لن يتلقى امدادات منه ، ثم فكر نصر وابن الكرماني الذي حل محل أبيه في أن يستميلا أبا مسلم إلى جانبهما ويبدوا في التفاوض ، فاتخذ أبو مسلم جانب ابن الكرماني أي اليماني الأصل طبقا لأوامر الإمام تجاه العرب ، فدخل مرو بعون منه ولاذ نصر بالفرار إلى نيسابور(في جمادى الأولى من عام 130 هـ) .

ليست هناك معلومات كافية عن أصل أبي مسلم ومن أين أتى ، ففي حين يعتقد البعض أنه من اصفهان يرى البعض الآخر أنه من مرو ، وهناك خلاف أيضا حول أصله العرقى بين قائل بأنه مروي أو عربي أو أعجمي⁽¹⁾ ، ومن أشهر ما كتب في هذا الصدد انه كان غلام عيسى بن معقل العجلي وفي عام 124 هـ رأى فيه بكر بن ماهان أحد الدعاة لبنى العباس كفاءة وكياسة حين كان في السجن وإخلاصه الذي يكره لدعوتهم ، فاشتراه من عيسى وأخذه معه إلى الشام وأهداه للإمام ، فسلمه الإمام لأحد الدعاة ويسمى موسى السراج ليعلمه فنون الدعاية ورموز الدعوة ، وبعد أن تلقى التدريب أرسله الإمام إلى خراسان لرعاية شئون الشيعة وإعداد مقدمات التحرك الثوري ، وثمة رواية أخرى معناها أن أبا مسلم لم يكن مملوكا بل كان عاملا لإدريس بن معقل . على أية حال، كان الإمام العباسي وقت حركة أبي مسلم الثورية هو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، ويصل دعاة بنى العباس بسلسلة إمامتهم إلى محمد بن الحنفية في البداية ، وكانوا يزعمون أن أبا هاشم ابن محمد بن الحنفية الذي آلت إليه الإمامة بعد أبيه كان في رحلة إلى الشام ونزل في خيمة لدى محمد بن علي والد إبراهيم هذا ، ونقل إمامته إلى محمد هذا ثم مات ، وكان محمد الذي يعد أول أئمة العباسيين أول من أوفد الدعاة إلى

(1) ابن حلكان ، مادة « عبد الرحمن » .

أنحاء البلاد ، وكان قد أمر بطلب « الرضا من آل محمد » وألا يذكروا اسما محمدا ، وبعد محمد ولى الإمامة ولده إبراهيم بوصية منه ، وأخرج أبو مسلم الدعوة إلى العلانية ، وبهذا ارتبطت فرقة الراوندية التى والت الدعوة لإمامة بنى العباس فى البداية بفرقة الكيسانية أى أتباع محمد بن الحنفية وعدت امتدادا لها ، وفى عهد المهدي العباسي أرادوا أن يقطعوا هذا الارتباط ، فنسبوا سلسلة الإمامة إلى العباس بن عبد المطلب مباشرة بدعوى أنه كان عم النبي وورثه ، وبهذا أخرجوا العلويين من حساباتهم .

فى الوقت الذى استولى فيه أبو مسلم على مرو آتاه فتح آخر دون جهد منه ، فعبد الله بن معاوية الذى كان قد استولى على جنوب فارس لفترة من الوقت بدعوى الخلافة فرأى أمام الجيش الذى حرده مروان إليه فترك أصفهان وذهب إلى خراسان ولاذ بأبى مسلم ، فزح به أبو مسلم فى السجن ثم قتله ، وبعد فتح مرو أرسل أبو مسلم قاداته لفتح المناطق المحيطة بخراسان ، وتقدمت هذه الفتوحات بسرعة كبيرة ، ودخلت فرقة من قوات مروان من أصفهان إلى جرجان ، فأمر أبو مسلم قحطبة بن شبيب بالخروج لصدّها ، فأرسل قحطبة الهزيمة بتلك الفرقة فى جرجان وتعقبها إلى أطراف الرى ، وانسحب أبو مسلم أيضا من مرو إلى حوار نيسابور ، فلم ير نصر بن سيار فائدة من البقاء بخراسان خاصة وأن ابنه تميم كان قد هزم فى طوس فى الحرب وقتل ، ففر نصر من نيسابور إلى الرى واتجه منها إلى همدان وهو مريض ، وتوفى فى الطريق عند ساوة فى ربيع الأول من عام 131 هـ .

بلغ قحطبة أواسط بلاد فارس وظل يتعقب أعداءه ، وفى النهاية وبعد أن فر جنود الخليفة الأمرى أمام جيش قحطبة توقفوا للمقاومة فى نهاوند بعد أن أدخلوا همدان ، وأعلنوا التسليم بعد عدة أشهر فى ذى القعدة من عام 131 هـ ، واتخذ جيش خراسان الطريق المعتاد من كرمانشاه إلى حلوان إلى خانقين ثم هبط من الهضبة الإيرانية إلى سهول العراق وفاجأوا العدو ، واختفى قحطبة فجأة ذات ليلة فى خضم القتال وبصورة مجهولة ، وأتم الفتح ولده حسن وكان قائدا حكيما شهيا ، ودخل الكوفة مباشرة فى محرم من عام 132 هـ ، وبعد هذه الموقعة ألقى القبض على إبراهيم الإمام فى حميمة ، بأمر من مروان ، ثم قتل فى السجن فيما بعد ، إلا أن أخاه أبا العباس عبد الله بن محمد بن علي ذهب مع عدد من أقاربه فرارا إلى الكوفة لدى الشيعة هناك ، وفى تلك الآونة دخل حسن بحيشه إلى الكوفة ، فأعلن الشيعة عبدالله هذا خليفة بحكم أن

إبراهيم اتخذه وصيا وخليفة له (فى ربيع عام 132 هـ) ووضعوا أبا سلمة الخلال الذى كان زعيما للشيعة فى الكوفة وقائما على الدعوة بها وكان قد أبدى ميلا إلى العلويين أخيرا أمام الأمر الواقع .

فى الوقت نفسه خرج مروان من حران واتجه إلى الكوفة عن طريق الموصل وخرجت جماعة من جيش خراسان لملاقاته ، ونشب القتال على ضفة نهر الزاب الأكبر ، واستمرت الحروب من الثانى إلى الحادى عشر من حمادى الأخرى ونزلت بمروان هزيمة فادحة ، وكانت هذه الموقعة التى تعرف بموقعة الراب بمثابة إيذان بأفول نجم الدولة الأموية ، وذهب مروان بجيشه المهزوم إلى حران وأسرع منها إلى دمشق أملا فى أن يجد بها ملاذا فلم يجد ، فواصل المسير إلى مصر السفلى ومنها إلى مصر العليا ، وفى النهاية كان عليه أن يجابه جيش خراسان فى بوصير بمصر العليا ، فقتل أثناء القتال وقطعت رأسه وأرسلت إلى أبى العباس بالكوفة .

طورد أفراد أسرة بنى أمية فى كل مكان وأعمل فيهم القتل وخرت قلعة مدينة دمشق وشقت قبور خلفاء بنى أمية وأحرقت عظامهم⁽¹⁾ ، وتمكن أحد أحفاد هشام بن عبد الملك ويسمى عبد الرحمن من السحابة بروحه من هذه المذبحة وبلغ الأندلس وأعلن نفسه خليفة وبدأت به الأسرة الأموية فى الأندلس .

رغم القضاء على مروان إلا أن الإستيلاء على الشام كله وهو مقر الأمويين لعدة سنوات كان لا يزال أمرا صعبا ، فقد ظل عدد من قادة الأمويين يمارسون نشاطهم سواء خروفا على أرواحهم أو طمعا فى الملك وأخذوا يؤلبون المدن على العباسيين ، فأعلن أحد قادة آل مروان واسمه أبو الورد بن الكوثر الثورة فى قنسرين ورفع أحد أحفاد يزيد بن معاوية يسمى زيا محمد زياد بن عبد الله للحلابة ، وزعم أنه السفينانى الموعود الذى ورد ذكره وسمع به الناس فى أحبار آخر الرما ، وتم قمع هذه الحركة فى موقعة مرج الأخرم قرب قنسرين فى أواخر عام 133 هـ ، وقتل أبو الورد فى المعركة وفر السفينانى إلى تدمر ومنها إلى الحجار حيث سقط فى يد أبى جعفر المنصور فقتله ، وثار قائد آخر يسمى حبيب بن مرة فى بلقاء الشام وانتهى أمره بالمصالحة .

(1) ابن العبرى ، 207 .

وبالقضاء على الأمويين خرج زمام الحكم من يد العرب وانتقل إلى أتباع بني العباس
أى الفرس ، وكان إنشاء بغداد إرهابا بذلك التحول ، وظلت العربية لغة الدولة ، إلا أن
الأدب وتقاليده الحياة وقعت جميعا تحت تأثير ذلك التحول وبدأت حضارة جديدة ، وكانت
موقعة الراب توازى معركة القادسية واستعاد الفرس بها ما كانوا قد فقدوه من قوة .

الفصل السادس

العباسيون

الخلافة العباسية فى عهد نفوذ أهل خراسان

تولى الخلافة أول خليفة عباسى وهو أبو العباس (1) الملقب بالسفاح كما سبق أن ذكرنا فى الثانى عشر من ربيع الثانى من عام 132 هـ بالكوفة بإجماع من أنصاره ، واعتلى المنبر وتلى خطبة ذكر فيها عشيرته من آل البيت وذوى القربى والعشيرة الأقربين ، وركز على ذكر الآيات التى تتعلق بآل بيت النبى (ﷺ) ومالهم من حقوق ، ثم تحدث عن توجهات بنى حرب (آل سفيان) وآل مروان وأنهم ظلموا واغتصبوا الحق من يد أصحابه إلى أن أنزل الله عليهم عقابه ومن على الناس بالخلافة العباسية ، ثم حمل البشرى لأهل الكوفة وقال « هنيئا لكم بأن أدركتم زماننا وسعدتم بوجودنا ، أمرنا بزيادة عطاياكم مئة درهم لكل منكم » ، وبعد الوعد جاء الوعيد فقال " فاستعدوا فانا السفاح المبيح والناثر المبين " ، وقد ذكر لفظ " الناثر " تذكرة للناس بدم بنى هاشم الذى سفكه بنو أمية ، اذ لم يكن شيعة آل البيت وخاصة الكوفيون قد نسوا واقعة الامام الحسين مع زيد وكانت الرغبة فى الثأر لهؤلاء الشهداء هى الباعث على قيام هذه الحركة على يد الكيسانية فى بداية الأمر ، ويرى العباسيون فى الانتساب إلى آل البيت وفى إدارة الحركة باتجاه مصالحهم وكما سبق أن ذكرنا فإن أبا سلمة حفص بن سليمان المعروف بالخلال الذى كان قائما على شئون الدعوة العباسية فى الكوفة وكان يعد من أركان الحركة خجل فى النهاية من تقديم العباسيين وفكر فى أهل بيت النبى الحقيقين، لذا فقد أخفى أبا العباس لفترة فى إحدى الدور بعيدا عن أعين شيعته ولم يعلن على الناس نبأ وروده إلى الكوفة ، وكتب أبو سلمة - كما يروى المسعودى - رسالتين إلى المدينة ، إحداهما إلى الإمام جعفر الصادق والأخرى إلى عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على يدعوهما إلى الكوفة ووعدهما بأخذ البيعة لهما من أهل خراسان ، فحدث أن أحرق جعفر بن محمد رسالة أبى سلمة فى حضور رسوله نار المصباح وقال : " هذا هو ردى " ، أما عبدالله بن الحسن فقد استجاب لدعوته ، إلا أن رسوله ما أن وصل إلى الكوفة وجد أبا العباس وقد أخرج أهل خراسان من مكمنه الذى أخفاه فيه أبو سلمة وأعلنوه خليفة (2)، وكان السفاح رغم إدراكه لسوء طويده أبى سلمه تجاهه

(1) هو أبو العباس عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس بن المطلب .

(2) مروج الذهب ، ج 2 ، ص 150

بخشى نفوذه ومكانته فكان يخفى عداؤه له بل واختاره وزيرا له، وكان ينادى بلقب « وزير آل محمد »، وكانت هذه أول مره يستخدم فيها لفظ « وزير » فى الإسلام ، وكان الخوف الأكبر الذى ساور السفاح هو أبو مسلم ، وكان يخشى أن يكون أبو سلمة مستندا إليه فى معارضته ، فأوفد أخاه أبا جعفر المنصور إليه فى خراسان ، وكانت الصلة بين أبى جعفر وأبى مسلم وثيقة ، فأرسله إليه يشكو من أبى سلمة خفية ، وكان أبو مسلم نفسه ساخطا على أبى سلمة ونفوذه فى العراق ، فأرسل شخصا من خراسان لإغتيال أبى سلمة ليلا بعلم الخليفة ، ونودى فى الناس أن الخوارج قتلوه وورى جثمانه تحت الثرى فى جنازة مهيبة .

استولى السفاح على كل الأراضى والبلاد التى كانت تحت سيطرة بنى أمية فيما عدا الأندلس التى ظلت تحت سيطرة عبدالرحمن الأموى كما ذكرنا من قبل، ولم تدخل الأندلس تحت سيادة العباسيين أبدا، وولى السفاح أقاربه على البلاد المفتوحة قدر استطاعته ، وظلت خراسان فى يدى أبى مسلم الذى كان الحاكم المطلق فيها ، وكان يقوم بإخماد الحركات الثورية التى كانت تنشب من آن لآخر فى المناطق المحيطة به ضد الأمويين ، وكان يزيل من طريقه أيا من زعماء الحركات أى من زملائه القدامى ممن يحس تجاهه بشىء من المنافسة على السلطة ، ومن بينهم سليمان بن كثير الخزاعى الذى تحدث يوما مع أبى جعفر المنصور ضد أبى مسلم ، فوشى به أبو جعفر عنده ، وفى فارس أيضا رفض عامل أبى مسلم عليها وهو عيسى بن على تعيين عم الخليفة الذى كان قد جاء عاملا على الولاية بأمر من الخليفة وقال " حكم أبى مسلم ملزم " ، وبلغ النبأ الخليفة فرأى المصلحة فى الصمت ، إذ كان الخليفة الحقيقى هو أبو مسلم، وفى العام الرابع من خلافة السفاح مر أبو مسلم بالخليفة فى طريقه إلى الحج ، فاستقبله الناس فى العاصمة بترحاب كبير، وكان أبو جعفر المنصور ثائرا على مالأبى مسلم من سطوة ، فنوى اغتياله إلا أن الخليفة خشى مغبة الأمر، وحال بينه وبين ما نوى ⁽¹⁾ وقد أتم المنصور ماعزم عليه بالفعل فى أيام خلافته .

(1) الطبرى ، ج 9 ، ص 153

كانت عاصمة السفاح مدينة الأنبار التي كانت مدينة فارسية قديمة تقع على ضفاف
نهر الفرات ، ويبدو إنها كانت مستودعا للذخائر والمهمات الحربية لدولة فارس في
الحملة الفارسية على الروم ، وتوفي السفاح بالأنبار في سن الثلاثين تقريبا متأثرا بمرض
يظن البعض أنه الجدري ، وكانت وفاته في عام 136 ، وكان أخوه أبو جعفر المنصور
الذي كان يتولى ولاية العهد منذ مدة مع أبي مسلم في مكة بفرض أداء فريضة الحج في
ذلك الوقت ، وأسرع إلى العراق بمجرد أن وافاه البأ ، فتولى الخلافة وأخذ البيعة لنفسه
من الناس ولعيسى بن موسى من بعده .

أعلن عبدالله بن علي عم المنصور الثورة على ابن أخيه بالشام واتجه إلى العراق
بجيش جرار كان قد حشده من أهل الشام بهدف الغزو الخارجي ، فأرسل المنصور أبا
مسلم الذي كان قد عاد من الحج وحضر إلى عاصمة الخلافة لقتال عبدالله ، والتقى
الجمعان عند نصيبين رغم أن جيش الشام كان يفوق جيش خراسان عددا وعدة وفرسانا .
الا أن أبا مسلم فاجأ جيش الشام بالحشود الخاصة التي عباها في الميمنة والميسرة وأنزل
به هزيمة ساحقة ، ففر عبدالله واستولى أبو مسلم على أمواله التي كانت تقدر بمبالغ
ضخمة ، وأرسل الخليفة من يأتي إليه بالغنائم وينتزع خراسان ضمنا من يد أبي مسلم ،
وأرسل إليه أمرا يتولى إمارة مصر والشام يزعم أنه سيكون " قريبا إلى الخليفة منه
في خراسان " ، لكن أبا مسلم ثار على أمر الخليفة واتخذ طريق خراسان بجيشه عارما
على تهديد الخليفة ، فارتعدت فرائص الخليفة الذي أوفد جمعا من خاصته وكبار رجال
البلاط لاستمالة أبي مسلم وتذكيره بحرمة البيت ، ووعد الخليفة بأنه إذا ماجأ أبو
مسلم إلى العاصمة فإن الخليفة يتنازل له عن كل سلطاته ، أما إذا أصر على مخالفته
فإنه سيصمد حتى آخر رمق ، ومن ناحية أخرى أرسل رسالة إلى أبي داود عامل أبي
مسلم في خراسان ووعدته بولاية خراسان ، والتقى وفد الخليفة بأبي مسلم عند حلوان
وأبلغوه بالوعود في البداية ، فتشاور أبو مسلم مع مقريه فلم يروا صلاحا في الذهاب
إلى الخليفة ، ووافق أبو مسلم على رأيهم ، وحين رأى الوفد امتناعه أبلغوه بالوعيد ،
وكان أبو مسلم أيضا قد اطلع على أمر رسالة الخليفة إلى عامل خراسان فخاف وفي
النهاية أعلن تسليمه وقتل عند بلوغه بلاط الخليفة في عام 137 هـ ، وقضى على ذلك
الرجل العظيم الذي اعتبره المأمون ندا لأردشير والإسكندر بسب خطأ صغير ، وبعد
مصرعه سمي بأبي محرم بعد أن كان العباسيون يطلقون عليه لقب " أمير آل محمد " .

كان قتل أبي مسلم جرحا بقلوب الفرس ، فخرج من ريف نيسابور رجل فارسي يقال له سنياد كان من ريبى أبي مسلم ، ويقول المؤرخون إنه كان مجوسيا عازما على الثأر لدمه ، وخرج معه جيش معظمه من أهل الجبال من نيسابور وقومس والرى ، وألحق جيش الخليفة الهزيمة به بعد سبعين يوما فيما بين الرى وهمدان، وقتل سنياد في طريق فراره بين قومس ومازندران على يد فارسي آخر يسمى لوان في عام 137هـ⁽¹⁾. ونشبت ثورة أخرى في مقر الخلافة التي كانت حينذاك هاشمية بالقرب الكوفة، فأمر المنصور بسجن مثنين من قادة فرقة الراوندية⁽²⁾، فثارت الراوندية وهاجموا سجن الخليفة وقصره ، وقام الخليفة بنفسه ومعه عدد من الفرسان بالهجوم عليهم وأبادهم عن آخرهم وكانوا ستمئة ، وبهذا تم القضاء على فرقة كانت تعد في طليعة الدعوة العباسية بنفس النار التي أوقدوها ، تماما كما حدث لأبي مسلم ، وكان هذا في عام 137هـ وفي رواية في هام 141هـ .

من المشاهد الدامية لخلافة المنصور حادث قتل محمد وإبراهيم ولدى عبدالله بن الحسن ابن الحسن ؛ ففي وقت ضعف آل مروان قامت طائفة بنى الحسن وأشياعهم بالمدينة بترشيح هذين الشابين للخلافة وبايعتهما جماعة سرا وكان من هذه الجماعة المنصور نفسه، لكن بتقدم شأن العباسيين انزوى هذان المرشحان واختفيا عن الأنظار، ولم يهدأ خاطر المنصور لحظة لهذا السبب ، فظل يطاردهما وبذل في ذلك جهدا كبيرا منذ أول أيام توليه الخلافة ، فأرسل عماله وعيونه للبحث عنهما ولما فشل في العثور عليهما أمر بإلقاء القبض على كل آل الحسن المثنى في المدينة عام 144 هـ وتم اقتيادهم إلى العاصمة مهران وألقى بهم في السجن ، ولقوا تعذيبا شديدا للدلاء بمكان كل من محمد وإبراهيم ، وضيق عمال الخليفة الدائرة على محمد في المناطق المجاورة للمدينة إلى أن اشتد به الحال فأعلن الثورة في المدينة طبقا لنصيحة تلقاها من أتباعه ، وقام بإرسال أخيه إبراهيم إلى الكوفة لكي يعلن الثورة هناك أيضا ، فبدأ المنصور بقتل عدد من مسجونيه ، وعندما انتشر خبر ثورة محمد بخراسان أرسل رأس أحد المسجونين إلى

(1) كذا في الطبري ، إلا أن ابن اسديار يذكر أن القاتل يسمى "طوس" ، انظر، تاريخ طبرستان، 174

(2) الراوندية أو الروندية كانوا من شيعة العباسيين في خراسان يؤمنون بإمامة العباس عم النبي، وكانوا فرقا عدة ، وكانوا على ولاء شديد لأبي مسلم ، راجع ، فرق الشيعة ، 46

خراسان فطاف بها الشيعة في كل مكان وأقسموا إنها رأس محمد بن ابراهيم ، ثم جرد جيشا من العرب وأهل خراسان إلى المدينة بقيادة عيسى بن موسى العباسي ، قفر أتباع محمد ، وكان معظمهم من البدو بعد فترة من المقاومة ومقتل عدد منهم ، ودخل حميد بن قحطبة الذي كان يتولى قيادة ميمنة جيش المنصور المدينة وقتل محمد الذي ظل يقاتل رغم جروحه الشديدة ، وقد قتله حميد بيده وأحضر رأسه إلى عيسى عام 145 هـ كان شيعة محمد بن عبدالله يطلقون عليه اسم " المهدي " و " النفس الزكية " وكانوا يطبقون أخيار " المهدي الموعود " عليه .⁽¹⁾

بعد مصرع محمد ثار أخوه ابراهيم بالبصرة والتفت حوله جماعة كبيرة من الزيدية وغيرهم ، واستفحل أمره إلى درجة أن استولى على مناطق حتى فارس ثم تحرك بجيشه قاصدا الكوفة ، فاستدعى المنصور باخرا⁽²⁾ ، وكانت كفة النصر تميل نحو ابراهيم إذ كانت قواته تضم رجالا شجعانا حكاما ، أما هو نفسه فكان ضعيفا مترددا بل ويرى أنه كان خائفا وداخله اليأس بعد أن بلغ ما بلغ ، ففي كل خطة قتالية يقترحها قادته كان يساوره التردد ، وفي يوم القتال انهزم جيش المنصور في البداية ، بل ولاذ حميد بن قحطبة بالفرار ، إلا أن ابراهيم حال دون مطاردة جيشه للفلول المهزومة بدعوى أنهم من أهل القبلة والدين ، إلى أن أدى صمود عيسى إلى عودة الفارين ، وانقلبت الموازين ، فقد نظم الجيش المهزوم صفوفه وأنزل الهزيمة بابراهيم وجيشه في ذي القعدة من عام 145 هـ ، فسجد عيسى شاكرا مأتاه من نصر وأرسل برأس ابراهيم إلى المنصور ، فأمر بتعليقها في السوق وتواجد الناس على الخليفة زمرا يهتفون به ، وظل المنصور طوال عهد خلافته يتعقب الفاطميين ويتوعدهم ، ويرى أنه بعد وفاته تم العثور على مستودع يضم رؤوس عدد كبير من القتلى وفي أذن كل رأس علقت رقعة تنبئ عن اسم صاحبها ونسبه ، ومن بينهم واحد عدد من الأطفال والشيخوخ⁽³⁾.

ولم يتورع المنصور عن الفتك بأقاربه أيضا في سبيل العرش والتاج ، فألقى القبض غفلة على عمه عبد الله بن علي الذي شق عصا طاعته ذات مرة ثم استسلم

(1) اطر مقاتل الطالبيين ، ص 87

(2) باخرا موضع بين الكوفة وواسط ، وكان قفر ابراهيم بها بعد مرارا في زمان ياقوت .

(3) الطبري ، ج 9 ، ص 320

وبإيعاده ، فزج به فى السجن وأمر الحراس بهدم سقف السجن على رأسه (1) ، وكان المنصور يسعى إلى تنصيب ولده المهدي وليا للعهد بينما كان عيسى بن موسى ولي عهد المنصور بمقتضى وصية السفاح ، ولم يمتثل عيسى لرغبة المنصور ، فظل الخليفة يهدم على رأسه الأسقف ويهيل على رأسه الأتقاض دون جدوى ، فدرس له السم حتى أُلِمَ به مرض عضال ، لكنه شفا منه وطاب ، وفى النهاية استدعى وابنه وأمر حراسه بختق الابن أمام عيون والده ، وما أن شرع الحراس فى تنفيذ ماأمرؤا به حتى أذعن عيسى وتنازل عن ولاية العهد ، وعلى أثر ذلك أعلن ابنه المهدي الذى كان متعلقا به تعلقا شديدا وليا للعهد .

استمرت الغزوات الخارجية الصيفية بصورة منتظمة فى عهد المنصور فيما عدا فى الأوقات التى كانت الاضطرابات الداخلية تحول دون ذلك ، فاستمرت الجيوش تغزو آسيا الصغرى وأرمينيا وخراسان وتعود بالغنائم ، فلم تكن الغزوات فى عهده فتوح بلدان ، وهاجم الروم أرض الإسلام مرة واستولوا على مدينة ملطية وأعملوا التخريب فى حصونها (عام 148هـ) ، وفى العام التالى ، تبادل الطرفان الأسرى وردوا الفدية ، وأعاد المسلمون بناء مدينة ملطية ، وفى القوقاز أيضا هاجم الترك الأراضى الإسلامية وقتلوا عامل الخليفة وأشاعوا الخراب فى تفليس ، فأرسل الخليفة حميد بن قحطبة اليهم ، إلا أن الترك كانوا قد عادوا أدراجهم قبل وصوله ، وكان الفتح الجديد الذى تم فى عهد المنصور هو فتح دماوند وطبرستان اللتين كانتا حتى ذلك الوقت خارج سيطرة الدولة الإسلامية ، وقام قادة المنصور بخلع مصمغان عن دماوند وسيهيد عن طبرستان وأخذوا بناتهما أسيرات إلى الخليفة (2) ، وفى الجزيرة أعلن خارجى يسمى ملبد بن حرملة الشيبانى عصيانه ، وتحقق له النصر عدة مرات فى مواقع متعددة الى أن تم القضاء عليه ، وفى أفريقيا الإسلامية ثارت جماعة من الخوارج الاباضية بعون من البربر إلا أنهم هزموا ، وكان الخطر الأكبر من كل ذلك ثورة استادسيس بخراسان فى عام 150 هـ ، فقد سيطر بجيشه الجرار الذى يروى أنه بلغ ثلاثمائة ألف جندى على معظم أراضى خراسان ، وهزمه قائد الخليفة خازم بن خزيمه بعد جهد جهيد طوال عام من القتال .

رغم كل هذه المشاغل الحربية كان المنصور يتسم بنشاط كبير فى شئون الدولة ؛ ففى

(1) طبقا لرواية مروح الذهب تم خنقه فى السجن ثم أهيل عليه السقف فلتى حتفه .

(2) راجع تفاصيل هذا الفتح فى ابن اسديار

خضم هذه الأحداث أنشأ مدينة بغداد والرصافة ورافقة ، وأولى اهتماما زائدا بأمن الطرق وخاصة طريق مكة الذي كان معرضا لهجمات البدو قاطعى الطرق ، وكان يذهب فى معظم سنوات خلافته إلى مكة لأداء الحج ، وأنشأ المنازل والرباطات على طول الطريق، وكان يولى اهتماما بالغاً بما يتصل بالمال والضرائب، فكان يتقصى حسابات عمال الدولة بدقة صارمة، وكان غالبا ما يأمر سجنهم ومصادرة أموالهم ومعاقتهم ، وكان يغير عماله بسرعة وأولا بأول، ونادرا ما كان سجنه يخلو من عمال الدولة المسجونين ، ويسبب تدقيقه وصرامته فى الحسابات كان يطلق عليه « الدوانيقى » أو " أبا الدوانيق "، وكان يدقق كذلك فى النفقات حتى على نفسه ، لدرجة أنه يقال إنه كان يرتدى قميصا به ثقب، ويروى عن الإمام جعفر الصادق انه قال عن المنصور : « الحمد لله الذى لطف به حتى ابتلاه بالفقر فى ملكه » ، ويروى عن المسعودى أن المنصور حين توفى ترك تسعمئة وستين مليون درهم (1) .

كان خالد البرمكى هو القائم على شئون الخراج ، وقد أنشأ الدواوين والإدارات التنظيمية لهذا الأمر، وأقام جهازا حكوميا على غرار النظام الساسانى ، واصطبغ التعمير والعلم والأدب وأسلوب الحياة فى عهده بصبغة فارسية ملموسة .

توفى المنصور فى سن الستين عند بئر ميمون قرب مكة وهو فى طريقه إلى الحج على أثر سوء هضم ابتلى به قبل سنوات، وكانت وفاته فى عام 148 هـ بعد ما يقرب من اثنين وعشرين عاما حافلة بالأحداث ، ودفن فى مقبرة المعلى بمكة ، وكان قمحي البشرة طويلا ونحيفا وله لحية صغيرة جدا ، ورغم ما كان يتسم به من قسوة كان يبكى فى أثناء إلقائه للخطبة فوق المنبر وكانت دموعه تنهال من لحيته الصغيرة المخضبة على الأرض .

توفى الإمام جعفر الصادق فى عهد المنصور فى عام 148 هـ فى سن الخامسة والستين ودفن بالبقيع إلى جوار أبيه (2) ، وبعد واقعة محمد النفس الزكية قام شخص بتأليب المنصور ضد الإمام ، ويقال إنه كان يقدم معونات مالية لمحمد ، فأرسل المنصور رسولا من قبله لاستدعاء الإمام إلى العراق ، واتضح له أن سعى الوشاة لم يكن صحيحا، فأكرم المنصور وفادة الإمام كما يروى وسمح له بالعودة إلى المدينة (3) .

(2) الارشاد والمقيد ، طبعة تهران .

(1) التنبيه والاشراف 296 .

(3) البحار ، ج 11 ، ص 165

كان خليفة المنصور هو ابنه محمد الملقب بالمهدى ، وكان شابا رقيق القلب يتحاشى سفك دم بنى هاشم ، وقد استغل الهدوء الذى أقره والده بما كانت له من هيبة وظل يقضى أيام خلاقته فى اللهو والشراب والتمتع بملذات الحياة ، وأنفق ما كان والده قد جمعه بالتقتير والشدة على رفاقه وبذل العطايا ، وظلت شئون الدولة على ماكانت عليه ، فاستقر أمر الحج والغزو والعزل والتنصيب ، وتم إنشاء منازل جديدة على طريق مكة ، وتم توسيع مسجد النبى وبذلت العطايا لأهل مكة والمدينة ، ولم تكن ثمة حروب أو حملات ذات أهمية فى الداخل ، وفى خراسان ثار يوسف بن إبراهيم المعروف باسم "البرم"⁽¹⁾ معترضا على الخليفة، فألقى قائد المهدى وهو يزيد بن مزيد المهلبى القبض عليه وأرسله إلى العاصمة حيث تم شنقه على مدخل جسر دجلة فى عام 160 هـ ، وفى العام التالى ثار المقنع فى مرو ، ومن المعروف أنه ابتدع مذهباً يقوم على التناسخ وكان أتباعه يقال لهم " سبيد جامكان " أى " المبيضة " فطارده قادة الخليفة ، ففر إلى ما وراء النهر وتوارى فى منطقة كش بإحدى القلاع، وحوصرت القلعة مدة عامين فضاق الخناق على المقنع ، فأضرم النار يوما فى كل شىء حوله بالقلعة وقتل نفسه وأهله وعياله بالسم، ويروى ابن العبرى أنه بعد أن تناول السم أشعل النار فى نفسه حتى لايقع جثمانه فى يد أعدائه⁽²⁾ ، إلا أن رواية الطبرى تدل على أن محاصره قطعوا رأسه وأرسلوها للخليفة فى حلب⁽³⁾ ، وفى تلك الآونة ثار خارجى يدعى عبد السلام اليشكرى بالجزيرة وألحق الهزيمة بعدده من قادة المهدى، وفى النهاية أرسل المهدى أحد قادته من أهل خراسان إليه ، فلاذ عبد السلام بالفرار وقتل فى قنسرين فى عام 162 هـ .

كانت الغزوات الخارجية على قدر أكبر نسبيا من الأهمية فى عهد المهدى ؛ فكان الجيش مهيأ وكان المال المخصص للإتفاق العسكرى متاحا ، إضافة إلى وجود المرتزقة من مختلف الولايات ، وكانوا يجتمعون كل عام فى موسم الغزو ويسمون المطوعة ، وكان الخليفة يصحب الجيش إلى الطريق فى مركب مهيب ، وتقدم عباس بن محمد

(1) يفتح الأول وسكون الثانى معنى " الحيل "

(2) مختصر الدول ، ص 218.

(3) الطبرى ، ج 9 ، ص 342.

برفقة عدد من القادة من أهل خراسان حتى أنقرة ، وعادوا بعد أعمال القتل والتخريب بها (عام 159 هـ) وبلغ هارون ابن الخليفة خليج القسطنطينية ، فطلبت ملكة الروم الصلح، فقبل هارون مطلبها وعقد معها هدنة لمدة ثلاث سنوات على جزية سنوية يدفعها الروم ، وعاد في عام 162 هـ .

وفي مسألة الخلافة وقع المهدي في نفس المشكلة التي عاناها أبوه لفترة ، فكما حدث في عهد المنصور آلت الخلافة بعد المهدي لعيسى بن موسى مرة أخرى ، وكان المهدي يود أن يستبدل به ولده موسى الهادي كولي للعهد . ومرة أخرى رفض عيسى التنحي عن ولاية العهد، وقضى الخليفة فترة في تهديد عيسى ، وفي النهاية تم استرضاءه بعشرة ملايين درهم وبعض الأملاك في منطقة الزاب وبإيعاز الهادي ، وبعد مدة تم إعلان هارون الابن الثاني للخليفة وليا للعهد ، إلا أن الخيزران أم الولدين كانت تود لهارون أن يكون المقدم فيهما إذ كانت تحبه حبا جما ، من ثم فقد انشغلت بالدسياسة لتحقيق رغبتها ، وظهر بذلك تدخل النساء في شئون الخلافة لأول مرة في تاريخ العباسيين ، وتعارن البرامكة مع الخيزران نظرا لأن الخليفة كان قد عهد إليهم بتنشئة هارون ، وكان الخليفة يقف عاجزا أمام إرادة زوجته المحبة إليه ، لذا فقد طلب من موسى الهادي الذي كان في ذلك الوقت في جرجان مشغولا بالقتال أن يتنحي عن منصبه إلا أنه رفض ، فخرج الخليفة قاصدا جرجان بقصد إقناعه شخصيا، ولكنه توفي عند وصوله إلى ماسبدان بصورة مفاجئة في محرم من عام 169 هـ ، ويروى أن سبب وفاته أنه كان يتعقب صيدا فسقط على ظهره فانكسر ، وفي رواية أخرى أن واحدة من المحظيات كانت قد دست السم لمحظية أخرى في ماء الورد ، فحدث أن تناوله الخليفة المهدي دون أن يدري مآله فمات، ولم يذكر احتمال أن يكون الهادي قد أعد له .

كان المهدي يولي اهتماما شديدا بتعقب الزنادقة ، وقد عين عاملا خاصا لإدارة هذه المهمة، وكان عمال الدولة يبحثون في كل مكان عن الزنادقة ويقتلونهم ، وكانت صفة " زنديق " تطلق على كل من حاد عن جادة الدين ، ويبدو أن هذه الصفة كانت تستخدم بنفس المعنى الفضايف في زمن الساسانيين ⁽¹⁾ وكان قتل الزنادقة يستغل ضمنا في حيك الدسائس في البلاط وبين كبار رجال الدولة ، فكان يطلق على كل من يراد به أن

(1) ماسينيون في كتاب " شهادة الخلاج ، " ج 1 ، ص 186 .

يعانى غضب الخليفة ، كما فعل ربيع الحاجب مع أبى عبدالله الوزير⁽¹⁾ ، واستمرت نفس هذه السياسة تجاه الزنادقة فى عهد خليفة المهدي .

كان أول قرار اتخذته الهادي فى عهد خلافته أن حظر على أمه الخيزران التدخل فى شئون الدولة بدعوى أن شئون الملك ليست من شأن النساء ، وأمرها أن تلتزم بالصلاة وبطاعته ولاتأبه بأمر الملك ، فلزمت الخيزران دارها على مضض ، إلا أن رجال الدولة وكبار مسئولياتها كانوا يجتمعون فى بلاطها كل يوم كعادتهم فى السابق إلى أن أمر الخليفة الناس علنا ألا يراجعوا الخيزران فى أى أمر ، بل ويروى أنه أرسل يوما إليها حلوى مسمومة بهدف الخلاص منها ، إلا أنها تنبّهت وأحجمت عن تناولها .

وراجه الهادي المشكلة الثابتة التى واجهها أسلافه وهى ولاية العهد ، كان الهادي يريد أن يولى ابنه القاصر جعفر وليا للعهد ، وسلك سبيل القسوة مع أخيه هارون الذى كان قد بوع وليا للعهد وأمر بسجن يحيى البرمكى الذى كان يحث هارون على المقاومة ، واتخذ فى النهاية قرارا شجعه على اتخاذ قاداته والمقربون إليه بأن يخلع هارون بالقوة ، وهنا تدخلت الخيزران العجوز ودبرت خطة لقتل الخليفة ، وهى الخطة التى صارت مثالا يحتذى فيما بعد ، وذات ليلة تزاحمت جوارى الخيزران على الخليفة وخنقته فى ربيع الأول من عام 170 هـ ، ثم تم إبعاد أحد كبار مسئولى البلاط إلى جعفر فأوقفه من نومه وأخذ منه البيعة لهارون ، كان الهادي حين وفاته فى السادسة والعشرين من عمره ودامت خلافته مدة ثلاثة عشر شهرا وعدة أيام ، وصلى على جثمانه هارون صلاة الجنازة ، ودفن فى قصر الملك .

وفى عهد الهادي أعلن الثورة حسين بن على بن الحسن من سادات المدينة وذهب إلى مكة حيث حشد جيشا على رأسه محمد بن سليمان العباسى ، وكان الجيش فى معظمه من الحجاج ، ووقعت الحرب ولقى حسين مصرعه مع عدد من رفاقه ، وقد عرف حسين باسم حسين " صاحب الفخ " على اسم الحى الذى قتل فيه (فى ذى الحجة 169 هـ) .

فى أعقاب وفاة الهادي تولى الخلافة أخوه هارون الذى كان فى ذلك الوقت شابا فى الثالثة والعشرين من عمره ، وعادت الخيزران فرض سطوتها من جديد فتولت أزمة

(1) انظر الطبرى ، ج 9 ، ص 339 .

الأمر بالتعاون مع يحيى البرمكى ، إلا أنها لم تعمر طويلا حيث توفيت فى عام 173هـ ومنذ ذلك الوقت تولى هارون الخلافة مستقلا، وقد أفاد من كفاءة البرمكة ودرأيتهم .

كان هارون من أشهر خلفاء العباسيين ، وكتب المؤرخون الكثير عن سيرته إلا أن معظم ما رويته كان يدور حول حياته الخاصة ومجالس اللهو والتدماذ والإماء والغلمان والعطايا وما إلى ذلك مما بعد كثير منه من نسج الخيال . على أية حال ، فإن الأحداث الهامة فى حياة هارون قليلة ولا تتوازى ما حظى به من شهرة ، كان هارون محبا للترحال وحياة السرور، ولم يكن يحب حو بغداد ، فقضى كل عمره فى المناطق المحيطة ببغداد يبحث عن عاصمة لها مناخ أفضل ، والحقيقة أنه لم يكن له مقر محدد، فكان كثير الحج والجهاد وكان فى بعض الأحيان يحرم للحج من بغداد .

كان يحيى يخفف من متاعب الخليفة بالتعاون مع أبنائه الأكفاء ، وكان يدير شئون الدولة والجيش بكفاءة تامة ، وحدث أن أعلن الثورة أحد السادات الحسينيين وهو يحيى بن عبدالله أخ النفس الزكية فى منطقة ديلم الجبلية فى عام 176هـ ، فخاف هارون ، وولى الفضل بن يحيى على الولايات المركزية وجرجان ومازندران وطلب منه إخماد ثورة يحيى ، فذهب الفضل إلى هناك وأقنع يحيى بالاستسلام وبقا وحصل له على وثيقة أمان بخاتم الفقهاء والقضاة وكبار رجال بنى هاشم من الخليفة وأصطحبه معه إلى بغداد، فأكرم هارون وفادة يحيى إكراما للفضل وترك مهمة رعايته للفضل نفسه ، وبعد حين أذن الفضل ليحيى بالعودة إلى المدينة دون علم الخليفة، فغضب هارون لكنه أثنى عمليا على قرار الفضل ، وبعد فترة أرسل رسولا يستدعى يحيى من المدينة ، وألقاه فى السجن ، وبدو أنه توفى فى السجن مسموما، وفى عام 176هـ . نشبت فتنة العصبية فى الشام بين اليمنيين والمضريين وقتل عدد كبير من الجانبين، فأرسل موسى بن يحيى البرمكى من بغداد وظل بالشام إلى أن تمكن من إخماد الفتنة وهدأت الأوضاع ، واختل جمع الضرائب فى مصر وكان واليها موسى بن عيسى العباسى يفكر فى إعلان التمرد ، فولى هارون جعفر البرمكى على مصر ، وأرسل محاسبا فارسيا اليها ، وعندما هدأت الأوضاع عزل هارون المحاسب الخبير فاختل النظام من جديد ، وفى شمال إفريقيا أعلن الثورة عبدويه الأتبارى وحيشه وقتل عامل الخليفة ، وقام يحيى البرمكى بإقرار النظام

هناك بإرسال اثنين من أقاربه ، واستلم عبدويه بوعد من يحيى وأتى إلى بغداد ولقى استقبالا كريما من يحيى . وهكذا ، كان البرامكة يديرون شئون البلاد على اتساعها بسياسة تجمع بين حسن التدبير والكياسة ، وتأكد أن ثمة أسلوبا لإدارة شئون الملك غير أسلوب زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف .

كان أسلوب البرامكة لا يعجب الخليفة الذى كان مولعا بجمع المال ، فولى على بن عيسى بن ماهان على خراسان رغم أن يحيى لم يكن يرى فى ذلك صلاحا ، فاتبع على بن عيسى سبيل الظلم فى خراسان حتى حار الناس بالشكوى وتوالت رسائلهم وشكاواهم على رجال الخليفة ولكن دون جدوى ، ولكن فى تلك الآونة بلغ الخليفة نبأ عن اعتزام على بن عيسى على الثورة ، فقلق الخليفة وذهب إلى الرى حيث أتاه على بن عيسى بهدية ثمينة بالإضافة إلى هداياه لرجال الخليفة، فسر الخليفة وقال ليحيى معاتبا " وكنت قد أشرت بأنه لا يجب إرسال على بن عيسى إلى خراسان، لقد أحسنت حين لم أصغ اليك " ، فرد يحيى برسالة مطولة قال فيها إن ثمة سبلا أيسر لنهب الناس من ذلك (1).

فى النهاية قرر الخليفة استئصال شأفة البرامكة ، وذات ليلة أرسل مسرورا خادمه مع عدد من الغلمان فقطعوا رأس جعفر بن يحيى وأحضروها إلى الخليفة، ثم أمر بالقاء القبض على يحيى وسائر البرامكة والزح بهم فى السجون ومصادرة أموالهم (محرم، 187 هـ) ، كان هذا القرار الفحاشى موضع حذل واسع ، فيروى البعض أنه يرجع إلى العلاقة الغرامية التى جمعت بين جعفر والعاسية أخت هارون وأن هارون كان السبب فى قيامها فى أحد مجالس شرابه ، إلا أنه لم يرض عما وصلت إليه العلاقة ، ويعتقد البعض أن موضوع يحيى بن عبدالله الحسنى هو الذى دفعه إلى ذلك حيث أطلق البرامكة سراحه دون إذن من الخليفة ، ويرى البعض الآخر أن الخليفة كان قد ضاق ذرعا بنفوذ البرامكة المتزايد، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا اكتفى بقتل جعفر دون سائر الأسرة وفى النهاية أطلق سراحهم ؟! ويروى البعض أخارا عن انتشار الأقاويل حول زندقة البرامكة ، موجز القول أن هذا الأمر لا زال يكتنفه الغموض ويمكن أن تكون له

(1)إصابة الضرى ، انظر تاريخ البيهقى (ص 416) حيث وردت هذه الواقعة بالتفصيل

عدة أسباب، يقول المسعودي إن الأمور قد أصابها الخلل بعد البرامكة وأن الناس عانوا سوء تدبير هارون وسذاجة سياسته⁽¹⁾

حدد هارون مسألة ولاية العهد منذ السنوات الأولى من توليه الخلافة ، فولاه محمد الملقب بالأمين والذي كانت أمه زبيدة حفيدة المنصور في عام 173 هـ رغم أن ولده الآخر عبد الله الملقب بالمأمون كان أكبر سنا من محمد إلا أن أمه كانت جارية ، وفي العام التالي عين المأمون وليا ثانيا للعهد بعد محمد واستكتبهما على الإخلاص بينهما، وأودع الوثيقة بالكعبة لحفظها ، وبعد مدة ولي القاسم ولده الثالث وليا ثالثا للعهد بعد المأمون ولكن بشرط أن يكون للمأمون في خلافته حق خلعه أو الإبقاء عليه .

كان اهتمام هارون بالجهاد ضد الروم البيزنطيين كبيرا ، فقد خرج بنفسه للغزو مرات كما ذكرنا من قبل ، وفي أواخر عهده نذر ابنه القاسم لهذه المهمة ، فكان يقاتل الغزاة برا وبحرا ، وكان أحيانا ما يحدث تبادل للأسرى وت عقد معاهدات صلح ، وحدث في عهد هارون أن وفد على مقر الخلافة سفير من قبل شارلمان ملك الفرنجة مرتين ، وكان الفرنجة في ذلك الوقت في تحالف مع البابا وفي حالة حرب مع الإمبراطور البيزنطي الذي كان على خلاف مذهبي مع البابا ، وكانوا يهدفون إلى تحريض الخليفة على الروم ، وفي عام 191 هـ أمر هارون بهدم الكنائس على الحدود وأمر سندی بن شاهك رئيس شرطة بغداد بإجبار ذمى بغداد على ارتداء ملابس تميزهم عن المسلمين، وكان الإمبراطور البيزنطي متحالفا مع الخزر ، ونتيجة لذلك اعتدى الخزر في عام 183 هـ على أراضي الدولة الإسلامية ودخلوها من دربند وأعملوا القتل والتخريب وروى أنهم قتلوا مئة ألف مسلم وذمى ثم عادوا أدراجهم ، في ذلك الوقت ظهرت قلاقل بشمال إفريقيا من جراء ثورة ادريس أحد السادات الحسينيين ، وقبل إبراهيم بن الأغلب القيام بإخمادها بشرط أن تظل ولايتها في أسرته ، وقبل هارون هذا الشرط تحت ضغط الانشغال بالقتال الداخلي ، وبهذا خرجت إفريقيا من تحت سيطرته واستقلت بها أسرة الأغالبة .

وعلى أطراف الدولة توالى ثورات الخوارج وأخمادها وبصعوبة بالغة أحيانا ، ومن

(1) التبيين والإشراف، ص 199 .

بين هذه الثورات حركة فرقة الخرمدين أو المحمرة بأذربيجان ، ورغم أن جيش الخليفة أحمد ثورتهم إلا أنهم ظلوا نشطين ، وفي سيستان ظهر حمزه بن آترك (آذرك) الخارجي (177هـ) ، وقد عم الخراب مناطق عديدة من خراسان قبل القضاء عليه (1) وكانت من الحركات الهامة ثورة أهل خراسان على ظلم علي بن عيسى بن ماهان وإلى خراسان ، وحين يأس الأهالي من إنصاف الخليفة شقوا عصا الطاعة وثاروا ، ورفعوا رافع بن ليث حفيد نصر بن سيار الذي عانى شخصياً عسف علي بن عيسى واتخذوه قائدا لهم ، فأرسل هارون هرثمة بن الأعين إلى مرو ظاهرياً بهدف دعم علي بن عيسى وفي الحقيقة للخلاص من شره عن خراسان ، فألقى هرثمة القبض على علي وأخذه إلى الخليفة وصادر أمواله ، وكان رافع في سمرقند ، فاتمحه هارون إلى خراسان بنفسه لتصفيفه ثورته ، واصطحب معه المأمون الذي كان صاحب خراسان، وفي الطريق اشتد عليه المرض، وفي طوس أوفد المأمون إلى مرو بينما ظل هو في طوس بسبب اشتداد وطأة المرض عليه ، وفي أواخر لحظات حياته استدعى أخا رافع الذي تم القبض عليه وطلب جزارا وأمره بتقطيع جسده إلى أربعة عشر جزءاً ، وكانت هذه آخر رغبة للخليفة توفي بعدها بساعات (في جمادى الآخرة من عام 193هـ) وكان في الخامسة والأربعين من عمره ، كان هارون أبيض البشرة ممتلئاً معمد الشعر بدأ الشيب في الظهور عليه .

توفي في عهد هارون الإمام موسى بن جعفر الكاظم في سجنه ببغداد ، وكان هارون قد أرسل الإمام في عام 179هـ من المدينة إلى البصرة ليتم سجنه لدى حاكمها عيسى بن جعفر ، ثم أمر بإحضاره إلى بغداد وسجنه لدى رئيس شرطة بغداد سندی بن شاهك إلى أن وافته المنية في عام 183هـ في السجن وهو في سن الخامسة والخمسين ، ومن المسلم به لدى الشيعة أن هارون دس له السم ، وبعد وفاته عرضوا جثمانه على الملأ واحضروا القضاء والفقهاء لرؤيتها والتأكد من عدم وجود جروح أو اختناقات بها ، ثم وورست الثرى في مقابر قريش (2) ، وتحكى الروايات أن الامام تعرض للسجن

(1) انظر التفاصيل بتاريخ سيستان .

(2) أصول كافي ، 193 ، ارشاد معبد

أيضا في عهد المهدي إلا أن المهدي رأى مناما أطلق سراح الإمام على أثره وأعادته
مكرما إلى المدينة (1)

استمرت خلافة الأمين حوالي خمس سنوات من 193 إلى 198 هـ قضى معظمها
في صراعات مع أخيه المأمون ، كان الأمين شابا لاهيا بلافكر محدد ، وكان واقعا تحت
تأثير وزيره الفضل بن الربيع ، ففي العام الثاني من خلافته أمر بإيعاز من وزيره بذكر
اسم موسى ابن الخليفة في خطبة الجمعة قبل اسم المأمون مما كان يعنى إزاحة المأمون عن
ولاية العهد خلافا لوصية هارون ، وكرد فعل تدبر المأمون أمره وكان في خراسان ، فقطع
العلاقات بين خراسان وبغداد ، وأجبر رافع بن ليث الذي أعلن تمرده في ماوراء النهر على
الاستسلام بمعاودة صلح مشرقة ، وفي النهاية نشبت الحرب صراحة بين الأخوين ، فخرج
من بغداد جيش بقيادة على بن عيسى متجها إلى خراسان ومعه سلاسل من فضة لتقييد
الأخ المتمرد ، إلا أن هذا الجيش انهزم في الري على يد قائد جيش المأمون طاهر بن
حسين ذي اليمينين ، فتم تجريد جيش آخر من بغداد ولقى الهزيمة بدوره في همدان ، ولم
يجد الأمين جيشا آخر يرسله اليه ، فأمر بحشد جنود جدد من الشام بينما كان الشام
يشهد صراعات عصبية بين الكلبيين والقيسين ، وفر جنود الشام في أول مواجهة مع
العدو ، فتقدمت جيوش المأمون بقيادة طاهر وهرثمة فتقلت البصرة والكوفة ومكة
والمدينة الخليفة الجديد ، وسرعان ما حاصر بغداد ، واتخذ الأمين ملاذا في قصر الخلد ، فعم
الإضطراب المدينة وأعلن عدد من الناس معظمهم من "الأبناء" أي ذوى الأصل الفارسي
تأييدهم للمأمون ، وعندما عجز الخليفة عن العثور عمن يعينه على السيطرة على الأوضاع
حشد قوة من فتوات بغداد ولصوصها الذين كانوا هم أنفسهم سببا في اضطراب الأمن ،
وفي النهاية لم يجد الخليفة بدا من التسليم إلا أنه طلب أن يكون استسلامه لهرثمة لا
لطاهر ، لأن أنصار الخليفة كانوا بطمئنون لهرثمة بحكم سابق المعرفة بينهم وبينه ، فخرج
كل من الخليفة وهرثمة للقاء على ضفاف دجلة ليلا ، وكان طاهر على اطلاع تام بكل شيء
من خلال عيونه في المدينة ، فأرسل جماعة من رجاله لمهاجمة القارب الذي يقل الخليفة
وهرثمة ، فسقطا في الماء ، فانتشل الحراس الخليفة وأخذوه إلى طاهر الذي أمر بقطع رأسه
وإرسالها إلى المأمون بخراسان (في الخامس والعشرين من محرم من عام 197 هـ) .

(1) تذكرة خواص الأمة ، طبعة تهران ، 197 .

وتحولت الخلافة إلى ابن الجارية الفارسية الذي احتل مكان ابن زبيدة العباسية، وكانت الميول الفارسية لدى المأمون ووزيره الفضل بن سهل السرخسى سببا في قلق العنصر العربى ، فالتفوا حول أحد العلويين ببغداد ويدعى محمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا ، وقامت ثورة بقيادة أبى السرايا الذى كان فيما مضى من أتباع المأمون فى لكوفة فى عام 199 هـ ؛ إلا أن ابن طباطبا توفى فجأة وسقط أبو السرايا فى يد هرثمة والحسن بن سهل الذى كان عامل المأمون على العراق وتم قتله بأمر من الحسن ، وحدثت الواقعة بين الحسن وهرثمة ، فأمر المأمون بتولى هرثمة لولايتى الشام والحجاز إلا أنه أتجه إلى خراسان بدعوى ضرورة إطلاع الخليفة على سوء أعمال الحسن ، فألقى المأمون بهرثمة فى السجن بإيعاز من الفضل ، وبعد عدة أيام تم قتله سرا . وفى الجزيرة أيضا قامت حركات ثورية بين العلويين والزيديين ، فثار زيد بن موسى الكاظم المعروف بزيد الغار بالتعاون مع أخيه أبى السرايا فى الأتبار والبصرة ، إلا أن أيا من هذه الحركات الثورية لم تخرج بنتيجة ، وفى بغداد ثار الأهالى اعتراضا على الحسن بن سهل وعلى سلوكيات هرثمة ، وطالبوا بتولى المنصور بن المهدي للخلافة. وفى ذلك الوقت كان المأمون بخراسان فأرسل رسولا إلى المدينة لإحضار على بن موسى الرضا مكرما إلى خراسان ، وقرر تنصيبه وليا للعهد وزوجه ابنته ، فثار أهالى بغداد وطالبوا بخلافة ابراهيم بن المهدي. وثار الأهالى فى مصر أيضا واستولى بابك الخرمى على أذربيجان .

اتجه المأمون من طوس إلى العراق ، وفى سرخس تكالب عدد من الناس على الفضل ابن سهل فى الحمام وقتلوه (أوائل عام 202 هـ) . ولعلمهم كانوا يرمون بذلك إلى حماية الخليفة من وزيره المتآمر ، وتظاهر الخليفة بعدم رضائه عن هذا الحادث وعاقب مرتكبيه ، وفى سبيل استرضاء أسرة الفضل تزوج ابنة أخيه الحسن ، ولدى وصوله الى طوس توفى الإمام الرضا مسموما، كما تروى الشيعة. وفى الرى شاعت أنباء عن أن الحسن بن سهل والى العراق الذى كان يقيم فى واسط قد أصابه مس من الجنون وأنه أودع مصحة الأمراض العقلية . وبهذه الحوادث اتضح لأهالى بغداد أن المأمون يستعد لتغيير سياسته ، فانفصوا من حول ابراهيم بن المهدي ودخل المأمون العاصمة فى هدوء فى عام 204 هـ ، وعادت الرايات إلى اللون الأسود بعد أن كانت خضراء منذ زمن ولية عهد الإمام الرضا ، وتم مع ضرائب العراق إنعاماً على الناس .

كان المأمون رغم مشاغله الكثيرة يولى اهتماما بالغاً للعلم والأدب وتشجيع أهل العلم ، وظهر فى عهده علماء أفذاذ فى مختلف أفرع المعرفة ، من قبيل الشافعى وأحمد ابن حنبل الفقيهين النابيين ، والبخارى المحدث المعروف صاحب كتاب الصحيح، والواقدي المؤرخ ، وأبى تمام الشاعر الكبير فى عصر المعتصم وناظم الحماسة ، واسحاق ابن ابراهيم استاذ الموسيقى، وغيرهم ، ومن الأعمال الرئيسية فى عهده ترجمة كتب الإغريق الفلسفية والعلمية وهو ماتم وتطور بتشجيع من المأمون ، وقام المأمون بتشيد أول جامعة فى الإسلام وهى بيت الحكمة ، وهى مؤسسة تعليمية تضم مكتبة ومرصداً، وكان المأمون يهتم بالفكر والمذاهب والآراء ، وكان له مجلس يجتمع فيه متكلمو الفرق على اختلافهم ويتباحثون ، وقد أمن المأمون بخلق القرآن كما يرى المعتزلة ، وكان يريد أن ينشر هذه العقيدة، إلا أن الفقهاء والمحدثين وخاصة أحمد بن حنبل وأتباعه كانوا يعتبرون ذلك بدعة ، فاتبع المأمون سبيل القسوة عليهم وأمر بحبسهم وإلقائهم فى السجون ، فحل " عصر المحنة " على حد تعبير الحنابلة ، ولكن توفى المأمون فى رحلة للجهاد على أثر مرض قصير فى سن الثامنة والأربعين بطرسوس فى عام 218 هـ .

فى خضم هذه الأحداث خرجت خراسان إلى الأبد من نطاق الخلافة ، فقد أرسل الخليفة طاهر بن الحسين القائد المعروف الفارسى الأصل واللغة إلى خراسان لإخماد الاضطرابات بها ، مخالفة التوفيق فى ذلك إلا أنه اتجه إلى الاستقلال، وذات يوم أمر بحذف اسم الخليفة من خطبة الجمعة ، ولكنه توفى فى نفس تلك الليلة ، ومع ذلك كانت خراسان قد ضاعت إلى الأبد ، فقد ترك الخليفة ولايتها ' بن طاهر مضطراً ، فاستقرت الأسرة الطاهرية هناك ، ومنذ ذلك الحين استولى الترك على مكان أهل خراسان فى جهاز الخلافة .

الخلافة فى عهد الغلمان الترك :

دخل المجتمع الإسلامى فى أعقاب فتوحات ماوراء النهر وتركستان عنصر جديد يسمى الترك ، وسرعان ما حذبت الاستعدادات القتالية والطاعة لدى غلمان الترك انتباه الخلفاء وقادة الجيوش ، فبدأوا فى استعداد طاعتهم وشدتهم ، من ناحية أخرى كان العرب قد لانت قوتهم على أثر الرفاهية والترف الذى نعموا به فى حياة المدن والشراء والنعمة التى رفلوا فيها بل وفقدوا خصالهم القتالية ، كما اندمج أهل خراسان أيضا فى العرب بالعراق فى خلال عدة أجيال منذ بدء الخلافة ، وبحيازة الطاهرين لخراسان وسيطرة الخرمينى على أذربيجان والفرس على مازندران لم يبق للخلافة مجال لمحشد الجيوش ، ولم يكن الخليفة ليجد جيشا أفضل من غلمان الترك خاصة مع وفرة عرضهم فى أسواق الخفاسة ، فتوسع المعتصم خليفة المأمون فى استخدام الترك وأعد بهم جيشا جيد التنظيم، وفى بغداد أن الأهالى بالشكوى من هؤلاء الترك ، فشيد المعتصم سامراء واستقر بها معهم .

وقام المعتصم بفتوحات بجيشه الحديث الإنشاء فأجبر الزط (1) وهم قوم كانوا قد تمردوا على طاعته فى بطائح البصرة على الإذعان ، واتجه إلى غزو الروم وفتح عمورية وأعمل القتل والتخريب ردا على ما فعله إمبراطور الروم فى الأراضى الإسلامية من قتل وتخريب من قبل (فى عام 223 هـ) ، وحرد جيشا بقيادة أنشين لصعد الخرمين ، وبعد معارك طويلة لاذ بابك زعيم الخرمين بالفرار ، وقبض عليه أحد خوانين الأرمن طمعا فى الجائزة وأرسله الى أنشين ، وتعرض عدد من أتباع بابك للقتل وفر عدد آخر منهم إلى بلاد الروم ، وتم التمثيل بجثة بابك وعلقت من بعد فى سامراء ، وحصل أنشين على تاج وجوائز ، ولكن بعد فترة تم شق أنشين أيضا استنادا إلى تأمره مع مازيار ضد الخليفة واعتناقه للوثنية ، وتم إحراق جثمانه مع عدد من الأصنام التى قيل أنها وجدت فى داره، وكان مازيار هذا (محمد بن قارن بن ونداد بن هرمز) يحكم ولاية طبرستان باسم العباسيين ثم أعلن استقلاله عنهم، فأرسل عبدالله بن طاهر جيشا من خراسان بأمر من المعتصم وألقى القبض على مازيار واقتيد إلى سامراء وقتل جلدا وعلقت حثته على المشنقة إلى حوار بابك وأنشين (عام 226 هـ) ، وتمرد أحد أقارب أنشين

(1) الزط بصم الأول ، وهم الجت بالهندية وهم الفجر أو نوع منهم .

ويدعى منكجور وكان واليا على آذربيجان، فأخذ المعتصم ثورته على يد تركى أحر يسمى بغا ، وتحولت مسألة جيش الترك فيما بعد إلى معضلة بالنسبة للخلافة ، إذ كان طمعهم يزداد كلما ازدادت قوتهم إلى أن فرضوا سيطرتهم على الخليفة والخلافة كما سئرى، واستدعى المعتصم الإمام محمد التقي فى عام 220 هـ من المدينة إلى بغداد، وتوفى الإمام فى نفس العام ودفن بمقابر قریش .

توفى المعتصم فى سامراء فى عام 227 هـ فى سن يناهز السابعة والأربعين وخلفه ولده هارون الملقب بالواثق بالله فى سن الواحدة والثلاثين ، ولد الواثق لجارية رومية (إغريقية) ، وفى مدة الخمس سنوات التى تولى فيها الخلافة اتبع سبيل المأمون فى طلب العلم والجدل فى الآراء والأفكار ، وحين وفاته تعاون قائدان تركيان هما وصيف وابتاخ وولوا الخلافة لجعفر أخيه الذى كان ابن جارية خوارزمية ولقب بالمتوكل على الله ، وبهذا ردوا على الفتنة التى أطلت على البلاد ، أما المتوكل فمأن وافته القدرة قضى على القائدين التركيين ودعم مكانته فى مواجهة المدينة الثائرة بالإطاحة على هذين القائدين القويين .

وكان المتوكل فى سياسته محالفا لعدد من أسلافه المستنيرين فقد اتجه إلى جذب رأى العام إليه ، فطارده الشيعة فى كل مكان وحظر الجدل حول القرآن وأقر أحكام عمر بن الخطاب وأمر بأن يرتدى أهل الذمة ما يميزهم عن المسلمين ، وكفر الاعتقاد بخلق القرآن وتعقب العلويين بصورة جادة وقام بتخريب قبر الحسين بكربلاء وحظر الحج إليها .

وفى سبيل الحد من سطوة الترك قام المتوكل بتعيين محمد بن عبدالله حفيد طاهر ذى اليمينين واليا على العراق ونقل العاصمة من سامراء إلى منطقة تسمى باسمه وهى الجعفرية ، وقام بتعيين ابنه المنتصر وليا للعهد إلا انه بعد حين وافته فكرة عزله وتعين ابنه الأصغر المعتز بدلا منه ، إلا أن هذه الفكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، حيث قتل القائدان التركيان وصيف وبغا الصغير الخليفة بأمر من المنتصر فى شوال 247 هـ ، إلا أن المنتصر لم يحظ بالعرش والتاج فقد وافته المنية بعد ستة أشهر ، وليس من المعلوم ما إذا كانت وفاته نتيجة لمرض أو سم ، وكان خليفته المستعين حفيد المعتصم العلوية فى يد القواد الترك ، وفى تلك الأوقات قام بغا بقتل أحد الغلمان الترك فثار عليه سائر

الغلمان وعلى وصيف ، فلاة القائدان بالفرار إلى بغداد وأخذا معها الخليفة ، فحاصر الشوار بغداد واستسلمت المدينة وترك الخليفة مكانه للمعتز الذي اختاره الشوار للخلافة (الثالث من محرم عام 252 هـ) ، وفي تلك الأثناء تولى العرش في طبرستان أحد أئمة الزيدية هو حسن بن زيد الحسني وأسس الأسرة الزيدية في طبرستان (عام 250 هـ) ، وفي أوان استسلام بغداد اشترط ألا يلحق أى أذى بالخليفة المستقل وهو المستعين ، وقد اختار الأخير الإقامة بواسط ، وبعد فترة أرسل المعتز أحد أعوانه لنقله من واسط إلى سامراء ، وفي الطريق تبعه سعيد بن صالح خادم المعتز في مهمة سرية وقتله وقطع رأسه وأخذها إلى الخليفة ، وظلت حثته مفصولة الرأس ملقاة على الطريق لفترة إلى أن عثر عليها بعض المارة فدفنوها ، وكان المستعين حين قتل في الخامسة والثلاثين من عمره (عام 252 هـ) ولم يطرأ أى تغير على حال الاتراك في عهد المعتز ، فكان كل قائد تركي يمثل مركز قوة مستقلة ، وكان الصراع دائرا فيما بينهم على كسب المزيد من النفوذ والقوة مما كانت محصلته النهائية زيادة ضعف الخليفة ونهب الأموال وشيوع الفوضى في الولايات وظهور حركات التمرد في جناباتها ، وكانت والددة الخليفة مصدرا آخر لمتاعبه (وكانت حاربة رومية تسمى قبيلة) فكانت تتدخل في شئون الدولة وتجمع المال من كل مصدر ممكن⁽¹⁾ ، وكان غلمان الترك من حين إلى آخر تعلن جماعة منهم عصيانها بدعوى المطالبة بزيادة المخصصات المالية والرواتب ، فكانوا يرهبون الوزراء ويغيرون على خزائنة الدولة التي كانت غالبا خاوية ، وفي تلك الآونة زادت قوة يعقوب بن ليث في خراسان وكرمان فقضى على آل طاهر ، واستولى على مصر أيضا غلام تركي يدعى أحمد بن طولون بعون من بابك بك حاجب الخليفة التركي وخرج بها من سيطرة الخلافة في بغداد بتأسيسه للأسرة الطولونية بمصر ، ووقع بغا الصغير في يد الغلمان المغاربة أي البربر في بلاط الخليفة وقتل ، إلا أن غلمان الترك بقيادة صالح بن وصيف أعلوا الثورة وقبضوا على المعتز وقتلوه تعذبا وتجويعا في عام 255 هـ ، وكان في الرابعة والعشرين من عمره واستمرت خلافته أربعة أعوام وعدة أشهر ، ومن أحداث عصره وفاة الإمام على التقي في عام 245 هـ ، بسامراء .

(1) راجع مختصر الدول ، ص 256 .

وولى الغلمان الترك المهتدى محمد بن الواصل خليفة بعد المعتز ، وكان المهتدى رجلا ورعا وشجاعا وشهما ، ويصفه المسعودى بأنه نظير عمر بن عبدالعزيز فى بنى أمية (1) لذا فقد سعى منذ بدء ولايته إلى تقليص نفوذ الترك ودرء شرورهم عن الخلافة أى أنه سعى إلى فعل ما لم يجرؤ أسلافه حتى ذلك الوقت على الإقدام عليه، وما أن خرج موسى بن بغا قائد الترك لحرب الزيدى فى طبرستان حتى بدأ الخليفة فى تنفيذ ما عزم عليه ، فقبض على أخ موسى وقتله ، ثم قطع رأس قائد تركى آخر هو بابك بك عندما أبدى اعتراضه ، فحاصر غلمان بابك بك قصر الخليفة ، فخرج الخليفة من قصره لمقاتلتهم مطمئنا إلى ثقته فى الغلمان البربر والفراعنة وإلى تأييد العامة له، إلا أن البربر والفراعنة فروا هاربين ووقف العامة دون تقديم يد العون له، فقبض الترك على الخليفة وقتلوه فى عام 256 هـ . (2)

وفى عهد المهتدى نشبت ثورة على بن محمد المعروف بصاحب الزنج بالبصرة فى عام 254 هـ ، وكان يعتبر نفسه علويا وادعى الأمامة ، ويرى البعض أنه كان عربيا من قبيلة عبد القيس فى حين يؤكد البعض الآخر على أنه فارسى (3) وترجع تسميته بصاحب الزنج إلى انضمام الزنجبار المقيمين فى البصرة والبطائح إليه ، واستفحل أمر صاحب الزنج وألحق عدة هزائم بجيوش الخليفة وقواده ، ولم يجد الخليفة الفرصة لسحق ثورته نظرا لانشغاله بأمر الترك

ولخلافة المهتدى اختار موسى بن بغا أبا العباس أحمد بن المتوكل خليفة ، وكان أبو العباس فى ذلك الوقت شاعرا فى الخامسة والعشرين ، وكان ابن حاربة تسمى فتيان، ولقب بالمعتمد، وكان أول قرار اتخذته المعتمد تغيير العاصمة من سامراء إلى بغداد، وكان المعتمد شاعرا غزاليا ورعيا ورغم ذلك امتدت خلافته مدة طويلة نسبيا حيث حكم لمدة ثلاثة وعشرين عاما ، وكان طول أمد خلافته يرجع إلى قيام أخيه طلحة الملقب بالموفق بأعباء الحكم ، وكان رجلا حارما وشهما وكان دائم السعى إلى التغلب على المشكلات، وكانت الحركات الثورية كثيرة فى الدخل ، وكان صاحب الریح قد مد يده من البصرة

(1) التنبيه والاشراف ، ص 318

(2) شمة احتلاقات حول تفاصيل الواقعة بين رواية الطبرى ورواية مروج الذهب .

(3) الطبرى ، ج 1 ، ص 274 ، حوار ، تاريخ العرب ، ج 1 ، ص 307

إلى ماحولها والادهى من ذلك أن يعقوب بن ليث بعد أن استولى على فارس جاء إلى العراق وعسكر في دير العاقول بين واسط وبغداد على ضفة دجلة وبات يهدد العاصمة، ومن حسن طالع الخليفة أن اتحد قواده في ذلك الوقت لحمايته خوفا من زوال الجهاز الذي يرتزقون منه ، ووقفوا بكل قوتهم في المعركة ضد يعقوب ، وكان فيضان النهر عوناً لهم ، كما شب حريق في معسكر يعقوب فجفلت الحيوانات ووقعت الفوضى في صفوف جيشه ، وبالإضافة إلى كل ذلك أصيب يعقوب بمرض في تلك الأثناء ، نتيجة لكل ذلك لحقت الهزيمة بـيعقوب وفر رغم كل ما تسم به من ثبات ، إلا أن أحدا لم يتعقبه فظل يعيش في جنديسابور إلى أن توفي في عام 265 هـ .

وتمكن الموفق من القضاء على صاحب الزنج بعد أن بسط سيطرته على البصرة وتوابعها مدة أربعة عشر عاماً (في عام 270 هـ) ، ثم أرسل جيشاً بقيادة ابنه أبي العباس لقلب حكم الملك الطولوني بمصر ، وكان الطولونيون آنذاك قد اقتتلوا الشام من تحت سيطرة الخليفة وامتد نفوذهم حتى قنسرين وربة ، وحقق ابن الموفق نصراً في طواحين فلسطين إلا أن أحد قادة ملك مصر فاحاً ففر ابن الموفق بكل سرعة عائداً إلى العراق ، ومنذ ذلك الحين انقطعت الصلات بين مصر والعراق تماماً ، وكان الخليفة يلعن ابن طولون على منابر العراق وابن طولون يلعن الخليفة في مصر .

في عهد المعتمد تعرض عبدالله بن رشيد بن كاووس وأربعة آلاف جندي لهجوم الأعداء في بلاد الروم وقتلوا جميعاً إلا خمسة منهم وأسر عبدالله ، وفي أواخر عهد المعتمد ظهر القرامطة في الكوفة برعامة درويش خوزستاني أخذ يدعو لإمامة أحد أفراد آل البيت ، وأتى بأحكام دينية جديدة ، وقد ازدادت هذه الفرقة فيما بعد كما سيرد الذكر ، وفي عهد المعتمد توفي الإمام حسن العسكري بسامراء في عام 260 هـ ، وبإمامة ابنة محمد بن الحسن بدأ عهد العيبة .

أصيب الموفق في طريق عودته من أدريجان بداء الفيل وتوفي في عام 278 هـ ، وفي ذلك الحين قامت ثورة كبرى في بغداد فاحترقت ديار كثيرة ونهبت أموال جمّة ، فتولى أبو العباس ابن الموفق أرمه الأمور ومالبت المعتمد حتى مات نتيجة لإفراطه في الطعام والشراب أو على أثر سم دس له وخلفه أبو العباس بلقب المعتضد بالله في عام 279 هـ .

كان المعتضد رجلا قوى الشكيمة حازما فى سيطرته على الأمور ، وكان لكفاءة غلامه بدر تأثير غير هين ، فهدأت الفتن فى عهده إلى حد ما وأبدى ملك مصر الطولونى ولائه للخليفة وزوجه ابنته ، وأظهر حكام خراسان من صفاريين وسامانيين طاعتهم فى مذلة وظلوا يرسلون إليه الضرائب والهدايا، إلا أن أمر القرامطة استفحل لدرجة خطيرة وأخذ أبو سعيد الجنابى يتهدد الكوفة والبصرة واستمر الصراع ، وكان المعتضد لا يتورع عن سفك الدماء ويتلذذ بتعذيب رعيته ، وكان يتعاطف مع العلويين، وقرر لعن معاوية من فوق المنابر ودون منشورا فى هذا الصدد من النسخة التى كان المأمون قد أعدها فى عهده وتضم مطاعن بنى أمية وفضائل أهل البيت ، وكان يود أن يتلى هذا المنشور على الملأ ، إلا أن رجال دولته صرفوه عن عزمه بدعوى خشية ثورة الناس وانتهاز العلويين للفرصة ، لذا فقد حظر المعتضد الاجتماعات فى حلقات الرواة والفتاوى فى المساجد ، وأمر بمنع أى راو أو مفتى من الجلوس بالمساجد ، وكان المعتضد شديد البخل إلا فيما يتصل بالبناء والتشييد وهو ما كان يوليه اهتماما بالغا ، وفى عهده قضى السامانيون على الصفاريين بخراسان ، ونتيجة لذلك وقعت ولايات فارس فى يد الخليفة من جديد ، وخرج المعتضد لغزو الروم مرة ، وفى 22 ربيع الثانى من عام 289 هـ توفى وقيل أنه مات مسموما .

أتى على ابن المعتضد والملقب بالمكتفى بالله من الرقة إلى بغداد وتولى الخلافة، وفى البداية أطلق سراح من كانوا بسجن أبيه مما أدخل السرور على قلوب الناس ، إلا أنه قتل بدرا حاجب أبيه وآلت أمور الدولة إلى غلام يدعى فاتكا والى القاسم والعباس وزبرى الخليفة ، وأمتدت خلافة المكتفى ست سنوات ، وفى عهده هجمت جماعة من فرقة القرامطة على الشام وأنزلوا الهزيمة بعمال الدولة الطولونى بمصر بمعاونة من العرب ، واستولوا على الشام وأعلنوا قيام أول امام فاطمى لهم بها ، فجرد المكتفى جيش إلى الشام ، فانهزم فى البداية على يد القرامطة إلا أنه انتصر عليهم بعد ذلك نتيجة لضغوط الخليفة والقوات المتلاحقة التى ظل يرسلها إلى الميدان ، وتم القبض على إمامهم المعروف بصاحب الشامة مع عدد من رفاقه ، ودخلوا بغداد فى موكب مهيب وتم إعدامهم على الملأ وبصورة مهينة (عام 291 هـ) ، ثم جرد المكتفى جيشا إلى الطولونيين بمصر وكانوا فى ذلك الوقت فى حالة ضعف نتيجة للفوضى والتصدعات

الداخلية ، وفى المعركة سقط الملك الطولونى هارون بن خماروية تتيلا بيد مزراق وهو غلام بربرى ، وانتهيت الأسرة الطولونية فى عام 292 هـ ، إلا أن ثائرا آخر يدعى الخليجى فرض سيطرته على مصر فورا من يد جند الخليفة .

توفى المكتفى فى ذى القعدة من عام 295 هـ ، وتشاور العباس بن الحسن الوزير مع رجال الدولة وقرر تنصيب أخ المكتفى وهو جعفر بن المعتضد الذى كان طفلا فى الثالثة عشرة من عمره فى الخلافة بهدف إطلاق يده فى شئون الدولة ، ولقبه بالمقتدر بالله ، إلا أن الآخرين لم يرضوا بذلك الاختيار وقام عبدالله بن المعتز الشاعر المعروف بحشد أنصاره حوله بدعوى أحقيته فى الخلافة ، وهب جيش بغداد بقيادة حسين بن حمدان القائد العربى لنصرته ، ونصبوه خليفة بلقب المرتضى بالله ، لكن غلمان القصر بزعامة مؤنس الخادم اتخذ جانب المقتدر ومالئ ابن المعتز حتى تم القبض عليه وألقى به فى السجن ولم تدم خلافته أكثر من يوم واحد (20 ربيع الأول من عام 296 هـ) وكان ثمنه حياته ، وعلى أثر هذا النصر أسبغ الخليفة لقب أمير الأمراء على مؤنس وأصبح ذا كلمة نافذة فى الدولة

أعلن حسين بن حمدان والى الموصل تمرده هناك وأرسل الهزيمة براتق قائد الخليفة ، ثم خرج مؤنس بنفسه لقتاله فأسره هو وأسرته وأتى بهم إلى بغداد ، إلا أنه أطلق سراحهم بعد حين إكراما ، لسابق خدماتهم للخلافة ، وفى عهد المقتدر أتى إلى بغداد سفير من قبل الإمبراطور البيزنطى بهدف عقد هدنة مؤقتة الأسرى ، فاستقبل الخليفة ووزيره السفراء بحفاوة بالغة وأرسل الخليفة مؤنس معهم الى بلاد الروم بأموال طائلة لفداء أسرى المسلمين ، وكان تولى منصب وزير فى تلك الأوقات خاضعا للمزايدة ، فكل من يتعهد بالتزامات أكثر كان يصبح وزيرا ، لذا فعالبا ماكانت الشئون المالية عرضة للخلل ، ورغم هذا شهد ذلك العصر وزيرا قديرا لئى العباس هو على بن عيسى الذى كان من « الأبناء » أى من نسل الفرس الأوائل فى عهد الدعوة ، وكان رجلا مقتدرا عالما وحازما ، وفى ذلك الوقت استفحل أمر قرامطة البحرين وتقدموا حتى بلغوا حدود بغداد فجأة وكادوا يفرضون سيطرتهم على العاصمة ، وفى عام 317 هـ ، وفى يوم الترويه أعملوا الخراب والقتل فى مكة وانتزعوا الحجر الأسود ثم أعادوه فيما بعد ، وفى عصر المقتدر أيضا تم شق حسين بن منصور الحلاج الذى قيل إنه ادعى الألوهية والحلول ، وكان

شنته بفتوى من الفقهاء فى عام 309 هـ .

وفى عام 317 هـ قام عدد من القادة من بينهم أبو الهيجاء بن حمدان ومؤنس بخلع المقتدر من الخلافة وتنصيب محمد بن المعتضد بلقب القاهر بالله مكانه ، ولكن بعد يومين وقع الشقاق بين هؤلاء القواد فعاد المقتدر إلى الخلافة، إلا أن مؤنس خشى انتقام الخليفة فذهب إلى الموصل حيث أنزل الهرمة بالحمدانيين وحشد جيشا واتجه إلى بغداد ، وخرج الخليفة بعد أن استشار مساعديه للحرب ، وكان يرتدى رداء النبى (ﷺ) ويتقدم ركبه الفقهاء وقراء القرآن وفى أيديهم المصاحف مفتوحة ، ولكن عند أول مواجهة مع العدو لاذ أصحاب الخليفة بالفرار ، وأراد الخليفة أن يعود أدراجه لولا أن فاحأ الغلمان البربر وقتلوه وصلبوا رأسه مكبرين لاعنين (شوال 320 هـ) ، وكان فى الثامنة والثلاثين واستمرت خلافته خمسة وعشرين عاما .

تولى الخلافة بعد المقتدر محمد بن المعتضد بلقب القاهر بالله وكان شابا سفاكا للدماء وذا بطش شديد ، كما كان هوائيا يسعى وراء هواه ، يقول المسعودى انه كان دائما مسلحا بحربة كبيرة كان يضعها على الأرض أمامه أينما جلس ويهاجم معارضية بها ، وبهذا أمكن له قمع المشاعيين وإخماد الثورات⁽¹⁾ ، ومن أهم ما فعله القاهر هو أن ألقى القبض على أمير الأمراء مؤنس وعدد آخر من القادة الترك بالحيلة وقتلهم، وقام بمصادرة الأموال التى كانت والدته المقتدر وأقرباؤه قد جمعوها فى عهده، تتدخلهم فى شئون الدولة، كما بدأ ابن مقلته الوزير المعزول فى التحريض ضد القاهر وخاصة سيما رئيس الغلمان الساحيين (سنة إلى ابن أبى الساج أحد القواد) وأحرر مسجده على إرهابه من الخليفة، وفى النهاية انتهز سيما وغلمانه فرصة نوم الخليفة واتقضوا عليه وألقوا به فى السجن (فى حمادى الأولى عام 322 هـ) ومات فى سجنه، ودامت خلافته عاما ونصف العام.

بعد القاهر أعطى أحمد بن المقتدر لقب الراضى بالله وتم تنصيبه خليفة ، وكان الراضى أدبيا وعالما عالى القدر ومتعمقا فى الفلسفة والموضوعات الدينية ، وقد قام المحايلة فى عصره بثورة باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكانوا يقتحمون

(1) مروج الذهب ، ج 2، ص 364.

الديار وشاعت الفوضى ، وفى سبيل قمعهم قام الراضى بتعيين عمال وأصدر منشورات تجرم مافعله الخنايلة وترد على مزاعمهم ، وفى عصره أيضا تم شتى محمد بن على الشلمغاني الذى يقال انه كان يعتنق عقائد يشوبها الكفر واحترقت جثته ⁽¹⁾ وأسند الراضى مهام وزارته فى البداية لابن مقله ، إلا أن مسألة تحصيل الضرائب كانت تعترضها المصاعب نظرا لعدم وجود القوة الكافية ، فأضطر الخليفة إلى الاستعانة بمحمد ابن رائق والى واسط وعينه أميرا للأمرء ، وأمر بذكر اسمه فى خطبة الجمعة ، وأسندت إليه المهام المالية، وبهذا فقدت الوزارة معناها ، وأخذ ابن رائق وكاتبه يجمعان وينفقان مايشاءان ، وتحدث ابن مقله إلى الخليفة فى شأن ابن رائق ، إلا أن الخليفة ألقى القبض عليه ، وظل ينتقد ابن رائق فى سجنه مما دعى الخليفة إلى الأمر ببتن لسانه ويديه ، وتوفى فى سجنه بعد محنة أليمة ، ولكن تقوضت دولة ابن رائق أيضا حيث نال تركى آخر يسمى بحكم لقب أمير الأمرء من الخليفة ، وتوفى الراضى بعد ست سنوات وعشرة أشهر فى الخلافة على أثر مرضه بالاستسقاء فى ربيع الأول عام 329 هـ .

أجرى بحكم مشاورات مع أعيان دار الخلافة ونصب ابراهيم بن المقتدر فى الخلافة بلقب المتقى بالله ، ولكن لم يعد باقيا من الخلافة والوزارة سوى الاسم ، ومن فرط ضعف الجهاز الحاكم أحد كل أمير يدعى لنفسه إمارة الأمرء . وحدث أن لقي بحكم مصرعه يوما فى أثناء صيده بنهر حور بأيدى الأكراد فى عام 339 هـ ، وفى تلك الآونة كان أمرء آل بويه قد ازداد نفوذهم فى جنوب فارس وأخذوا يتهددون خوزستان ، وفى البصرة أيضا ادعى أبو عبدالله البريدى عامل الدولة الاستقلال وذهب لزيارة الخليفة وحصل منه على أموال طائلة بدعوى بركات الجيش وردع البويهيين ومضى دون أن يعطى الجيش شيئا ، وبعد مصرع بحكم ولى الخليفة كورتجين الديلمى أميرا للأمرء ، ومالبت محمد بن رائق أن عاد من الشام إلى بغداد ، فتولى إمارة الأمرء من جديد وسرعان ماقتل، وفى هذه المرة استعان الخليفة بآل حمدان الدين كانت لهم فى الموصل شبه دولة ، فأنعم على ناصر الدولة الحمداني بلقب أمير الأمرء وعلى أخيه على بلقب سيف الدولة إلا أن الترك أعلوا الثورة ، فلاذ ناصر الدولة بالفرار إلى الموصل بينما ذهب أخوه سيف الدولة إلى حلب حيث قام بتأسيس الدولة الحمدانية التى اشتهرت فيما بعد برعايتها للأدب فى

(1) أبو النداء ، ح 2 أصل ، 80 كانت شلمعان قرية فى بواحي واسط

التاريخ (1) ، ونتيجة لشدة الترك تولى شخص يدعى توزون إمارة الأمراء وكان لا يزال في واسط ، وكان الخليفة يهرب جانب توزون فلاذ الموصل لدى ابن حمدان ومن هناك مضى إلى الرقة حيث أخذ يرأسل توزون ويطلب منه الصلح ، وبعد أن أقسم توزون على الولاء تحرك الخليفة نحو بغداد ، وفي الطريق أرسل الخليفة رسولا آخر إلى توزون يستحلفه على الولاء ، وبالقرب من بغداد خرج توزون بدعوى استقبال الخليفة ولكنه ألقى القبض عليه وعلى وزرائه ومراقبيه ، ثم قام بسمل عيني الخليفة ونصب ولده عبدالله مكانه في الخلافة ولقبه بالمستكفي بالله (عام 333 هـ) .

ولكن سطوة توزون لم تدم طويلا ، فقد توفي في العام التالي مريضا بالشلل ، وشغل منصبه من بعده كاتب يدعى محمد بن شيرزاد ، ولم يدم في منصبه طويلا حيث وصل إلى بغداد أحمد الأمير البويهى الذى كان قد فرغ حيثئذ من أمر خورستان والمناطق المجاورة لها ، ودخل دار الخلافة دون مقاومة في عام 334 هـ ليبدأ فصل جديد في حياة الخلافة .

الخلافة فى أيدي آل بويه :

في زحمة الحروب التى خاضها آل سامان الخراسانيون مع أمراء مازندران بهدف فرض السيطرة ظهر رجل يدعى بويه ويكنى بأبى شجاع ، وكان مرتزقا يعيش على الحرب في عدد من رفاقة من الوبالة ، وكان له ثلاثة أبناء على وحسن وأحمد ، وقد أفادوا من الظروف في الكرج (منطقة بين همدان واصفهان) فأسسوا حكومة لهم ثم استولوا على فارس ، وفي عهد خلافة الراضى بالله انتزعوا خوزستان والبصرة من قبضة أبناء البريدى أبى عبدالله وأخويه وأصبحت دولة آل بويه حديثة النشأة تجاور خلافة بغداد مباشرة ، وكانت الخطورة الطبيعية التالية دخول بغداد والاستيلاء على السلطة التى كانت متداولة بها بين أيدي الكثيرين ، فقرر أحمد بن بويه وأخواه في عام 334 هـ دخول بغداد بجيش من الديالة ، وبهذا استقرت سلطة الخلافة في يد أسرة فارسية شيعية .

لدى وصول الأمير البويهى توارى الخليفة وابن شيرزاد في حين انسحب الترك باتجاه

(1) وردت مدائح سيف الدولة في أشعار المتنبي وورد ذكر شعراء البلاط الحمداني في بتهمة التعاللى وفي مصادر أخرى عديدة .

الموصل ، الا أن المستكنى خرج بعد رحيل الترك وأظهر سروره بمجيء الأمير البويهى ومنحه لقب معز الدولة ، إلا أنه أخذ البيعة لنفسه منه بإيمان مغلظة ومعاهدة أمان لعدد من أقربائه ونعم الشيعة بنفوذ عريض فى ظل سيطرة الديلمة وازدادوا عددا ، وتحولوا شيئا فشيئا إلى مجتمع مستقل له راع خاص يسمى " نقيب " إلا أن آل بويه حافظوا على المظهر العام وأولوا احتراما لمقام الخلافة رعاية منهم للأغلبية السنية بين الناس، لذا فقد طال عمر الخلفاء فى عهد آل بويه مقارنة بالعهد السابق وكانت مدة الخلافة تطول فى الغالب ولكن بصورة إسمية لأكثر .

ولكن كان معز الدولة يفكر فى تغيير الخليفة منذ البداية ، ذلك أنه قد بلغه أن " علم " رئيسة الحرم ⁽¹⁾ التى كانت على علم دقيق ببواطن الخلافة كانت تتآمر على الأمير البويهى ، فقبض معز الدولة على المستكنى واستبدل به الفضل بن المقتدر بلقب المطيع لله فى عام 334 هـ ، وجاء ناصر الدولة الحمدانى مع الترك من الموصل لقتال معز الدولة ، وانضم إليهم ابن شيرزاد من بغداد وقام بتحريض العيارين بالمدينة على الثورة ، ونشبت الحرب بين الفريقين على ضفاف دجلة ، واحتاح المدينة قحط وغلاء شديداً واستمر الخلل الذى دام طوال فترة حكم معز الدولة من ⁽²⁾ لا أن الأمير البويهى تغلب على معارضيه فى تلك الحرب واستقر أمر خلافة المطيع ، وتم تسليم الخليفة المعزول للخليفة الجديد لى بسمل عينيه ويلقى به فى السجن حيث وافته المنية، كما تم سمل عينى قهرمانه ووتر لسانها .

منذ ذلك الحين أصبح أمراء آل بويه هم محور تاريخ الخلافة ، وقد توفى معز الدولة عام 356 هـ وخلفه ابنه بختيار بلقب عز الدولة ، وفى عام 367 هـ جاء إلى بغداد عضد الدولة ملك فارس وهو ابن عم بختيار ، فطرد ابن عمه واستولى على مكانه ، فطلب بختيار الود من أبى تغلب الحمدانى صاحب الموصل واتجه بحيش إلى بغداد قاصدا عضد الدولة ونشب القتال بين ابنى العم عند تكريت ، ووقع بختيار أسيرا وتم

(1) وكانت تسمى قهرمانه ، ويرى صاحب التجارب أنه من المحتمل أن تكون ثمة أسباب أخرى لحقد معز الدولة على الخليفة.

(2) تجارب الأمم ، ج 6 ، ص 95

قتله ، وفر أبو تغلب إلى الشام حيث قتل ، ثم اتجه عضد الدولة إلى الإستيلاء على الرى والمناطق الجبلية من يد أخويه مؤيد الدولة وفخر الدولة ، وصار له ملك عظيم يضم العراق وجزءا هاما من بلاد فارس ، وقام عضد الدولة بإصلاح الدمار الذى أصاب العراق فى أيام الإضطرابات ، فأصلح الأسواق والمساجد وشق القنوات وأعاد بناء الجسور المخرية ، وشمل العلماء والقراء والفقراء بكرمه ، وعمر مدينتى الكوفة وكربلاء ، وشيد المستشفى العضدى ببغداد ، وكان عضد الدولة يولى اهتماما عظيما بالعلوم عامة والعلوم العقلية خاصة ، وظهر فى عهده علماء كبار وكتاب لهم قيمتهم ، وكان عضد الدولة ملكا حكيما وذا همة عالية ، وكان أول من جرد جيشا إلى بلو تشستان وسيطر على البلوتشين .

وتوفى عضد الدولة فى عام 372هـ فى سن السابعة والأربعين ، وخلفه ابنه صمصام الدولة أبو كاليبجار فى بغداد ، إلا أن بقية أجزاء الدولة تفرقت بين أبناء عضد الدولة وأخيه ، وظل صمصام الدولة مايقرب من خمس سنوات فى بغداد كحاكم غير حازم إلى أن أتاه شرف الدولة أبو الموارس من الأهواز وأسره فى عام 377 هـ وبعد فترة سمل عينيه وأرسله إلى سجن فى احدى قلاع فارس .

لكن هذا الانتصار لم يدم بالنسبة لشرف الدولة ، اذ بعد عامين وثمانية أشهر فى الحكم توفى على أثر مرضه بالاستسقاء وخلفه أخوه بهاء الدولة عام 379هـ ، وتولى من بعده ابنه سلطان الدولة ملك العراق فى عام 403 هـ ، وبعد ثمانى سنوات أقدم أخوه مشرف الدولة على ما أقدم عليه عضد الدولة من قبل أى انه أتى من فارس إلى بغداد وعزل أخاه وحل محله فى عام 411هـ ، وبعد وفاته فى عام 416هـ تولى الإمارة أخوه الآخر الملقب بحلال الدولة ، وقد توفى بدوره فى عام 435 وخلفه أحد أبناء عمومته ويدعى أبا كاليبجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة ، وبعد خمس سنوات خلفه ابنه الملقب بالملك الرحيم فى عام 440 هـ وكان آخر ملوك آل بويه فى بغداد والذى قضى عليه السلاجقة ، وهكذا دالت دولة الأسرة البويهية ، كما سئرى فيما بعد .

كانت هذه الحقبة التى استمرت أكثر من مئة عام ، والتى بدأت بسقوط المستكنفى قد عاصرت أربعة خلفاء استعرق حكمهم الطويل هذه المدة ؛ فالمطيع الذى تحدثنا من قبل عن وصوله إلى السلطة قضى تسعة وعشرين عاما وعدة أشهر أصيب بعدها بالشلل وعجز عن

الحراك والكلام فعزله قائده التركي سيكتجين⁽¹⁾ قسراً أو عن طواعية عن الخلافة وتنصب ابنه الطائع لله مكانه (عام 363 هـ) ، وقضى الطائع لله سبعة عشر عاماً وعدة أشهر في الخلافة، ثم غضب عليه بهاء الدولة وجبسه وعزله (عام 381 هـ) ، وتولى الخلافة من بعده القادر بالله أحمد بن اسحق بن المقتدر لمدة واحد وأربعين عاماً وتوفي في سن السادسة والثمانين (عام 422 هـ) ، وخلفه ، بناء على وصيته، ولده الملقب بالقائم بأمر الله وظل في الخلافة لمدة أربعة وأربعين عاماً ، وفي أواسط فترة خلافته زالت أسرة البويهيين .

كان هؤلاء الخلفاء مجرد حكام صوريين براتب تجريه لهم الحكومة ، وكانوا يعيشون على دخل أملاكهم الخاصة ، ولم يكن لهم سلطات سوى إقامة التشریفات الدينية والرسمية والتصديق على الأحكام ، وظل الثوار يتصادمون في الولايات ويعترف الخليفة بمن تكتب له الغلبة منهم ، ويمنح لقب إذا ما قام بإرسال هدية ، ولكن في خلال هذه الفترة وقعت أحداث هامة في أطراف البلاد ، ففي ديار بكر أنشئت دولة مستقلة على يد أحد أمراء الأكراد يدعى باد (في عام 373 هـ) ، وبعد وفاته آلت دولته لأسرة تسمى بنى مروان وهم الذين قضوا على دولة الحمدانيين في الموصل ولم يبق سوى فرع في حلب إلى أن زال هذا الفرع على يد فاطمى مصر . وفي تلك الفترة ، تصدت دولتا آل مروان بالجزيرة وآل حمدان بحلب لغزو الروم بحكم متاخمة الحدود ، وفي تلك الغزوات كان النصر يحالف الروم تارة ويحالف المسلمين تارة أخرى ، وكان الروم هم البادئون بالاعتداء في معظم الأحيان وفي أهوار البطيحة أيضاً أسس رجل يدعى عمران بن شاهين دولة دالت على يد ثائر آخر ودامت إلى حين ، وفي الحلة استقر الملك لأسرة عن عرب أسد وكان أمراؤهم كما تروى الأخبار يعتنقون المذهب الشيعى ، وكانوا ينعمون بحماية آل حمدان لهم ، وكانت هذه الأسرة تسمى آل مزيد وقد زالت على يد السلاجقة ، وفي أواخر عهد آل بويه دالت الدولة الأموية بالأندلس بعدما يقرب من ثلاثة قرون على يد أمراء الدولة ، ووقعت البلاد في يد مملوك الطوائف (عام 416 هـ) ، إلا أن أهم أحداث تلك الحقبة كانت تأسيس الخلافة الفاطمية بمصر وكانت تتمتع بقوة كبيرة وكانت

(1) مجارب الأمم ، ج 6 ، ص 327 هـ .

تتهدد الخلافة العباسية ودعامتها الدينية تهديدا بالغا بما كان لها من جهاز دعائى عظيم، لذا كان من الضرورى أن نفرّد فصلا مستقلا لتاريخ هذه الحقبة .

الفاطميون فى مواجهة العباسيين :

كان يطلق على الخلفاء الفاطميين اسم العبيدين أيضا، ذلك أن أول خليفة لهم كان يدعى عبيد الله ، وكانت تسميتهم بالفاطميين ترجع إلى انتساب هؤلاء الخلفاء لفاطمة الزهراء ، وكان الخلفاء العباسيون يشككون فى نسب هؤلاء الفاطميين وكانوا ينعتونهم بأنهم حفدة ديسان اليهودى مؤسس فرقة الديسانية اليهودية ، وفى عهد القادر بالله أعدوا تقريرا فى هذا الشأن مصدقا عليه من جانب فقهاء بغداد وقضاتها، وكان لهذه الدعاية تأثير بالغ لدى أهل السنة وظل مؤرخو بنى العباس ومن تلاهم أيضا تحت تأثيرها. لذا، نجد اختلافات كبيرة حول نسب الفاطميين فى كتب التاريخ . ومن ناحية أخرى، فقد بدأ هؤلاء القوم أمرهم فى الخفاء ، وكانوا يلقبون أنفسهم قبل الظهور إلى العلن بألقاب لا بأسماء ، فكانوا يطلقون عليهم " النقى " و "التقى " و " الوفى " و "الرضى" ، وحتى عبيد الله كان اسمه الأصلى محمدا كما يروى ، كان شيعة الخلفاء الفاطميين ، ويسمون بالإسماعيلية ، يعتقدون أن الأمامة تتسلسل من الإمام جعفر الصادق إلى ابنه اسماعيل ومنه إلى ابنه محمد، وقد فصلت هذه العقيدة فيما بعد وامتزجت بالفكر الفلسفى والعرفانى وصارت معرضا لجدل واسع .

كانت بداية هذه الدعوة فى أواسط القرن الثالث إبان ظهور القرامطة ، ويرى أن رجلا يسمى عبد الله بن ميمون القداح ذهب من أصفهان إلى خوزستان وظل يدعو الناس سرا إلى المذهب الإسماعيلى ، وبعد وفاته استأنف ابنه مابداه ، فأوفد رجلا يدعى ابن حوشب إلى اليمن لنشر الدعوة وأوفد ابن حوشب بدوره الرسل من اليمن إلى المغرب أى إلى شمال أفريقيا وقبيلة كتامة البربرية . وفى تلك الأثناء ، التقى ابن حوشب برجل عالم ذكى يسمى أبا عبد الله الشيعى فأرسله إلى أفريقيا. فمضى أبو عبد الله إلى مكة حيث تعرف على حجاج قبيلة كتامة وعاد معهم إلى أفريقيا وبدأ فى نشر دعوته ، فالتف

حواله البربر من كل صوب ، فعلى شأنه وبدأ فى فتح البلاد المجاورة .

أقام الإمام الإسماعيلى بسليمة فى الشام ، وعزم المكتفى الخليفة العباسى على القبض عليه ، ففر بن سليمة إلى مصر وعاش مدة فى الفسطاط بجوب الحارات على هيئة تاجر ، وبعد فترة اتجه الإمام إلى أفريقيا ليكون بين أتباعه وليعلن نفسه بعد أن بدأ عامل مصر فى البحث عنه بأمر من الخليفة أو ربما بسبب الإضطرابات التى ألمت بمصر فى أواخر عهد الطولونيين كما يقول أبو الفدا ، وفى مدينة سجلماسه وقع فى أسر بنى المدرار الذين كانوا يحكمون المنطقة وألقى به فى السجن ، إلا أن عبد الله الشيعى كان منهمكا فى الفتح ودانت له ثلاث دول فى أفريقيا واحدة تلو الأخرى ، فاستولى على رقادة من بنى الأغلب وعلى تاهرت من يد آل رستم وأخيرا سجلماسه من يد بنى المدرار ، وهناك أخرج الإمام عبيد الله وابنه من السجن ورافقه بكل الجبور إلى رقادة حيث تم تنصيب عبيدالله خليفة بلقب المهدي⁽¹⁾ ، وبدأت الأسرة الحاكمة (فى عام 297) وكان متكلمو الإسماعيلية يقولون أن النبى (ﷺ) قال : " على رأس ثلاثئة تطلع الشمس من مغربها " وأن المقصود بذلك هو عبيد الله .

قتل عبيدالله أبا عبدالله الشيعى وأخاه عند أول فرصة سنحت له ولنفس السبب الذى قتل به العباسيون أبا مسلم ، ثم بدأ فى تنظيم شئون الدولة والفتوحات ، وكان أمامه طريقان لتجريد الجيش ؛ أحدهما من ناحية الشرق إلى مصر ومنها إلى سائر أقاليم العباسيين ، والطريق الآخر من ناحية الغرب إلى سائر مناطق أفريقيا الشمالية وجزيرة صقلية حيث كان لا يزال ثمة فلول من الفاتحين العرب يفرضون هيمنتهم ، وكان هدفه الأول هو الحملة شرقا والقضاء على العباسيين . لذا ، فقد أرسل المهدي ابنه أبا القاسم وكان آنذاك شابا يافعا فى العشرين من عمره بجيش تدعمه قوة بحرية لفتح مصر ، وتم له الاستيلاء على طرابلس الغرب وبرة والاسكندرية دون مشقة . أما فى الفسطاط

(1) بعد هذا المهدي بالنسبة للإسماعيلية آخر الأئمة المختفين وأول إمام مستقر من خلفاء مصر الفاطميين (من مذكرات اقاى مبنوى) .

فقد صمد تكين التركى للمقاومة بالإمدادات التى أرسلها إليه مؤنس فعاد الجيش الفاطمى يائسا وتكرر الأمر مرة ثانية بعد حين ، فاتجه إلى مصر جيش بنفس الصورة وبنفس القيادة ولقى فى الفسطاط نفس العقبة التى صادفها فى المرة الاولى ، ولكن فى هذه المرة عمد القائد الفاطمى إلى الثبات فى المواجهة وواصل القتال إلى أن أتى أمير الأمراء مؤنس بنفسه من بغداد للدفاع عن مصر ، فعاد الجيش المهاجم مرة أخرى إلى أفريقيا بل وضاعت منه برقة أيضا (فى عام 308 هـ) .

أما فى الغرب فقد در للدولة الفاطمية التوفيق ، وفى جزيرة صقلية ثار الجنود البربر على زعيمهم ابن قرحب (1) الذى استولى على الجزيرة وأطلق على نفسه " مولى الخليفة العباسى " ، فألقوا القبض عليه وأرسلوه إلى المهدي وتم قتله ودخلت جزيرة صقلية تحت سيطرة الخليفة الفاطمى ، وأتخذ المهدي من صقلية مركزا للهجوم البحرى وجرى حملات موسعة بسفنه على سواحل ايطاليا والبحر الأدرىاتى ، وظهر غرب أفريقيا من قلول الأدارسة الذين حكموا هناك لفترة من الزمن ، ثم شيد مدينة المهدية وقلعتها فى القيروان وأتخذ منها عاصمة له .

توفى المهدي فى عام 322 هـ وخلفه ابنه أبو القاسم بلقب القائم بأمر الله ، وجرى حمله على مصر للمرة الثالثة ، فأرسل القائم جيشا بقيادة أحد مواليد ويدعى زيدان إليها ، فاستولى على الإسكندرية ، أما فى الفسطاط فقد واجه مقاومة من الأخشيذ الذى كان والى مصر آنذاك فتراجع عنها ، وعزم القائم على تجريد جيش أكبر إلى مصر لولا أن حدثت فتنة فى الداخل ألهمت الخليفة عن عزمه ، وقام شخص من قبيلة زنانة البربرية يدعى أبا يزيد المخلد بتحريض سكان الجبال بدعوى حماية السنة (فى عام 332 هـ) فاستولى على منطقة تونس وحاصر القائم فى المهدية ، كان أبو يزيد هذا شيخا فى حوالى الستين من عمره وكان يمتطى حمارا عادة ، لذا فقد أطلقوا عليه لقب " الحمار " ، ويذكر الإسماعيلية أنه الدحال الذى ورد ذكره فى أخبار ظهور القائم ، واستمر حصار المهدية عاما كاملا وانتهزت قبيلة كتامة التى كانت تؤيد الخليفة الفاطمى فى إحدى المعارك ، إلا أن شيخ قبيلة صنهاجة مكن الخليفة من الصمود بإمداده بالمؤن داخل القلعة إلى أن تفرق مريدو الشيخ شيئا فشيئا ، إلا أنه تمكن من حشد قوات

(1) قرحب بصم القاف والهاء .

جديدة وواصل القتال، وفي تلك الأثناء توفي القائم (في عام 334هـ) ، فتولى الخلافة ابنه أبو طاهر إسماعيل بلقب المنصور فواصل القتال، وأصيب أبو يزيد في الحرب بجرح مهلك، إلا أن الدولة أصابها الإضطراب وأطل الأدارسة برؤوسهم من حديد وكانوا قد استولوا على مراكش ، واستولى على صقلية عربى من قبيلة كلب ، وتدخل المنصور لقرار الأوضاع إلا أنه توفي فجأة على أثر إصابته ببرد في عام 341 هـ، فخلفه ابنه أبو تميم بن معد بلقب المعز لدين الله .

ظهرت في بدء خلافة المعز عقبة كبرى ، فقد سير الخليفة الأموى عبدالرحمن بالأندلس جيشا في سوس انتقاما للحملات التى شنّها الفاطميون على إقليمه ، ولكن في الوقت نفسه ، ثار النصارى في الأندلس واضطر الجيش الأموى إلى العودة ، وحينئذ قام القائد المعزى جوهر وكان غلاما يونانيا محررا (مولى) بتهدئة المغرب بجيوش كتامة وصنهاجة ، ودخلت مراكش مرة أخرى تحت سيطرة الخليفة (في عام 347هـ) ، ثم ساورت المعز فكرة تنفيذ السياسة الفاطمية القديمة أى فتح مصر .

كانت الأوضاع في مصر قد تغيرت في ذلك الوقت، فقد توفي كادور الأخشيدي ووقعت البلاد فريسة للفوضى والقطط ، وجاء يعقوب بن كلس الذى كان يدير شئون البلاد من قبل العباسيين إلى المعز بسبب الصغينة التى كان يحملها على ابن الفرات وزير بغداد وأوضح له الوضع المضطرب في مصر ، فاتجه جوهر إلى مصر في عام 358 هـ ، فخرج قادة مصر إلى برقة لاستقباله وإطهار الولاء له ، وهب الأخشيديون للمقاومة في الجيزة إلا أنهم هزموا بسهولة ودخل جوهر الفسطاط واتخذ من المنطقة التى صارت فيما بعد مدينة القاهرة عاصمة مصر معسكرا لجيشه .

وبعد مصر جاء الدور على الشام ، كان جنوب الشام خاضعا لسيادة ابن أخى الأخشيد حسن بن عبدالله ، فأنزل القائد الفاطمى الهزيمة بحعفر بن فلاح قائد قوات حسن في الرملة ، وفي العام التالى استولى على دمشق في عام 359 هـ ، وفي شمال الشام كانت حمص تحت سيطرة سيف الدولة الحمدانى وأنطاكية في يد الروم وكانا في حالة صراع مستمر، لذا فقد أحجم القائد الفاطمى عن مهاجمة تلك المنطقة إلى جانب المشكلة التى أثارها القرامطة ، كان القرامطة يحصلون على رواتب من حسن الأخشيدي عامل

دمشق ، وبالفتح الفاطمي وزوال حسن ضاعت منهم هذه الإتاوة أيضا من ثم فقد هبوا لمعارضة الفاطميين وتصالحوها مع خليفة بغداد ، وحصلوا منه على المال والعون وهاجموا دمشق ، فقتل جعفر بن فلاح وكان لا يولى أية أهمية لهذه الحركة ، وبعد دمشق استولى القرامطة على الرملة ومنها شنوا حملة على مصر مع جماعة من الأخشيديين، وفي المعركة الأولى انتصروا على جوهر والبربر ، أما في النهاية فقد انهزموا وعادوا إلى الشام .

في تلك الأثناء ، كان الخليفة الفاطمي قد قام بنقل عاصمته من المهديّة إلى القاهرة، وترك ممتلكاته الأفريقية التي كانت تفصلها عن العاصمة الجديدة صحارى شاسعة لبلجين ابن زيري البربري زعيم قبيلة صنهاجة وكان رجلا سياسيا حكيما ، ثم قام بنوه فيما بعد بتأسيس أسرة ملكية مستقلة باسم بني زيري .

ودخل المعز القاهرة دون قتال أو صراع وجلس على العرش بمراسم الحفاوة ، وعاد القرامطة من حديد من الشام إلى مصر ، فقدم المعز رشوة إلى زعيم الأعراب الذين ساندوا القرامطة ، فانهزم القرامطة وعادوا لتوهم إلى الشام ، وتوفي المعز في القاهرة في عام 365 هـ في سن السادسة والأربعين ، وكان رجلا فاضلا وحكيما وسياسيا داهية، وكان رفيقا بأهل المذاهب الأخرى رغم تشيعه وكان يسمح للأقطاب بإعادة تعمير كنائسهم المهتمة ، بل وكان يسمح لكبير نصارى مصر بالتناظر الديني مع فقهاء المسلمين .

وجلس على العرش بعد المعز ابنه نزار الملقب بالعزيز وواصل سياسات أبيه ، وفي جنوب الشام علا شأن أحد قادة بختيار البويهى ويدعى أنتكين فأرسل العزيز جوهر لردعه، فحصل أنتكين على إمدادات من القرامطة وحاصر جوهر في قلعة عسقلان، فذهب الخليفة بنفسه إلى الشام مما أدى إلى هزيمة الحلفاء في الرملة وتم القبض على أنتكين بالحيلة فأدعن القرامطة وارتضوا بدفع إتاوة ومن هنا بدأ التدهور يدب في أوصالهم، وبعد فاصل زمني قصير استولى على مكة أحد العلويين بلقب " الشريف " ، وثار البدو على القرامطة بعد أن كانوا يديون لهم بالطاعة (في عام 378 هـ) وأنزلوا بهم هزيمة فاحشة، ومنذ ذلك الحين اقتصر نطاق القرامطة على الاحساء ، وقد زالوا تماما بعد عام 429 هـ ، وبهذا آل جنوب الشام إلى الفاطميين ، وفي حلب قام أحد الترك ويدعى أبوشكين بالقضاء على المرداسيين وآل له الأمر هناك .

كان العزيز قد ترك إدارة الدولة لوزيره يعقوب بن كلس اليهودي ، وتوفى فى عام 380 هـ ، وبعد ست سنوات (وفى عام 386 هـ) تولى مكانه ابنه المنصور الملقب بالحاكم بأمر الله ، وكان يصدر أحكاما غريبة ومتناقضة وكان يتبع سبيل الشدة فى إجبار الناس على تنفيذها ، وكان يجول بالمدينة بين الناس للإشراف على تنفيذ أوامره ، وذات مرة أمر بفتح الدكاكين والأسواق ليلا وإغلاقها نهارا ، وبعد فترة أصدر أمرا بعكس ذلك وأمر بالأيخرج الناس من بيوتهم بعد الغروب ، وأمر النساء بعدم الخروج من بيوتهن ، ولتنفيذ هذا الأمر ، قرر ألايقوم الإسكافية بصنع أى حذاء نسائي ، وكان فى بداية حكمه يتعقب اليهود والنصارى ويخرب معابدهم ويلزمهم بارتداء ملابس تميزهم عن غيرهم ، وهو الحكم الذى كان عمر بن الخطاب قد أصدره فى عهده ، وأكد الحاكم بأمر الله على هذا الأمر وألزمهم بوضع خلخال فى أرجلهم فى الحمامات ، وبعد فترة أصدر أمرا بحرية العقيدة بل وأحاز الإرتداد ، وقد اعتنق هو نفسه بمذهب السنة لفترة من الزمن ثم عاد بعد فترة أخرى إلى مذهبه الإسماعيلي واعتبر نفسه أحد آخر الناطقين السبعة فى العقيدة الإسماعيلية .

وشاع السخط عليه بين أهل السنة ، فجاأ إلى برقة أمير أموى يدعى أبا ركة كان قد تم طرده من بلاط خليفة الأندلس والتف حوله جمع من العرب والبربر ، ووصل إلى روانة القاهرة ، وجاء جيش من الشام لدعم الخليفة ، ونجت العاصمة من الخطر ، وألقى القبض عليه وتم إعدامه ، وكان الحرس الخاص للخليفة من الأفارقة السود مما أدى إلى قيام الثورة والعصيان من آن لآخر بين الحنود الترك والبربر .

وفى عام 395 هـ أسس مدرسة لتعليم المذهب الإسماعيلي وإعداد الدعاة باسم " دار العلم " ، وكان الخليفة قد قرر أن يجعل هذا المذهب مذهبا رسميا لمصر ، وقام أحد الدعاة من أصل تركى ويدعى درزى (بالفتح) ذات يوم فى المسجد ، وتلا رسالة على الناس فحواها أن روح آدم قد حلت بحسد على سبب أى طالب وسرت من بعده فى نسل الفاطميين وأنها قد حلت آنذاك فى حسد الحاكم بأمر الله ، فثار الناس لدى سماع ذلك ففر درزى إلى الشام بإشارة من الحاكم بأمر الله ووحد تلامذة له فى لبنان حيث لايزال سلهم يعرف حتى اليوم بالدور ، وهم لايزالون يرون فى الحاكم بأمر الله مظهرا للتحسد الإلهى ، وسعى الحاكم بأمر الله مرة أخرى لإقناع الناس بالألوهية أو بكونه مظهرا لها

دون جدوى ، واضطر حمزة الفارسي الذي تولى مهمة إبلاغ الناس إلى الفرار على أثر ثورة الناس عليه، وانضم إلى الدرزي ولايزال الدرزي يقدسونه اسمه حتى اليوم وينزلون كلماته منزلة القداسة .

وفى عام 411 هـ وفى فجر أحد الأيام خرج الحاكم بأمر الله راكبا حماره كالمعتاد إلى جبل المقطم واختفى بصورة غامضة ، ويحتمل أن يكون قد قتل ، وفى ذلك كان ابنه على الملقب بالظاهر لايزال صبيا فى السادسة عشرة فتولت الحكم ابنة الحاكم وتسمى ست الملك وأمرت ست الملك بقتل عدد من قادة الجيش كانوا يشيرون الفتن وأقرت الأوضاع وتوفيت بعد أربعة أعوام فى الحكم (عام 415 هـ) ، فتولى الظاهر الحكم إلى أن توفى بالطاعون فى عام 425 هـ ، فخلعه ابنه ذات السبعة أعوام أبو تميم معد بلقب المنتصر بالله .

أمضى المستنصر فى الخلافة ستين عاما، وهى مدة تعد على حد قول السيوطى أطول فترة حكم شهدتها الإسلام⁽¹⁾ . كان المستنصر بالله ابن أمة سوداء فأكثر من تعداد السود فى جيشه إلى أن بلغوا خمسين ألفا وأدت ثورة غلمان الترك ودسائس رجال البلاط إلى حدوث خلل فى شئون الدولة ، وكانت ثورتهم بتحريض من جرجرائى وزير أهل دمشق إلا أن المستنصر انتصر عليهم ، وفى أفريقيا الشمال استقل المعز بن باديس من أسرة زيرى (فى عام 440 هـ) فخرجت العرب من تحت إمرة الخليفة الفاطمى وكان المستنصر يخذ ثورة غلمان الترك المال لفترة وعندما نفذ المال توسل بأحد الأمراء الحمدانيين ويسمى ناصر الدولة (وهو غير ناصر الدولة الحمدانى الأول) ونصبه وزيرا له فى عام 454 هـ وانتصر الترك مرة أخرى وأضرموا النار فى قصر الخليفة بمكتبته النفيسة وقتلوا ناصر الدولة وعينوا تركيا يسمى ايلدجر مكانه فى عام 465 هـ ، بل وتليت الخطبة باسم خليفة بغداد القائم بأمر الله فى بعض المدن ، وفى سبيل سحق الترك استعان المستنصر بأحد الأرمن ويدعى بدر الحمالى وعدد من الجنود الأرمن (فى عام 466) ، فقتل قادة الترك وازدادت قوته باعتباره " مرحوش " (أمير الجيوش) وتمكن من تهدئة الأوضاع فى البلاد

انتشرت الدعاية الإسماعيلية فى البلاد الإسلامية فى خلافة المستنصر الطويلة ، فأشأ

(1) حسن المعاصرة ، ج 2 ، ص 14

داعيته حسن الصباح جهازا هاما في فارس كما ورد بصورة تفصيلية في تاريخ فارس وكان ناصر خسرو الشاعر المعروف من دعاة المستنصر، وكان حائزا على لقب " حجة "، وظل ينشر دعوته في خراسان وماوراء النهر، وكانت الدعوة الإسماعيلية قائمة في خراسان على ما يبدو منذ أوائل سنوات ظهورها أي منذ أيام عبدالله بن ميمون، وكانت قصة اعتناق الملك الساماني للقرمطية كما ورد في كتاب سياست نامه تتصل هذه الدعوة، وفي عهد المستنصر وصل اسم الخليفة الفاطمي إلى المناهر في بغداد ذات مرة في خضم الاضطرابات، كما سرى فيما بعد. لكن ظهور السلاجقة كان بمثابة طوق النجاة للخلافة بعدد.

توفي المستنصر في عام 487 هـ، وقام أمير الجيوش الأرمني شاهنشاه بن بدر الجمالي بتنصيب أحد أبناء المستنصر وهو أحمد الملقب بالمستعلي بالله خليفة فأنعم عليه الخليفة الجديد بلقب الملك الأفضل، وفي عهد المستعلي استقل إسماعيلية فارس عن نظرائهم في مصر لأنهم كانوا يرون أنه بعد المستنصر كان ابنه الأكبر أحق بالخلافة، وأراد المستعلي بعد جلوسه في الخلافة أن يقتل نزارا، فلاذ الأخير بالفرار، وقيل إيه وقع في يد المستعلي فأودعه السجن، وكان أنصار المستعلي يزعمون أن المستنصر نفسه كان قد عزل نزار من ولاية العهد، أما النزارية فيدعون أن الاعتبار للنص الأول.

وفي تلك الآونة بدأت الحملات الصليبية، فأخذ أصحاب الصليب الذين احتشدوا من مختلف أنحاء أوروبا في الهجوم على الأراضي الإسلامية بدعوى الجهاد، فلم يول المسلمون اعتبارا لذلك في بادئ الأمر، فكان أمير الجيوش في مصر منهمكا بالصراع ضد السلاجقة بهدف الحيلولة دون اتساع نطاقهم، وفي عام 1491 هـ استعاد بيت المقدس من السلاجقة، ولكن بعد عام واحد وقع بيت المقدس تحت حصار الصليبيين.

بعد المستعلي تولى الخلافة ابنه المنصور الملقب بالأمر بأحكام الله (في عام 495 هـ) وفي عام 515 هـ أمر بقتل أمير الجيوش الذي كان قد أصبح مطلق اليد في شئون الدولة وفي رواية أن النزارية هم الذين قتلوه، على أية حال فقد كان مقتل هذا القائد المحنك ضررا للبلاد، فقد تم القضاء على الأمر نفسه بضربة خنجر على يد الفدائيين النزاريين في عام 524 هـ، وعندما توفي الخليفة لم يكن له أبناء من الذكور فقام أركان الدولة

بتنصيب رجل يدعى أبا ميمون عبدالمجيد كان من فرع آخر من الأسرة فى منصب خليفة ولقب بالحافظ لدين الله، وتوفى الحافظ بعد عشرين عاما من الخلافة فى ظروف مضطربة مبعثها نشاط النزاريين (فى عام 544 هـ)، وخلفه ابنه ذو السبعة عشر عاما ويسمى إسماعيل الظافر بالله، وتولى إدارة شئون البلاد كردى سنى يدعى ابن سالار (سالار) رئيس ديوان الخليفة ، وتم اغتيال ابن سالار ذات ليلة فى فراشه بتحريض من أحد الأمراء ، وبعد فترة لقى الخليفة أيضا حتفه اغتيالا فى عام 549 هـ، وتولى الخلافة من بعده ابنه عيسى الملقب بالفائز وكان لا يزال طفلا فى الثالثة من عمره ، وتوفى بعد ست سنوات فقط وطوال هذه الفترة كانت شئون الدولة فى يد أمير شعبى المذهب يسمى طلائع بن زريك، وبعد الفائز تولى الخلافة عبدالله الملقب بالعاضد حفيد الحافظ ، وفى تلك الأوقات امتد نفوذ أتابكة آقسنقر وكانوا فرعا من السلاجقة من الموصل إلى الشام ، ونظرا لتصديهم لحرب الصليبيين فقد كانت تحت أيديهم قوات هائلة ، وفى هذه الظروف علا شأن أسرة كردية تدعى أولاد شادى وبهذا أصبح للدولة الفاطمية الضعيفة جار قوى على درجة من الخطورة ، وصار البلاط الفاطمى مسرحا للصراع بين أميرين هما شاور وضرغام على الوزارة ، فتوسل شاور بالدولة الجارة ووعدا بخراج سنوى ، ولما كان الملك الآقسنقرى على دراية بضعف مصر وكان فى انتظار ذلك اليوم فقد أرسل جيشا إلى مصر بقيادة قائده الكردى شيركوه بن شادى فتم تنصيب شاور فى منصب الوزارة ، وعاد الجيش فى انتظار الوعد بالمال ، إلا أن شاور خلف وعده، فجاء شيركوه إلى مصر يطالب بالوفاء بالوعد ، واستولى على الإسكندرية فاستنجد شاور بالفرنجية الصليبيين على وعد بالمال، فقاموا بمحاصرة شيركوه بالإسكندرية وانتهى الأمر بالمصالحة ، وعاد شيركوه إلى الشام بعد حصوله على المال ، ثم وقع الصدام بين شاور والفرنجية وبلغ الصراع درجة الحرب واضرام النيران فى المدينة المصرية القديمة ، ثم لوح لهم شاور بالمال فتراجعوا ، إلا أن الملك الآقسنقرى انتهز هذه الفرصة أو استنجد الناس والخليفة به. على أية حال ، فقد أرسل إلى مصر شيركوه مرة أخرى على رأس جيش ضخم كامل الإعداد واستقبله الخليفة استقبالا كريما وفوض إليه وزارته، وبعد عدة أيام ألقى الأكراد القبض على شاور ولم يلبث شيركوه حتى وافته المبة ، فاستوزر الخليفة ابن أخيه صلاح الدين بن يوسف مكانه ، فثار حراس الخليفة الأفارقة على صلاح الدين فأبادهم وأمر بتحديد إقامة

الخليفة فى القصر أى حسه فى حقيقة الأمر ، ثم خلعه بعد قليل وأعلن تنصيب المستضيئ بالله الخليفة العباسى ، وفى نفس تلك الآونة توفى العاضد وانقضت أسرة الخلافة الفاطمية بوفاته (عام 567 هـ) ، كان صلاح الدين سنيا متعصبا وكان يرى الصلاح فى الوفاق مع العقيدة السائدة ومذهب الخليفة العباسى ، واتبع صلاح الدين سياستين رئيسيتين : نشر مذهب السنة وتعقب الرافضة فى الداخل ومحاربة الصليبيين فى الخارج. لذا ، فقد نال صلاح الدين شعبية لدى العامة والسنة ، ولا يزالون يولونه قدرا كبيرا من الاحترام ، وكان صلاح الدين هو مؤسس الأسرة الأيوبية التى حكمت مصر والشام لفترة من الوقت .

الخلافة فى عهد السلاجقة :

فى غمرة الصراع بين الخلافتين المصرية والبغدادية وفى العقود المبكرة من القرن الخامس كانت ثمة جماعة من التركمان يحويون صحارى ماوراء النهر، وانتهزت هذه الجماعة ضعف الغزنويين وتدفقوا على خراسان وأنزلوا الهزيمة بالسلطان الغزنوى فى عام 431 هـ، وأسسوا دولة قوية فى خراسان باسم السلاجقة، ثم امتد نفوذهم إلى كل أنحاء أراضى الخلافة، وكان ظهور السلاجقة بالنسبة لخليفة بغداد نعمة غير مرتقبة، إذ كان السلاجقة من السنة الأصوليين ونشأوا على المذهب الحنفى فى تركستان ، وكانوا يتمسكون به تمسكا شديدا وفى عام 447 هـ دخل بغداد طغرل بك الأمير السلجوقي وألقى القبض على آخر أمراء آل بويه الملك عبدالرحيم وسجنه فى قلعة تترك حيث توفى فى العام التالى، فخلع الخليفة على طغرل وأمر بذكر اسمه فى الخطبة وزوجه ابنة أخيه داود، وفى تلك الآونة احتشد أهل السنة فى بغداد بدعوى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهاجموا دارالبساسيرى التركى غلام آل البويه، وأضرمو النيران فيه بإذن من الخليفة (القائم) وفر الساسيرى فنشبت الفتنة بين الشافعية والحنابلة حول مسألة الجهر بالبسملة ودعاء صلاة الصبح والترجيع فى الأذان⁽¹⁾ وهو ما أجازته الشافعية وأنكره الحنابلة.

بقى طغرل فى بغداد ثلاثة عشر شهرا لم يلتق خلالها بالخليفة أبدا، وهو أمر يكتنفه الغموض، وثار الناس فى الأسواق على تعديت التركمان ، مما دعا طغرل إلى نزع

(1) الترجيع فى الأذان هو التشهد بصوت حفيص أولا ثم تكراره بصوت هبير .

أسلحتهم ، ثم خرج طغرل من بغداد لفتح ديار بكر وترك وزيره عبدالملك بها ، وفى تلك الحملة استولى طغرل على الموصل من يد آل مروان وسلمها لأخيه ابراهيم ينال ، وعاد هو إلى بغداد ، ولكن فى هذه المرة ذهب للقاء الخليفة بكل خشوع وخضوع ، وجلس الخليفة بخلعته الرسمية على عرشه العالى فى استقباله ، وكان ذلك فى عام 449 هـ ، وفى العام التالى تعدى ابراهيم ينال على طغرل وأسره بالخروج من الموصل متجها إلى همدان ، ومضى طغرل بطارده نحو همدان ، وهناك نشبت الحرب بين الأخوين (عام 450 هـ) وفى أثناء غيابه أتى بساسيرى إلى بغداد بعون من قریش بن بدران أمير الموصل العقيلي السابق ، وتلى الخطبة فى المسجد باسم المستنصر الفاطمى مما أثار ثورة الناس ، ودام النزاع بين الطرفين مدة أسبوع إلى أن استولى بساسيرى على قصر الخليفة ، إلا أن الخليفة استنجد بقریش بن بدران وذكره بحرمة النبى والحمية العربية ، فبسط قریش حمايته على الخليفة دون التشاور مع بساسيرى وعلى خلاف الاتفاق بينهما ، وأخذه معه إلى معسكره ومعه برده (1) وعصاه ولواؤه ، وقبض بساسيرى على رئيس الرؤساء وزير الخليفة الذى كان قد حرص على إضرام النار فى داره من قبل وقتله وفرض سيطرته على بغداد باسم الخليفة الفاطمى ، وأمسك بزمام الحكم برفق تام ودون إظهار أى تعصب مذهبي (عام 450 هـ) ، إلا أن المستنصر ظل مدة لا يرد على رسائله اليه ، وعندما أرسل إليه ردا كان على خلاف ماتوقعه بساسيرى ، وكان سبب ذلك أن وزير المستنصر لم يكن على وفاق مع بساسيرى .

وفى العام التالى (451 هـ) ذهب طغرل إلى بغداد لنجدة الخليفة بعد أن فرغ من أمراخيه ابراهيم ينال واستراح منه بالقتل ، فقتل بساسيرى وسبى نساءه وبنيه وأجلس الخليفة على العرش بكل إجلال ، وبهذا أنقذ الخلافة للمقدسة مرة أخرى من شر الأعداء وعاش مدة طويلة ينعم يحب الناس الذين أحبوه أو أفادوا منه .

فى تلك الفترة لم يكن قد بقى من الخلافة سوى الاسم فقط كما كان الأمر فى زمان الديلمة والغلمان الترك ، فانتشر السلاحة فى أنحاء البلاد الإسلامية ، وأنشأوا لهم فروعاً وشعباً واستولى حيش ملكشاه بقيادة اتسز على بيت المقدس واستولى على دمشق فى عام 469 هـ ومدت شعبة أخرى نفوذها فى آسيا الصغرى ، ثم فرضوا سيطرتهم

(1) وهى رداء رعموا أنهم ورثوه عن النبى (ﷺ) وكأوا يرتدوها فى المراسم

عليها من يد الروم بصورة حاسمة ، بينما ظل العرب يحاولون ذلك لعدة قرون دون جدوى ، وتعرف هذه الشعبة في التاريخ باسم سلاجقة الروم، وكانت عاصمتهم قونية وسيواس، وبعد زوال هذه الأسرة في عهد المغول قام أحد خدام هذه الأسرة بتأسيس أسرة الملوك العثمانيين التي قريت شوكتها فيما بعد وفتحت على يدها مدينة القسطنطينية عاصمة بيزنطة الشهيرة التي وقف الأباطرة الروم يدافعون عنها ضد العرب قرونا طويلة.

وفي فارس كانت القوة الوحيدة التي صمدت في مواجهة السلاجقة والعباسيين هي فرقة الملاحدة أي الإسماعيلية النزارية أتباع حسن الصباح ، اتخذت هذه القوة مكانها في القلاع الحصينة بالجبال ، وظلوا يقاتلون معارضيهم عن طريق الفدائيين ، وقد قتلوا خليفة وملكا وكان السلاجقة يحاولون ردعهم دون جدوى إلى أن قام بهذه المهمة المغول ، ونعود الآن إلى تاريخ الخلافة .

توفي القائم في عام 467 هـ، فأخذت البيعة لجنين في أحشاء أمه قبل مولده بستة أشهر ولقبوه بالمقتدى بأمر الله ،وتولى الخلافة من بعده المستظهر في عام 487 هـ، وخلفه بعد وفاته المسترشد في عام 512 هـ، وفي عهده توفي ملكشاه الثاني الملك السلجوقي وبدأ الصراع بين الملكين السلجوقيين في العراق وخراسان مسعود وسنجر ، وفي غمار القلاقل التي شهدتها البلاد دعم المسترشد قوته إلى حد ما، وكان رجلا عالي الهمة، وتولى زمام الأمور ثم ذهب إلى آذربيجان عازما على سحق مسعود السلجوقي الذي كان يعتبر نفسه الخليفة وصاحب الأمر في العراق ، ونشب القتال على مشارف مراغه ، وانضمت ميسرة الخليفة إلى صفوف العدو ولاذ باقي الجيش بالفرار بعد قتال يسير ، وتم أسر الخليفة الذي ظل صامدا في مكانه فأنزلوه بكل احترام في خيمة خاصة وتقرر إطلاق سراحه على إتاوة سنوية يدفعها، ولكن في أحد الأيام تجمع عدد من الناس قيل إنهم من الملاحدة على الخليفة ، وقتلوه وظل جثمانه طريحا إلى أن دفنه أهالي مراغه (عام 529هـ) .

وبعد وفاة المسترشد تولى الخلافة ابنه المنصور بلقب الراشد بالله، وكان والده قد نصبه وليا للعهد في حياته، وصدق على ذلك رئيس شرطة بغداد المعين من قبل مسعود، وظل مسعود بطالب الراشد بالإتاوة التي تعهد بها المسترشد، فامتنع الخليفة وفي ذلك الوقت

أتى إلى بغداد داود السلجوقي خصم مسعود ومعه زنكى أمير الموصل، وحشا الخليفة على مناوئة مسعود الى أن أمر بحذف اسم مسعود من الخطبة ، فحاصر مسعود بغداد ، وفر الخليفة ورفاقه إلى الموصل ومنها إلى همدان لدى داود ، وفى بغداد تمكن مسعود من خلع الراشد عن طريق بند فى معاهدة كانت بين يديه وتتصدق من الفقهاء ، ونصب عمه محمد بن المستظهر بلقب المقتنى لأمر الله خليفة فى عام ، وخرج لقتال الراشد وداود ، فأنزل الهزيمة بجيش داود قرب اصفهان ، فى حين قتل الراشد وهو فى طريق فراره على يد عدد من خدمه الخراسانيين ، وفى رواية على يد المخربين الملاحدة ، وتم دفنه فى أصفهان عام 531 .

وفى عهد المقتنى توفى مسعود فى همدان وحل محله ابن أخيه محمد ، وفى تلك الآونة كان التدهور قد بدأ يدب فى أوصال الدولة السلجوقية ، فتدفق الغز على خراسان ، وبالقبض على سنجر تم القضاء على الفرع الخراسانى من السلاجقة ، وتقدموا إلى جرجان إلا أن أتابكة آذربيجان قاومهم ، وعندما أراد محمد أن يتدخل فى شئون بغداد كما فعل أسلافه لم يذعن الخليفة له ، فحاصر محمد بغداد ، وظل الخليفة صامدا هو وجيشه الذى كان قد حشده من الأكراد ومن غلمانه وأخذ يحرض الأتابكة على محمد ، فاضطر محمد إلى فك الحصار عن بغداد لمقاومة الأتابكة وعاد إلى فارس وأفلتت الخلافة من يد السلاجقة واستعادت استقلالها بعد سنوات من الخضوع .

وبعد المقتنى تولى الخلافة ابنه يوسف بلقب المستنجد بالله عام 555 هـ ، فالتقى القبض على أخيه الذى تأمر مع عدد من الجوارى لقتل الخليفة ، وقتل عددا وأغرق عددا آخر فى نهر دجلة ، وتولى شئون الخلافة بسياسة تتسم بالعدل ، وفى العام الحادى عشر من خلافته أراد أن يلقى القبض على رئيس ديوانه وكبير غلمانه ، لكنهما علما بما عزم عليه فآلقيا القبض عليه وحبساه بالحمام⁽¹⁾ إلى أن توفى فى عام 566 هـ ونصب بدلا منه حسن المستضىء بأمر الله ، ويقال إنه كان خليفة عادلا وكرما ، وقد زالت الخلافة الفاطمية من مصر فى عهده وتوفى المستضىء بمرض الخناق فى عام 632 هـ ، وتولى الخلافة من بعده ابنه أحمد الملقب بالناصر لدين الله وكان رجلا ماكرا إلا أنه كان يحب

(1) وكان مريضا بمرض الالتهاب ، فكان الحمام صارا به ، مذكرات آقاي ميسوى

العمارة والتشييد ، وكان يولى أهمية لأعمال التجسس وكان يعين العيون فى بلاط الأمراء فى المناطق المجاورة وكان يطوف بنفسه ليلا فى المدينة يتجسس أخبار الناس، وفى عهد الناصر بلغت دولة صلاح الدين الأيوبي أوجها، وبلغت الحروب الصليبية أوج اشتعالها، ولم يكن الخليفة يتدخل بأى صورة فى هذه الحروب ، ولكن كان المجاهدون يشاركون فيها باعتبارهم متطوعين من مختلف أرجاء العالم الإسلامى .

وفى تلك الآونة كانت الدولة الخوارزمية التى حلت محل السلاجقة قد بلغت أوج قوتها فى فارس ، وفى عهد الناصر قرر محمد خوارزمشاه، الذى كان يكن الحقد للخليفة، أن يقضى على العباسيين وأن يولى أحد السادات من خراسان ويدعى سيد علاء الملك الترمذى خليفة ، وحرك فى عام 614 هـ جيشا كبيرا بهذا الهدف إلى بغداد وفى همدان أتى الشيخ شهاب الدين السهروردى شيخ صوفية بغداد سفيرا من قبل الخليفة لدى خوارزمشاه ، فاستقبله الشاه ببرود وتجاهل تام ، فقدم الشيخ بيانا فى فضائل بنى العباس وخاصة الناصر، وأثبت بالحديث والتاريخ أن العدوان على بنى العباس أمر مستهجن ، إلا أن خوارزمشاه فقد أدلته وأغلظ له الرد قائلا إن معظم بنى العباس ولدوا فى السجون، وأكد له رغبته فى تنصيب أحد سادات أهل البيت بدلا منهم تتوفر فيه كل هذه الفضائل الحسنة ، فعاد السفير خالى الوفاض ، وانشغل الخليفة بإعداد أسباب التحصن إلا أن خوارزمشاه عاد من حلوان بسبب البرودة الشديدة وأجل ماعزم عليه الى العام التالى ، وفى العام التالى تبدلت الأوضاع فى فارس بسبب غزو المغول .

توفى الناصر فى عام 622 هـ بعد ستة وأربعين عاما فى الخلافة فى سن السبعين، وتولى الخلافة من بعده ابنه محمد الملقب بالظاهر بالله الذى قضى فترة من حياته فى سجن أبيه ، وكان رجلا عادلا وقام بإلغاء جهاز الجاسوسية الذى أنشأه أبوه ، وخلفه ابنه المنصور الملقب بالمنتصر بالله وكان عظيم الاهتمام بتشديد المباني الخيرية وأنشأ جامعة المستنصرية ببغداد والتى ورد ذكرها مفصلا فى رحلات ابن بطوطة وكتاب الحوادث الجامعة وجلس على العرش من بعده ابنه عبد الله الملقب بالمستعصم بالله فى عام 640 .

كان المستعصم رجلا يهوى المرح ، فكان يقضى معظم وقته فى سماع المطربين ومشاهدة المهرجين أو مطالعة الكتب ، وراج فى بلاطه سوق الدسيمة والتآمر إيما رواج،

واشتد الصراع بين وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي والأمراء ، وفي عهده نشب الصدام بين السنة والشيعة في بغداد ، وهب أبو بكر بن المستعصم لنصرة السنة ضد الشيعة ، وكان ابن العلقمي يكن الضغينة للخليفة ، وكان الوزير نفسه شيعيا ، لذا فعندما اتجه المغول صوب بغداد كان البلاط منقسما على نفسه ، وعندما كان هولاكو قائد المغول لا يزال في همدان منشغلا بجمع صفوف جيشه تم تبادل العديد من السفارات بينه وبين الخليفة ، وكان قائد المغول يطالب بالطاعة والخضوع ، وكان وزير الخليفة يعتقد في إمكانية دفع شره عن طريق الهدايا والخطبة وسك العملات ، إلا أن قادة الجيش كانوا يعارضون المهادنة مع المغول ، وأمر الخليفة بتعبئة الجيش بتأثير منهم .

عبر المغول دجلة من منطقة تكريت وهبطوا منها صوب بغداد ، فلاذ الناس بالفرار من كل صوب ولقى الجيش الصغير الذي أرسل لرد الغزاة الهزيمة سريعا ، وبلغ الغزاة قلب المدينة وأعملوا النهب والقتل وخربوا أسوار المدينة بآلاتهم الحربية ، فاضطر المستعصم للاستسلام وبعد أن جمع المحتلون أموال الخليفة وخزائنه أخذوا الخليفة الى ظاهر المدينة وقتلوه ، وفي رواية انهم لفوه في ملامة إلى أن توفي ، ثم أخذوا في القتل والتخريب العام في المدينة وبهذا سقطت بغداد بعد عدة قرون من السيادة الدنيوية والدينية .

ولكن لم ينته أمر الأسرة العباسية بهذه الواقعة ، فقد فر أحد أفراد الأسرة الى مصر ، فاستقبله الملك حيثثد وهو ببيرس الذي كان واحدا من أسرة الماليك ، واعترف به خليفة بلقب المستنصر بالله ، ولكنه لم يتدخل في الأمر بأية صورة وظل نسله على هذه الصفة المعنوية الى أن استولى السلطان سليم الاول العثماني على مصر في عام 923 ، ونقل صفة الخلافة الى نفسه بعون من مفتي اسلامبول الأحناف خلافا لمبدأ " الأئمة من قرش " ، وصرح لآخر الخلفاء العباسيين المتوكل الثالث بالعودة إلى مصر حيث توفي هناك في عام 945 هـ ، وزالت الأسرة تماما بموته .

في خلال هذه القرون العديدة من التاريخ نشأت في العالم الإسلامي حضارة عظيمة من امتزاج العناصر المختلفة والحصارات المتباينة التي اجتمعت تحت لواء الإسلام الواحد عرفت بالحضارة الإسلامية أو الحضارة العربية نظرا لأن لغة هذه الحضارة كانت العربية وانتشرت في أرجاء العالم بهذه اللغة

وقد اشرنا إلى هذا الموضوع الضخم الذي دونت فيه محلدات كلما سحت الفرصة أو استدعى الأمر وأوردنا إشارات عن الأوضاع الاجتماعية التي سادت في تلك العهود ،

ويمكن للمرء من مطالعته لهذه الأوضاع أن يدرك أن المجتمع الإسلامى قد قام على أساس الدين الإسلامى الحنيف ، ثم وجد الثراء والبذخ طريقه إلى الطبقات العليا من المجتمع على أثر الفتوحات ، فتبدلت الخلافة إلى سلطنة وطوى النسيان الطريق الذى رسمه النبى (ﷺ) واستبدل به سبيل القياصرة والأمكاسرة مصداقا لقول النبى (ﷺ) " لتركبن سنن من قبلكم " ، ونتيجة لهذا الانحراف اختل التوازن وتبهاأت أسباب التدهور والضعف وفى النهاية زالت الخلافة تماما .

ولكن ظهرت فى هذه الحضارة ثقافة كبيرة وهامة كان لها أعظم الأثر فى تطور حضارات الدنيا ولم تقتصر فائدتها على الشرق الإسلامى وحسب بل ونهلت أوروبا العصور الوسطى من نبعها الفياض ، فحققت العلوم والآداب تطورات هائلة فى عهد العباسيين فمن ناحية تقدمت العلوم المرتبطة بالدين و اللغة مما اقتضاه الإسلام والتعريب ، ومن ناحية أخرى تطورت الفلسفة والعلوم التى تسمى " دخيلة " عن طريق الترجمة عن الأمم الأخرى ، واتجه علماء الإسلام إلى التعمق والبحث فيها ، وكان مركز هذه الحركة بغداد حيث اجتمع بها العلماء من مختلف الأعراق واشتغلوا بالعلوم فى ظل الخلفاء والموسرين ، من محبى العلوم ، وكان العلم والبحث شغلهم الشاغل ، ونشطت فى هذا المجال مدن كبرى أخرى من قبيل البصرة والكوفة والرى وبخارا ونيسابور وغيرها كل فى عصر من عصور هذه النهضة ، وامتدت أمواج المعرفة من الشرق الى الغرب ، وظهر بالاندلس مركز كبير آخر ينافس مركز بغداد ، وبلغ نورها الى أوروبا القرون الوسطى التى كانت غارقة فى ظلمات الجهل ، وكانت الحروب الصليبية عاملا آخر فى الاتصال بين الشرق والغرب وظل الأوربيون يستوعبون حكمة اليونان فى مدرسة علماء الإسلام إلى ما قبل النهضة .

ومما يؤسف له أنه لم يبق من زحمة الكتب التى دونت فى العصر العباسى بقلم علماء الإسلام سوى قدر يسير بينما ضاع معظمها فى طى الأحداث ، ومن بين ماتبقى الكتاب القيم الذى دونه محمد بن اسحق النديم الذى دون فهرسا للكتب التى وضعت حتى زمانه ولجأ به مايدل على العظمة التى بلغت تلك النهضة العريضة .

قائمة المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
|-----------------------------------|--------|
| مقدمة المترجم | 3 |
| الفصل الأول: الجزيرة العربية | 5 |
| جغرافية الجزيرة العربية | 7 |
| الحياة فى الجزيرة العربية | 9 |
| العرب البائدة | 17 |
| شعوب الجنوب ودوله | 21 |
| شعوب الشمال ودوله | 30 |
| ديانات العرب فى الجاهلية | 50 |
| الفصل الثانى : النبى فى مكة | 57 |
| مكة وقريش | 59 |
| ميلاد النبى وطفولته | 63 |
| شباب النبى وبعثته | 65 |
| البعثة والدعوة والهجرة إلى الحبشة | 69 |
| قسوة قريش | 73 |
| الدعوة خارج مكة | 76 |
| بيعة العقبة والهجرة | 77 |
| الفصل الثالث: النبى فى المدينة | 83 |
| العام الاول بعد الهجرة | 85 |
| العام الثانى بعد الهجرة | 87 |
| العام الثالث بعد الهجرة | 91 |
| العام الرابع بعد الهجرة | 94 |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| 96 | العام الخامس بعد الهجرة |
| 101 | العام السادس بعد الهجرة |
| 107 | العام السابع بعد الهجرة |
| 111 | العام الثامن بعد الهجرة |
| 116 | العام التاسع بعد الهجرة |
| 119 | العام العاشر بعد الهجرة |
| 122 | العام الحادى عشر بعد الهجرة |
| 127 | الفصل الرابع : الخلفاء الراشدون |
| 129 | خلافة أبى بكر (11 - 13) |
| 140 | خلافة عمر (13 - 23) |
| 151 | خلافة عثمان (24 - 35) |
| 159 | خلافة على |
| 169 | الفصل الخامس : الأمويون |
| 171 | معاوية وأسرّة أبى سفيان |
| 178 | أسرة مروان |
| 192 | الدعوة العباسية وأبو مسلم |
| 199 | الفصل السادس : العباسيون |
| 201 | الخلافة العباسية فى عهد نفوذ أهل خراسان |
| 218 | الخلافة فى عهد غلمان الترك |
| 227 | الخلافة فى أيدي آل بويه |
| 231 | الفاطميون فى مواجهة العباسيين |
| 240 | الخلافة فى عهد السلاجقة . |

رقم الإيداع: $\frac{5807}{1993}$

الترقيم الدولي الموحد للكتاب:

I.S.B.N: 977-223- 127-1

